حديقة الأسرار المفقودة

Telegram:@mbooks90

آي إم هويل

ترجمة: أنور الشيخ

تم نشره لأول مرة في المملكة المتحدة في عام 2022 بواسطة ZAFFRE
نسخة من كتب Bonnier في المملكة المتحدة
الطابق الرابع، فيكتوريا هاوس، بلومزبري سكوير، لندن، إنجلترا، WC1B 4DA
مملوكة من قبل Bonnier Books
سفيافاجن 56، ستوكهولم، السويد
حقوق الطبع والنشر © باتريشيا ويلسون، 2022
كل الحقوق محفوظة.
لا يجوز استنساخ أي جزء من هذا المنشور،
تخزينها أو نقلها بأي شكل من الأشكال وبأي وسيلة إلكترونية أو
ميكانيكية أو تصوير أو غير ذلك، بدون
الحصول على إذن كتابي مسبق من الناشر.
حق باتريشيا ويلسون في أن يتم تحديدها كمؤلفة لهذا
وقد تم تأكيد العمل من قبلها وفقا لقانون حق المؤلف والتصاميم وبراءات الاختراع لعام
1988.
عمل خيالي. الأسماء والأماكن والأحداث والحوادث هي إما نتاج خيال المؤلف أو
استخدامها بشكل خيالي. أي تشبه أشخاص حقيقيين، أحياء أو أموات، أو فعليين الأحداث
هي من قبيل الصدفة البحتة.
سجل CIP catalogue لهذا الكتاب هو متاح من المكتبة البريطانية.
الترقيم الدولي المعياري للكتاب:
978-1-83877-901-6
متاح أيضًا بصيغة الكتاب إلكتروني والكتاب مسموع
1 3 5 7 9 10 8 6 4 2
تمت الطباعة بواسطة IDSUK (Data Connection) Ltd
تمت طباعته وتجليده في بريطانيا العظمى بواسطة شركة Clays Ltd، Elcograf S.p.A.
Zaff re is an imprint of Bonnier Books UK
www.bonnierbooks.co.uk

أكتوبر 1916

تُرسَل كلارا للمكوث في ضيافة خالتها وعمها بينما إنكلترا في حالة حربٍ؛ لكن كلارا تنغمس في شبكةٍ من الأسرار بمجرد وصولها إلى كوخها الواقع في مزرعةٍ فسيحةٍ ...

غرفةٌ مظلمةٌ مقفلةٌ، ولصٌ ماكرٌ، وصبيٌّ غامضٌ لا يظهر إلا ليلاً. كان لدى كلارا سرُّها أيضاً؛ وهو سرٌّ رهيبٌ متعلقٌ بشقيقها المنخرط في الحرب. وبتحول الأسرار إلى خطرٍ، كان على كلارا أن تتحلى بالشجاعة لإنقاذ نفسها وإنقاذ مَن هم حولها ...

وتتقاطع الأسرار والألغاز والشجاعة في هذه المغامرة التاريخية الآسرة.

إلى عائلتي ...

الفصل الأول
(البيت الجديد)

كان السر القابع في جيب مئزر كلارا ثقيلاً، بينما هي تدب بحذائها على طريقٍ من حصى مفضٍ إلى كوخ البستاني. تغضّن أنفها فقد كان المنزل لا يشبه المنازل إذ بُنيت إحدى جوانب ذلك الكوخ على هيئة جدارٍ عالٍ من طوبٍ أحمرَ يطوّق حدائق الخضروات من جوانبها الثلاثة، فيفصلها عن بقية ملكية الكونت الكبيرة التي تنتهي ببابٍ بنيٍّ في زاوية سورها، فكأنما هو صورةٌ دُفعت إلى اليمين قليلاً من دون أن يتم تعديلها مطلقاً؛ ومن فوقه تقبع كوة ماسيةٌ تشرف كالعين الساهرة على مزيجٍ من حدائق الخضروات المتموجة، والفرّاعات المتداعية، وأشجار التفاح المثقلة بالثمار.

Telegram:@mbooks90

اندفعتِ السيدة جيلبرت، مدبرةُ منزل الكونت، على طول الطريق أمام كلارا، وقد صففت شعرها الرمادي المتموج والمرقط بدقةٍ تحت قبعتها القماشية. تحسستِ كلارا شعرَها، فانسابت على كتفيها خصلةٌ متموجةٌ منه. ألهذا تغضن جبينُ السيدة جيلبرت عند وصولها؟

استدارت كلارا ونظرت إلى الحدائق التي كانت أكبر من أكبر حديقةٍ في مسقط رأسها، وهي تتمايل ذات اليمين وذات الشمال كما لو أن الأرض لم تعد تعرف إلى أين تمضي. لم يكن الحد الجنوبي للحدائق مسوراً بجدارٍ حدوديٍّ، وإنما ببحيرةٍ صغيرةٍ تتلألأ في أوائل شهر أكتوبر، وفي الوسط أربعةُ بيوتٍ بلاستيكيةٍ دفيئةٍ بأحجامٍ متفاوتةٍ، وقد راح يزداد فيها التكاثف فتتجمع قطراته على النوافذ الكبيرة التي تضغط عليها الأوراق السميكة كما لو أنها تحاول الهروب. أطلق رجل أحدبُ الظهر صفيراً عالياً غيرَ متناغمٍ وهو يدفع نحوها عربةً من القرع البرتقالي المحترق والقرع الأخضر على طول ممشىً بين البيوت الدفيئة، بينما كان رجلان أصغرُ سناً يتجاذبان أطراف الحديث في البستان فكانت أصواتهما ترتفع وتنخفض متناغمةً مع جلجلة التفاح الذي يقذفانه في سلالٍ من الخيزران. إلى يسارها كان رجلٌ آخر ينفخ لاهثاً وهو يقلّب بمذراةٍ تربة المزروعات.

حينها وقع نظرُ الرجل الذي يدفع العربة على كلارا فحياها بسعادةٍ.

كانتِ كلارا على وشك رد التحية لولا أنْ بدا لها الغضبُ في صوت السيدة جيلبرت في الحدائق:

- تعالي إلى هنا يا كلارا.

أطرق رجل العربة برأسه وواصل مسيره.

فتحتِ السيدة جيلبرت الباب البني الذي لم يكن مقفلاً. انقبض حلق كلارا، وقبضت على سرها وهي تتبع خطى السيدة جيلبرت في ممرٍّ مظلمٍ.

ابتلعتِ كلارا ريقها، ووضعت حقيبتها الصغيرة على الأرضية المكسوة بالبلاط، فكان في نهاية الردهة رجل بشعرٍ أسودَ كثيفٍ، يقف ويدغدغ سقف الكوخ المنخفض. دس في جيب سرواله دفترَ ملاحظاتٍ وقلمَ رصاصٍ، ورمق السيدة جيلبرت بنظرةٍ لطيفةٍ مليئةٍ بكلماتٍ لم تفهمها كلارا، ثم تنهد. أهو الحزن؟ أم خيبة الامل؟ أم عساه شيء آخر؟ في جميع الأحوال، كانتِ كلارا متأكدةً من أن للأمر علاقةً بوصولها.

- «هل تذكرين السيد جيلبرت، زوجي؟» قالت السيدة جيلبرت بصوتٍ رقيقٍ.

أومأتِ كلارا برأسها وبذلت قصارى جهدها في إجبار شفتيها على رسم ابتسامةٍ ما. كانت آخِرُ مرةٍ قامت فيها عائلة جيلبرت بزيارة كلارا وعائلتها في كينت عامَ ١٩١٣؛ قبل ثلاث سنواتٍ، ولذا لم تكن لديها سوى حفنةٍ من الذكريات عن هذا الرجل الذي تروي وجنتاه الحمراوان الفتيتان قصة حياةٍ قضاها في العمل رئيساً للبستانيين في حوزة الكونت؛ ومن تلك الذكريات جولةٌ على الأكتاف في يومٍ عاصفٍ، أو توبيخ من والدتها عندما غمست هي والسيد جيلبرت أصابعهما في قدرٍ من مربى الكشمش الأسود الساخن، ومنها كذلك الأخاديدُ العميقةُ في خديه بسبب تبسمه شبه الدائم. ابتلعتِ كلارا لُعابها؛ فتلك الأخاديد لا تزال موجودةً، لكن الابتسامة غائبةٌ. قالت: «مرحباً» فكان صوتها جافاً متقطعاً بعد رحلتيها الطويلتين بالقطار.

أومأ السيد جيلبرت برأسه، ووقف ينظر إلى كلارا لبضع ثوانٍ، ثم قال: «أهلاً.»

فذكّر صوتُه كلارا بكعكة أمها المصنوعة من جوز الهند، والتي كانت خشنةً قليلاً وناعمة الحواف في الوقت ذاته، ثم فتح فمه كأنما أراد لو يضيف شيئاً آخر، لكنه على ما يبدو وجد فكرةً أفضل، فاستدار وشعرُه يلتقط خيوط عنكبوتٍ تتدلى من السقف (وفيها ربما ذبابةٌ ميتةٌ أو اثنتان)، ثم توارى وراء بابٍ آخرَ في نهاية الرواق. جعل صوتُ فتح أبواب الخزانة وإغلاقها وإعدادِ الطاولة لتناول الشاي السيدةَ جيلبرت تعض على شفتيها، وتعبث بنهايات أكمام سترتها الصوفية الزرقاء.

نظرتِ كلارا إلى بقايا نسيج العنكبوت المتمايل مع النسائم المتسربة، من جهة الباب الأمامي الذي لا يزال مفتوحاً خلفها. لم يكن ترحيب ذويها بمستوى توقعاتها، ولذا تراخى كتفاها.

- لا تقتربي من الغابة؛ فقد سمح الكونت لفوج سوفولك بالتخييم هناك، ولا تشتتي انتباه الخادمات أو البستانيين وتضيعي وقتهم بالثرثرة، ولا تقتربي تحت أي ظرفٍ من الظروف من دفيئات الكونت الزراعية أو منزله الصيفي، ولا تتحدثي إلى الكونت أو تنظري في عينيه إذا ما رأيتِه. يمكنكِ كذلك البقاءُ بعيداً عن ذاك المنزل عند الجدار في نهايةِ الحديقة، فهو الكوخ الذي ينام فيه صغارُ البستانيين ورعاة الحيوانات. حاولي ... في أثناء وجودك هنا أن تكوني نافعةً وحسبُ. كان رنينُ كل وصيةٍ من تلك الوصايا متناغماً مع رنينِ كعبَي السيدة جيلبرت وهي تصعد الدرجَ الخشبي بخطىً ثابتةٍ؛ فلما بلغتِ الطابق العلوي استدارت فكان وجهُ مدبرة المنزل العريضُ أرجوانياً كأصابعها المتهالكة.

حاولت كلارا أن تتذكر وابلَ الكلماتِ التي ألقيث للتو في مسامعها وضُبِّث، لكن تلك الكلماتِ تطايرت من أذنيها تطايرَ العثّ وخرجث من الباب المنتصب خلفها.

- أسمعتِ ما قلث يا كلارا؟ أغلقي الباب خلفك! كم تشبهين في ذلك أباكِ، إذ طالما دأب على تركها مفتوحةً دائماً.

- نعم يا عمتي! ردتِ كلارا بخنوعٍ، وأغلقتِ البابَ فحل مكانَ أصوات رفوش حراثة الأرض، والضحك، والثرثرة، ونشاط البستانيين صمت دفع الهواءَ خارج صدر كلارا التي وخزتِ الورقةُ القابعةُ في جيبها بإصبعها الصغير راجيةً إخراجها وتفحصها.

تساءلتِ كلارا ما إذا كانت عمتها قد غادرتْ فعلاً، فهي وحدها أخيراً، أم أن المرأة تجوب في مكانٍ ما أعلى الدرج. همست بلفظ «لاحقاً.» للورقة التي لم ترد.

- يمكنك مناداتي بالسيدة جيلبرت. قالتِ السيدة جيلبرت بصوتٍ منخفضٍ جداً حتى بدا كأنما ينزلق على الدرج ليلتفَّ حول قدمي كلارا كثعبانٍ.

قبضتِ كلارا أصابع قدميها حتى تأذت متمنيةً تلاشيَ الثعبان.

- سأريكِ غرفتكِ. قالتِ السيدة جيلبرت بصوتٍ ما زال لاذعاً، لكنه أقل خبثاً من ذي قبل.

دفنتِ كلارا سرها في طيات جيبها، وصرّت على أسنانها، والتقطتْ حقيبتها الصغيرة، وتبعتِ السيدةَ جيلبرت نحو الطابق العلوي.

الفصل الثاني
(الصبي)

بينما غرقتِ كلارا في السرير المتكتل أخذت نفساً عميقاً، وعكفت تفكر في ظهرِ والدها المنتصبِ كقضيبٍ معدنيّ، وفي شعرِه الداكن المموج الذي لا تفتأ أمها تحاولُ تسريحه، فبدا الأمر لها كما لو أنّ من المستحيل أن يكون بين أبيها والسيدة جيلبرت رحمٌ؛ ولكنهما كانا كذلك بطريقةٍ ما.

لم يتحدثِ والدها كثيراً عن أخته الكبرى، ولكن الود كان يبدو جلياً في كلامه حين يَذكرها؛ وذلك من خلال سرده قصص الصيف الذهبي المفعمة بالفكاهة، وما فيها من تشييد بيوتٍ للشجيرات، وحجزٍ لتيارات الجداول المتدفقة. قبل ثلاث سنواتٍ استقبلتِ السيدة جيلبرت كلارا بعناقٍ حميمٍ، وعلبةٍ من التوت الأحمر البري الذي جلبته من سوفولك؛ أما الآن فلا توتَ ولا عناقَ. إنّ هي إلا إيماءة رسمية، وابتسامة رقيقة،(لم تكن سخيةً على الإطلاق).

- هل تذكرين عمتك إليزابيث التي تعمل لدى كونت في سوفولك؟ ستمكثين عندها هي وزوجها لبعض الوقت ريثما تتحسن الأمور هنا. كانت أمُّ كلارا قد قالت لها قبل بضعة أيامٍ.

شعرتِ كلارا أن وجهها يتفتت كصخرةٍ تتردى من فوق جرفٍ، فقد تفاقم سعال أبيها خلال الأسبوع الماضي فكانت أمها غالباً ما تجلس إلى جوار سريره ممسكةً بيده، فتنقطع سلسلة محادثاتهما المهموسة إذا ما مرّت كلارا في بعض الأحيان أمام باب غرفة نومهما. تغلق أمها الباب، فيغدو قلب كلارا كما لو أنه يتلوى داخل عقدةٍ ضيقةٍ. كان والدها يمقتُ الأبواب المغلقة ويقول: «إنّ الأبواب والنوافذ مفتاحُ روح المنزل؛ فإذا ما مسّكَ حزنٌ فافتحها لتحرير حزنك ذاك، وإذا ما غشيتك من السعادة نفحةٌ فافتحها كذلك علّ فرحتك تحتضن العالم.»؛ ولذا كانت أبواب المنزل ونوافذه مشرّعةً على الدوام. كان أبوها يحب أن يتنفس هواء الصباح البارد حتى في فصل الشتاء؛ بل وحتى إبان الحرب العالمية، وظل على حبه ذاك إلى أن تسمم بالغاز.

- ستكون فترةً قصيرةً. قالت أمها وهي تنحني لمداعبة القطة نبتون التي تشخر وتدور متحسسةً ساقي أمها.

- فترة. كررت كلارا التي لم تغادر المنزل من قبل، ولا بد أن سوفولك بعيدة المنال لأن عمتها لم تزرها منذ فترةٍ طويلةٍ:

- لكن ... ماذا عن المدرسة؟ ينبغي أن أبقى هنا لأساعدك في رعاية أبي. هذا أفضل. أليس كذلك؟

رفعتِ الأم رأسها، ومنحت كلارا ابتسامةً رقيقةً، وكررت:

- سيذهب والدك للمكوث في ديفون؛ فالهواء هنالك خيرٌ منه هنا، وهو بحاجةٍ للتعافي. أنا كذلك ذاهبةٌ إلى هناك، وسيكون ذلك لفترةٍ قصيرةٍ فقط.

ثم بدأت في تحضير الشاي. كان الجلد تحت عينيها قاتماً كما لو كان ملطخاً برماد موقد الفحم، وكانت كلارا تتوق إلى تحويل هذا الرماد إلى ماسٍ ترى من خلاله عينَي أمها تلمعان وتضحكان كما كانتا فيما مضى، لكن هذا الأمر لم يحدث منذ اليوم الذي توقفتِ كلارا فيه عنِ التفكير فيه.

- حاولي ألا تقلقي يا كلارا. سأكتب لك ما استطعتُ، فخذي الأمر على أنه مغامرةٌ صغيرةٌ، وسنلتقي جميعاً مرةً أخرى قريباً. عندما تلفظتِ الأم بالمقطع الأخير ، كانت عيناها تتواريان فوق القدر الذي يغلي ويفور على الموقد، فالتقطتِ كلارا منشفة الصحون لترفعها وتضعها على لوح التسخين.

أغلقتِ كلارا باب ذكرياتها، واستلّتِ المغلف من جيبها، ووضعته على الوسادة المجاورة لها. أين تخفيه! تذكرتِ الفزاعاتِ التي مرت بها في الحديقة، وحشوَها المنفوشَ من معاطفها المهترئة، وتفحصت فراشها البالي الذي انفصمت درزةٌ في الجانب السفلي منه؛ فقامتِ كلارا بحل الخيط بعنايةٍ، ثم حشرتِ الظرف داخله، وربتث على حشو الفراش فوقه، وأسدلتِ الأغطية فوقه كالمعطف.

ولما أخفتِ كلارا المغلف، نهضتْ ترحب بغرفتها الجديدة؛ إذ علّمها والدها أن مِن حُسن أدب المرء وتهذيبه أن يلقيَ التحية على محيطه الجديد، وكان من شأن هذا

أن يجعلها تضحك كلما زاروا مكاناً جديداً. «مرحباً أيها المتحف. شكراً لترحيبك بنا.» كان يقول بينما هم يعبرون الأبواب الضخمة، فتقفز كلارا إلى جواره، وتقول: «مرحباً أيتها اللوحات. مرحباً أيتها التماثيل. مرحباً. مرحباً. مرحباً.»

وضعت كلارا يديها على الجص الصلب لغرفة العلية: «مرحباً أيها الجدار.»

«مرحباً.» قالت لطاولةٍ خشبيةٍ ذات ساقٍ متذبذبةٍ.

«مرحباً.» قالت لبطانية كروشيه مطويةٍ وقدِ التقطتها من نهاية سريرها وسحبتها حتى بلغت خدَّها. فكرتِ كلارا بغرفة نومها في المنزل، برفها الخشبي الصغير المملوء بالكتب ودمى الدببة والعرائس أيضاً (والتي كانت بالنسبة إليها كأصدقاءَ قدامى لم تستطع وداعهم). لم تجلب من المنزل الكثيرَ من الأشياء. إنْ هي إلا نسختُها الباليةُ من (كتاب الأدغال)، وقرطاسيةٌ وريشةٌ ودواة حبرٍ لتتمكن من الكتابة لأمها وأبيها. ولاندفاعها حين حزمتْ أمتعتها، نسيتْ إحضار دميةٍ محشوةٍ أو عروسٍ؛ فغصَّتْ حين عاودتها ذكرى أصدقائها المحشوين بالقطن، الماكثين في المنزل، المنتظرين عودتها.

كان لمنزلها دَرَجٌ وحيدٌ، وكانت غرف النوم قريبةٌ جداً من بعضها بحيث لم تكن أصوات عائلتها بعيدةً أبداً، أما الآن وقد لفَّها صمت العلية فقد راودها شعورٌ بأن الأمور ستكون مختلفةً هنا.

أخذت نفساً عميقاً، ونظرت إلى عوارض العلية المحببة والسقف (الذي كان مائلاً جداً بحيث لم تستطع الوقوف إلا في وسط الغرفة)، فقالت لعائلةٍ من العناكب الصغيرة المتشبثة بشبكاتها المنصوبة بين عوارض البلوط البني: «أوه! مرحباً بكم أيضاً.» كانتِ الأم تخاف العناكب فتصفع شبكاتِها بمنفضةٍ من ريشٍ إلى أن تتلاشى أنماطُها الواهنةُ، فيتحولَ عملُها الكؤودُ عدماً. أما كلارا فتبسمت. يمكن للعناكب أن تبقى، بل سيكون من الجيد أن يحظى المرء ببعض الصحبة في علية هذا المنزل المجهول.

حيّتِ كلارا النافذة الكريستالية أخيراً، ونظفتِ النافذة بحواف مئزرها، وحلت

المزلاج لفتح النوافذ فتنفست أولى نسائم المساء، وعيناها تتبعان جدار القرميد المتعرج. كانت نوافذ الدفيئات باهتةً في الضوء الشاحب، وبينما هي على ذي الحال تراقب إذِ انفتح باب أحدها للخارج فتناثرت منه هالةُ بخارٍ قصيرةً كأنها أنفاس تنينٍ أحاطت بصبيٍّ؛ فأطلّتِ كلارا من النافذة قدرَ ما تجرأت فكانت قبعته منخفضةً تغطي وجهه، لكنه بدا ابنَ ثلاثة عشر عاماً، أو لعله أكبر من ذلك بعامٍ. تلفتتِ كلارا حولها بحثاً عن البستانيين الذين رأتهم عند وصولها، إلا أن كل شيءٍ بدا هادئاً باستثناء سرب غربانٍ تجاهلتِ الفزاعاتِ فراحت تنقر قمم الخضروات ببسالةٍ.

بدا الصبي متوتراً كأرنبٍ يتحفز للفرار، فهو ينظر يمنةً ويسرةً، إلى أن رفع عينيه فالتقتا بعينيها.

تجمد.

اجترعتِ كلارا نفساً من الهواء، وتوارث عن ناظريه.

نادتِ السيدةُ جيلبرت على كلارا:

- تعالي وساعديني في تحضير الشاي. كان صوتها غاضباً تماماً، وكذا لون خديها وأصابعها.

نهضتِ كلارا ببطءٍ، واختلست نظرةً من فوق عتبة النافذة ثم نكصت، كان الصبي قدِ اختفى، بل تبخر في أثير المساء تبخُّرَ الماء في السماء.

الفصل الثالث

(الباب الموصَد)

ثبتَ كلارا على الأرض كلبٌ هسكي كبيرٌ بوبرٍ أبيضَ ورماديٍّ، وقد كشّر عن أنيابٍ منتصبةٍ، وبدا متأهباً لانتزاع بضعةٍ من حلقها؛ فصرخت: «لا.» وهي تدفع الكلب بعيداً فألفت فروَه صلباً، لا ناعماً كما بدا لها. وثب عليها الكلب مجدداً فصاحت:

- دعني أذهب. إليك عني. وغرزت فيه أصابعها تقرصه.

- توقفي. توقفي عن ذلك أيتها الفتاة الساذجة.

استيقظتِ كلارا مع بداية الفجر، واعتدلت في السرير.

فوجدت السيدة جيلبرت تقف في الظلمة فوقها، وهي تلهث كفأر.

وهناك شيء تاعمٌ يتخلل أصابعَ كلارا، فعادث لها صورُ حُلمها. فتحت قبضتها، واتسعت عيناها إذ رأت في راحة يدها من فراء الكلب الرمادي أوباراً تحسستها بإصبعها، كان بعضها سميكاً، وبعضها رقيقاً.

صعدتِ الدرجَ خطىً ثقيلةٌ، فإذا بالسيد جيلبرت يقف في المدخل مرتدياً ثوب نومٍ بدث تحته ساقاه العاريتان كساقَي دجاجةٍ هزيلةٍ، فقال وهو يدخل الغرفة:

- ما الأمر بحق السماء؟

تنقلتِ كلارا بناظريها بين السيد والسيدة جيلبرت مروراً بالشعر في يدها، فبدا لها مثلثاً لا معنى له.

- إنه ... شعري ... شعري أنا. قالتِ السيدة جيلبرت مشيرةً بإصبعها المرتعش إلى كف كلارا المفتوح: كنت أحاول إيقاظها ولكنها ... أخذت براسي.

أوه! فكرتِ كلارا واجتاحتها موجةٌ من الحرارة، والمطرُ يلطم زجاج النافذة المفتوحة كالمتعاطف؛ فقالتِ كلارا بهدوءٍ:

- أنا آسفةٌ. كان كابوساً ... عن كلبٍ ... كبيرٍ ...

- كلبٌ؟ قال السيد جيلبرت مُمِيلاً رأسه، محدّقاً في كلارا.

- لقد كان ... رابضاً فوق حلقي. قالت كلارا وهي تتلمس رقبتها بحذرٍ بالغٍ، لكنها لم تجد للأنياب أثراً، فأطرقت ونظرت تحتها، فلم تقع كذلك على بقع دمٍ قرمزيٍّ تلطخ ثوب نومها.

- إنه شعري. صرختِ السيدة جيلبرت مرةً أخرى وهي تربّت على رأسها.

نفضتِ كلارا الشعر بيدٍ مرتجفةٍ من دون أن تعيده إلى السيدة جيلبرت، فقد يكون ذلك التصرف وقحاً، لكنها في المقابل لن تحتفظ به أيضاً.

كانت صفعة السيدة جيلبرت حادةً صارخةً.

وانهال الشعر من يد كلارا على الأرض كسحابةٍ ينهمز طَلُّها، ثم وضعتِ يدها على خدها متفكرةً في والدها.

«أنتِ شجاعةٌ، وعندما يكون المرء شجاعاً، يمكنه أن يَبلغ أي شيء يريده.» كان يخبر كلارا حين يضعها في السرير.»

«أيّ شيءٍ؟» ترد عليه بلهفةٍ.

«مستكشفةً على زلاجةٍ تجرها الكلاب فتجتاز بك الجبالَ المغطاةَ بالثلوج، أو طياراً على متن منطادٍ يعمل بالهواء الساخن يطير بك فوق الصحاري الملتهبة، أو عالمةً بالنباتات فتقومين باستكشافاتٍ رائعةٍ في غابات الأمازون، أو طبيبةً يمكنك شفاء رئتيّ الباليتين. كوني شجاعةً يا كلارا. كوني شجاعةً. شجاعةً.» ثم تتحول عيناه بعد ذلك بيضاءَ ترنو نحو البعيد كما لو أنه لم يكن جالساً في غرفة نوم كلارا المشمسة، بل في مكانٍ مختلفٍ تماماً، ثم يسعل ويسعل، بينما تهبُّ أمها نحو المناديل والدواء وأكواب الشاي.

في المدرسة، كانتِ كلارا تتشرب كل ما يقوله المعلم، كما لو كانت أكثر فتيات العالم تعطشاً، وذلك عملاً بوصية أبيها الذي علّمها أن المعرفة أجدى سبيلٍ تحقق بها كلارا أحلامَها، بيد أن ما جهِله هو أن الكثير من أفكاره التي وضعها لمستقبل كلارا لم

تمنحها سوى الكوابيس العنيفة المترعة بكلابٍ ذاتِ أنيابٍ حادةٍ، وإبلٍ غاضبةٍ ترغي وتزبد، ومستنقعاتٍ عميقةٍ عمقاً يبتلعها بالكامل.

- ارتدي ملابسكِ. همستِ السيدة جيلبرت، ثم أغلقتِ النافذة: يمكنكِ تنظيف أرضية الكوخ في أثناء وجودي في البيت الكبير.

كان السيد جيلبرت يفرك ذقنه كما لو أنه يحاول طمس ندبةٍ عنيدةٍ حرونٍ، وكانت عيناه ناعمتين كحالهما حين وصولها أمس. تحرك فمه كأنما يهمُّ بالتحدث، فحبستِ كلارا أنفاسها. هل سيدافع عنها؟ ولكن السيدة جيلبرت أمسكت بذراعه ودفعته نحو الباب قبل أن تتاح له الفرصة لذلك.

اعتدلت كلارا في جلستها، وشبكت ذراعيها حول ركبتيها، وأصاخت السمع إلى همس السيد والسيدة جيلبرت في الطابق السفلي، فلم تدرك مما قالا سوى بضع كلماتٍ غريبةٍ ارتقتِ السلالمَ، قال السيد جلبرت:

- ما حدث قد حدث ...

- أصعب مما كنتُ أعتقد ...

- ينبغي فعل ما يطلبه والداها.

-أهو أفضل خيارٍ؟

وتسربلث على خد كلارا دمعةُ حزنٍ مسحتها بسرعةٍ بحافة ملاءتها البالية في بعض مواضعها، والتي كانت رغم ذلك نظيفةً يفوح منها عبير ماء الورد. لم تكن والدتها قد صفعتها سوى مرةٍ واحدةٍ في حياتها، وذلك بعد أن ركضت من المدرسة نحو الطريق فكاد أن يصدمها حصانٌ يجر عربةً. كانت صفعة والدتها على مؤخرة ساقيها مؤلمةً، لكنها كانت تحذيراً مستحقاً كلدغة نحلةٍ، أما صفعة السيدة جيلبرت على خدها فمليئةٌ بالنوايا النارية.

كان غطاء سرير كلارا المصنوع منزلياً من الكروشيه، والذي ترى فيه ارتخاءً في بعض الغرز، كالحديقة خارج نافذتها، فهو خليطٌ من البني الباهت، والأخضر الترابي،

والأصفر، فكيف يمكن لأصابع السيدة جيلبرت الحمراءِ الغضبى أن تصنع شيئاً جميلاً جداً كهذا؟ تحسستِ كلارا جانب الفراش وصولاً إلى الشق. كان الظرف لا يزال موجوداً هناك، لكنها تمنت من صميم قلبها لو لم يكن موجوداً، وأن يُعاد إلى أصحابه الشرعيين. رفعته إلى خدها، وأغمضت عينيها، وحاولت جاهدةً ألا تفكر في بيتها، فقد قالت أمها أن ذلك سيكون لفترةٍ وجيزةٍ وحسب.

***

تحرك الماء في الدلو إذ حملته كلارا صعوداً على الدرج. ركعت على ركبتيها وبدأت تنظف الأرضية أمام غرفة نوم السيد والسيدة جيلبرت. جعلتها الأغصان البنية في الأصيص الزجاجي المرسوم على ورق الجدران الأخضر تشعر كأنما هي في الغابة في يومٍ شتويٍّ مظلمٍ ليس فيه ما قد يرفع معنوياتها المنخفضة أصلاً. «أهي ذي المغامرة التي اعتقدتِ أن عليّ أن أخوضها؟» سألت أمّها في سرها. «وما سببُ كل هذا اللؤم في السيدة جيلبرت؟ يبدو أنها لا تحبني البتة.» لكنها من ناحيةٍ أخرى انتزعت خطأً خصلةً من شعر السيدة جيلبرت، ولذا فلا عجب أن تسوء الحالُ بعد بدايةٍ سيئةٍ كهذه.

أقحمتِ كلارا مقدمة حذائها أمام الباب المفتوح لغرفة السيد والسيدة جيلبرت، وقالت بهدوءٍ: «مرحباً يا غرفة السيد والسيدة جيلبرت.» ووضعت يدها على خزانةٍ خشبيةٍ داكنةٍ ذاتِ أدراجٍ. خلال آخر زيارةٍ للسيدة جيلبرت، تلقنتِ كلارا مخاطبة عمتها بالعمة إليزابيث؛ فلماذا لم تعد تستطع مخاطبتها بالعمة الآن؟ بدت مخاطبتها بالسيدة جيلبرت غريبةً ورسميةً إلى حدٍّ ما كمخاطبة مدرّسةٍ في مدرسةٍ. تغضّن أنفُها إذ وقفت عند النافذة تشاهد الضوء المتراقص فوق البحيرة الصغيرة التي تُشكل الحدود المائية لجانب الحدائق الجنوبي، فكانت طيور البط تثرثر بين القصب، وأسراب الإوز تتشاجر، بينما أوراقُ الأشجار تدور على الأرض في دواماتٍ فتنجرف نحو المياه لتطفوَ فوقها كقواربَ صغيرةٍ تنطلق في رحلةٍ مثيرةٍ، وهو ما شجعها ورفع معنوياتِها قليلاً.

على سرير السيد والسيدة جيلبرت المزدوج وُضع غطاءُ كروشيه جميلٌ آخرُ؛ إلا

أنه مقارنةً بغطاء سريرها كان باهتاً ضبابياً فيه امتزاج اللونين الرمادي والأسود، وبطريقةٍ ما؛ لم تفاجأ كلارا بأن السيدة جيلبرت لا تحب الألوان الزاهية.

عندما انتهتِ كلارا من كنس الأرضية وفركها ، قفلت عائدةً نحو الأسفل، فألفت هنالك باباً إلى جوار غرفة نوم عائلة جيلبرت. أدارتِ كلارا مقبضَ البابِ النحاسيّ فلم يُفتح، كان مقفلاً. تجهمت كلارا فقد أوعزتْ إليها السيدة جيلبرت بأن تمسح جميع أرضيات الكوخ. أليس كذلك؟ انحنت تنظر عبر ثقب المفتاح الصغير؛ فوجدت أن الغرفة قد زُينتْ بورق الجدران الأخضر الداكن ذاته الذي يغطي الردهة، ورأت تحت النافذة مكتباً خشبياً تكدست فوقه كومةُ أوراقٍ بدتْ كالمغلفات، وسريراً مرتباً مركوناً إلى أحد الجدران، وانتبهتْ إلى أن المصطلى قد أُزيح وأُخمد، فهمستِ كلارا: «مرحباً غرفةَ الغابةِ الصغيرةَ.»

- ماذا تفعلين؟ قالتِ السيدة جيلبرت منتصبةً على قدمين مرتعشتين عند نهاية السلالم. كان خداها متوردين، وقد تسربتْ من قبعتها الصغيرة خصلٌ من شعرها.

- كنتُ فقط ... أنظف ... كما طلبتِ. تلعثمت كلارا وهي تقف.

كانت عينا السيدة جيلبرت متقدةً كما لو أن أحداً ما أضرم فيهما ناراً:

- دعي هذه الغرفة وشأنها. هل تفهمين؟ همستْ وخطت نحو كلارا خطوةً.

تراجعت كلارا إلى الوراء خطوةً، واستندتْ إلى الجدار. هل ستُصفع مرةً أخرى؟

- لقد سألتك ... هل تفهمين؟ كررتِ السيدة جيلبرت بعينين رماديتين كصخرتين.

أومأتِ كلارا برأسها إيجاباً حتى ظنت أن رأسها سيهوي فيتدحرج في الردهة.

حدقتِ السيدة جيلبرت في كلارا، ثم فتحتْ بابَ غرفة نومها وصفقته بقوةٍ جعلتْ قطعةً صغيرةً من جبس الجدار تسقط على الأرض إلى مقربة من قدمَي كلارا، فالتقطتها كلارا ووضعتها في راحة يدها، ثم نظرت إلى مكان سقوطها من الجدار وقد فُقدت قطعةٌ من ورق الجدران الذي يغطي الجبس، فوقفت على رؤوس أصابعها، ومدت يدها وقشرتِ حوافها بعنايةٍ. كانت طبقةً من ورقٍ قابعةً فوق أخرى،

وكان تحت مشهد الغابة غصنٌ لشجرةٍ أخرى مختلفةٍ، غصنٌ منحنٍ لبرتقالةٍ وزهرةٍ بيضاءَ رقيقةٍ. عضتِ كلارا شفتها السفلى. لماذا قد يرغب أيٌّ كان في وضع ورق الجدران فوق منظرٍ ربيعيٍّ بديعٍ ليحوله إلى شتاءٍ؟

الفصل الرابع
(الدفيئة)

طُرقَ باب منزلهم الصغيرَ ذو الشرفة قبل يومين من إرسال كلارا للمكوث عند عمها وعمتها، ولمّا كانت أمها مشغولةً برعاية أبيها، فقد أخذتِ كلارا الرسالةَ من ساعي البريد ذي القبعة الزرقاء والنظرة الجادة، وأخبرته أنها ستعطيها لوالديها على الفور. كان اسم المرسل وعنوانه مطبوعاً بذكاءٍ أسفل الزاوية اليسرى: مكتب الحرب.

حدقتِ كلارا في الخط وتساءلت عما ينتظرها من كلماتٍ داخلها؛ وأثقلَ صدرَها شعورٌ عميقٌ بالذنب إذ لم تكن تريد إخفاءها؛ لكنها دستها في جيبها إلى أن يهدأ سعال أبيها، وتصفوَ عينا أمها قليلاً؛ لكنها لم تحظَ بهذا ولا بذاك؛ ففات الأوان لفعل أي شيءٍ بعد أن أُرسلت بعيداً؛ ثم إنها كانت تنوي إعطاءها للسيدة جيلبرت ... ولكن فكرة شرح ملابسات أخذها للظرف – وخاصةً بعد تلقيها الصفعة - (وردّ فعل السيدة جيلبرت المحتمل) كانت تسبب لها الصداع. ربما كان خيارها الوحيد هو الانتظار قليلاً قبل إعادتها إلى أمها وأبيها شخصياً. لقد قالت أمها إنها ستبقى لفترةٍ قصيرةٍ فقط مع عائلة جيلبرت؛ ولكن ماذا لو زاد الانتظارُ لبضعة أيامِ الطينَ بلةً؟ ماذا لو كانتِ الأخبار الواردة فيها مهمةً جداً، وينبغي أن يعلموا بها فوراً؟

أطفأتِ كلارا الشمعة على حافة النافذة بحسرةٍ بالغةٍ، وأسندت ذقنها إلى يديها، وراحت تتأمل الحدائق، وجلدُها يحترق بنار الذنب، بينما تحدق في القمرِ المنخفضِ المنيرِ الذي يستحمّ في ضوئه الأزرق المتلألئ كلُّ شيءٍ؛ فتخيلت شعورها بالذنب والارتباك يتسربان نحو الظلام مع دخان الشمعة المتصاعد، وكان عقلها يدور في دوامةٍ كقطارٍ فوق مسارٍ أفعوانيٍّ.

جنديٌّ بزيٍّ أخضرَ يسير في شارعٍ متدرجٍ.

حفنةٌ من الشعر.

كلبٌ يجثم فوقها بارزَ الأنياب.

غرفةٌ غابيّةٌ موصدةٌ.

ظرفٌ.

راحتِ كلارا تجر النفسَ تلو النفس.

بووم!

رات تات تات تات!

تشبثتِ كلارا بعتبة النافذة وقلبُها ينبض بين ضلوعها على وقع إطلاق النار المفاجئ.

رات تات تات تات تات!

بووم!

بووم بووم بووم!

لا بد أنه فوجُ البنادق يمارس تدريباتِه الليلية. كان السيد جيلبرت قد أخبرها (في أثناء تناول البيض المسلوق على الإفطار في ذلك الصباح) أن كثيراً من جنود المدفعية ذوي المهارات العالية في الفوج قد قتلوا في معركة إيبرس الثانية في العام السابق، وأن بعض هؤلاء الرجال قد عملوا لصالح الكونت الذي أضرّت به تلك الخسائر، لكنه عزم على المساهمة في المجهود الحربي، فسمح لمائة جنديٍّ جديدٍ من الفوج بالتخييم والتدرب على أراضيه، ثم انحنى السيد جيلبرت على الطاولة وهمس لكلارا أن عليها الاعتياد على سماع إطلاق نارٍ طويلٍ كل مساءٍ، نظراً إلى أن الفوج يستعد للانطلاق نحو ساحات المعارك في سُوم بفرنسا ربما.

بينما كان السيد جيلبرت يتحدث، راحتِ كلارا تفكر في صحيفة أبيها اليومية المليئة بأخبار معركة سوم، فكانت التقارير الأولية إيجابيةً، مع عددٍ قليلٍ من الضحايا والكثير من النجاحات؛ لكن والد كلارا هز رأسه وقال إن الواقع مختلفٌ تماماً، وأنه لا ينبغي لها أن تصدق كل ما تقرأه. إنْ كان والدها مصيباً، فهذا يعني أن بعض الجنود الجدد الذين كانوا يخيمون ويتدربون في أراضي الكونت لن يعودوا،

وهنا وضعت ملعقتها جانباً، واختفت شهيتها لتناول الإفطار فجأةً.

وثب سربٌ من الطيور الجائمة على الأشجار محلّقاً مُجفِلاً من نيران البنادق، فبدتِ الطيور كأنما هي مخلوقاتٌ صوفية مجنحة تصرخ فوق أحواض المزروعات، أما الفزاعات الصامتة فكانت تنصت وتراقب وهي تميل رؤوسها بذهولٍ. كان هناك شخصٌ آخر يراقبها شاخصاً ببصره قِبَل المنظر فوقه؛ فضيقتِ كلارا عينيها لتكتشف أنه الصبي! كان يجلس مُسنداً ظهرَه إلى جدارٍ قصيرٍ قبالة الدفيئات؛ ولما اختفتِ الطيور انصرف انتباه الصبي إلى شيءٍ في حجره؛ لكن الظلام الدامس وبُعد المسافة حالا دون رؤيتها لذلك الشيء الذي انحنى الصبي فوقه مولياً إياه انتباهَه الكامل، ثم وقف فجأةً، ودسه في جيب سترته واختفى.

رمشتِ كلارا بعينيها رمشةً سريعةً، واتكأت على النافذة قدرَ ما تجرأت، فلفّها النسيم الوادع كغطاءٍ. كيف له أن يختفيَ مرةً أخرى؟ أكان شبحاً؟ أم ساحراً؟ رفع رأسه إلى الأعلى، ظهر لها مجدداً؛ ففركتِ كلارا عينيها.

نفض الصبي غطاءً بالطريقة التي تُنفَضُ بها سجادةٌ مغبرّةٌ، ثم مدّه على العشب واستلقى مستقبِلاً بوجهه القمرَ الأزرق كما لو أنه شمسٌ يستحم بدفئها. حدقت كلارا فيه بينما تَواصل صدى الانفجارات والضوضاء الصاخبة في عمق الغابة. كانت تراقبه كجاسوسٍ، وهو أمرٌ لا يخلو من الخطيئة، لكنها لم تستطع أن تتحاشى النظر إليه. وظلتِ كلارا تحدق وتحدق إلى أن تثاقل جفناها واسترخيا.

عادت إلى السرير، ولفّت كتفيها بالغطاء بإحكامٍ. كان في الصبي ما يثير اهتمامها ويجعلها تريد التعرف إليه. راحت تنصت إلى أصوات الرصاص والانفجارات حتى نال منها نومٌ مزعجٌ مملوءٌ بالنيران، والجنود وأبيها وأمها والرسالة غير المغلقة، والأبواب المؤصدة والصبيّ الذي يحب الاستلقاء تحت قمرٍ يَخاله شمساً.

***

«لا ينبغي لك أن تقترب من دفيئات الكونت تحت أي ظرفٍ من الظروف.» تردد صدى صوت السيدة جيلبرتِ في رأس كلارا صباحَ اليوم التالي، بينما تتجول في

محيط الدفيئة التي رأتِ الصبيّ إلى جوارها آخر مرة. شاهدث كتفي السيد جيلبرت والعديد من البستانيين الآخرين وهم يسحبون الجزر الأبيض من أحواض المزروعات في الجانب المقابل من الحديقة. وإلى جوار أشجار الفاكهة يجلس رجلٌ يدخن وقد ضوى عند قدميه كلبُ سبانييل ذو وبرٍ أبيضَ وبنيّ.

ضغطتِ كلارا بيدها على أحد جدران الدفيئات، كانت رطبةً مبتلةً، فرسمت دائرةً صغيرةً بداخلها نقطتان للعينين وأنفٌ وفمٌ باسمٌ. مرت بأصابعها فوق النوافذ حتى بلغتِ الزاوية، وانعطفت نحو مدخل الدفيئة. كان على مقربة من مدخلها جذعُ شجرةٍ مقطوعةٍ ذو لحاءٍ مغطىً بالطحالب. طافتِ كلارا حوله ثم نزلتِ الدرجاتِ الحجريةَ الخمسَ المفضيةَ إلى الباب؛ فراحت أنفاسُها تتسارع قليلاً، ثم مدت يدها إلى خدها الذي نال من كف السيدة جيلبرت صفعةً، فعلمتْ أنه لا يزال يؤلمها عندما ضغطت عليه.

دفعتِ الباب على وجلٍ، ففُتح الباب وله صريرٌ، واصطدم وجهُها بجدارٍ من هواءٍ حارٍ رطبٍ، فأخذت شهيقاً فآخر، وبدأ التوتر في رقبتها يتلاشى. لم يكنِ الصبي هناك. طبعاً، لم يكن كذلك فهو لا يظهر إلا ليلاً كأنما هو الثعلبُ أو الغرير.

رمشتْ بعينيها نحو الحوضين الزراعيين المرتفعين أمامها، فرأت أنابيبَ معدنيةً ورديةً سميكةً تخرج من الأرض وتمر من تحت أحواض المزروعات. انحنت تتلمس أحد الأنابيب التي تغلي تحت قدميها فصاحت: «أوتش!» وأبعدت إبهامها من حرارته وأخذت تمصه.

في قمة أحواض المزروعات أوانٍ فيها ثمارٌ بيضاويةٌ مدببةٌ في أكاليلَ من أوراقٍ طويلةٍ. أناناس! ابتسمتِ كلارا، ودخلت أحد صفوف المزروعات، ومرت إلى جوار مقعدٍ عليه من لوازم البستنة بعضُ علب السقاية المعدنية، وسلة خوصٍ، ومجرفةٌ صغيرةٌ ومذراةٌ.

وعندما اقتربت من نهاية الدفيئة بات الأناناس أكبرَ فأكبر، فبدا كالدمى الخشبية التي حصلت عليها في عيد رأس السنة.

- ألا تعلمين أن الأصل أن توضع إحدى هذه الدمى داخل الأخرى؟ قالتِ أمها حينها بابتسامةٍ مرحةٍ.

- «لكني، أحزن على الصغار منها، إذ هي لا تريد أن تغرق في الظلمات». ردتِ كلارا وهي ترصفها رصفاً فوق عتبة نافذتها.

انحنتِ كلارا، وضغطت بإبهامها على القشرة الصلبة الشائكة لإحدى ثمار الأناناس، وقالت بهدوءٍ: «مرحباً أيتها الثمار».

كان الأناناس في ظن كلارا شراباً، فغالباً ما كانت ترى أناناساً كاملاً معروضاً للبيع في متاجر الفاكهة، لكن الأناناس الوحيد الذي تذوقته كان معلباً حلواً مغموراً في العصائر التي تسبب لها دهونُها ألماً في أسنانها. في العام الماضي، استأجرتْ إحدى صديقات أمها ثمرة أناناسٍ منزليّ لتكون محور حفل زفاف ابنها، فراحتِ كلارا تدور حولها مظلقةً كالباقين صيحاتِ الذهول إذ بدا لهمُ الأمر كما لو أنهم أمام صرحٍ نفيسٍ داخل متحفٍ؛ فقالت صديقة والدتها بفخرٍ: «لقد كلفني استئجارها راتب أسبوعٍ.». بدا لكلارا أن استئجار ثمرةٍ جميلةٍ من دون القدرة على تذوقها أمرٌ في غاية الغباء؛ فلما نُقلتْ مراسم الزفاف إلى الحديقة من أجل الغناء والرقص الصاخب (غيرِ المتناغم)، تسللتِ كلارا إلى غرفة الطعام ووقفت أمام الأناناس فمدت يدها ولمست إحدى أطرافها إذ لم تقاوم رغبتها المفاجئة في أخذ ثمرة الأناناس وحشر سكينٍ فيها وتقطيع دهونها إلى قطعٍ صغيرةٍ وقضمها.

وها هي ذي الرغبة ذاتها تجتاحها الآن. دست أصابعها عميقاً في جيب مئزرها (كانت الأم قد حزمت لها مآزرها الثلاثة، وأوصتها أن ترتدي كل يومٍ واحداً منها لحماية فساتينها اليومية من العوامل الخارجية) وشعرت بزاوية المغلف فتنهدت وأخرجته، ثم جلست على الأرض لتشكّل تنانيرها ومئزرها ما يشبه الفِطرَ حولها. قضمت أظفارها. هل ينبغي لها أن تفض الظرفَ؟ إنها ليست إحدى البرقيات الوردية المخيفة التي تلقت فيها السيدة بوكستون بلاغاً بوفاة ابنها، ثم اقتيدتِ المرأة المسكينة إلى سريرها فمكثت أربعة أشهرٍ في غرفة نومها ذاتِ الستائر المسبَلة بإحكامٍ، لكن الرسائلِ الواردة من وزارة الحرب لا تحمل إلا واحداً من بلاغين: الإصابة

أو الموت. إن اكتشاف الحقيقة سيغير كل شيء. أهي مستعدةٌ للحقيقة؟ أكان بلاغاً من البلاغين؟

تهادت خطى أقدامٍ ثقيلةٌ أسفل الدرجات المؤدية إلى الدفيئة، وشمع سعالٌ مكتوم عند مدخلها.

وقفتِ كلارا على قدميها، وأعادتِ الظرف إلى جيبها، وقبضت على أظفارها، وحبست أنفاسها حين انفتح باب الدفيئة فاندفع الهواء البارد من أعلى الدرج.

الفصل الخامس
(ذو العين البيضاء)

ومن أعلى درجات الدفيئة، راح شابٌ بزي البستنة المبطن الأصفر يحدق في كلارا بجبينٍ متغضنٍ كالأحواض المزروعة حديثاً في الخارج، ثم دفع نظارته المستديرة إلى أعلى أنفه فيما ظلتِ كلارا تحبس أنفاسها منتظرةً توبيخاً كان مؤكداً.

- ماذا تفعلين هنا؟

فتشتِ كلارا أعماق رأسها بحثاً عن إجابةٍ معقولةٍ. أتقول له إنها شعرت بالبرد فدخلت تنشد الدفء هناك؟ لكن الطقس في الخارج كان دافئاً، إذ لا تزال شمس أكتوبر تبث وهجاً ترحيبياً سيختفي في غضون أسابيعَ قليلةٍ؛ أم تقول إنها كانت تمر في الجوار فلما سمعت ضجيجاً دخلت للتحقق من الأمر؟ أم يمكنها أن تقول له الحقيقة، وأن فضولها ساقها لمعرفة سبب تأكيد السيدة جيلبرت على التحذير من الاقتراب من الدفيئات الزراعية.

- إنه ... الفضول. قالتِ كلارا أخيراً.

ضاقت عيناه فرأتِ كلارا أن على عينه اليسرى غشاءً حليبيّ اللون. دلف الشاب نحوها وقال:

- أنت ابنة أخت ألفريد. أليس كذلك؟

- ألفريد؟ ردت كلارا حائرةً محاولةً تجنب التحديق في عين الرجل البيضاء.

- السيد جيلبرت؟

- أوه! نعم. قالتِ كلارا والخجل يزحف إلى عنقها مثل الكرمة.

وغدا الرجل أقرب الآن فرأتِ كلارا أنه لم يكن رجلاً؛ بل يافعاً في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره ربما.

اتكأ على مقعد العمل؛ وقال:

- أفترض أن الفضول سببٌ وجيهٌ كغيره من الأسباب. أنا روبرت؛ أحد البستانيين المساعدين. وأنت ...؟

فردت بابتسامةٍ خجولةٍ:

- كلارا. آمل ألا تمانع في أن أسألك عن معنى البستاني المساعد.

فابتسم روبرت وتناول من على المقعد مجرفةً معدنيةً، وقال:

- أعتقد أني مساعد السيد جيلبرت. صحيحٌ أني أعرف بعض الأمور عن المزروعات والمعدات، ولكن هنالك الكثير ممن هم أدرى مني في صنعة البستنة. لا أخفيكِ أن تفاصيل الصنعة مربكةٌ قليلاً في بعض الأحيان.

- نعم. أتصور ذلك. قالتِ كلارا.

-إذن ... فما رأيك في الدفيئات؟ إنها فخر الكونت ومبعث فرحه. قال روبرت وهو يغرس المجرفة في التراب حول إحدى النباتات.

- إنها جميلة. النباتات فيها ... تختلف تماماً عن تلك التي تنمو خارجها. قالتِ كلارا.

فنظر روبرت إليها وقال:

- الكونت جامع للنباتات الاستوائية. أعتقد أنه يعدّ نفسه مستكشفاً؛ فهو إنْ لم يجد هذه النباتات بنفسه، بعث إلى الخارج مَن يأتي له بها.

- وهل يزور هذه الدفيئات في كثيرٍ من الأحيان؟ سألتِ كلارا وهي تنظر إلى الباب إذ يتعين عليها قبل كل شيءٍ ألا تُفاجأ بحضور الكونت، كما تخيلت رد فعل السيدة جيلبرت فأمسكت بحافة المقعد.

- لم يعد يزورها الآن. قال روبرت حين وضع المجرفة على الأرض، ومد يده ليتحسس إحدى أوراق الأناناس: ستجدينه جالساً حول المنزل الصيفي كثيراً الآن.

- البيت الصيفي؟ قالتِ كلارا.

أشار روبرت بإبهامه من فوق كتفه نحو الباب، وقال:

- إنه يطل على البحيرة هناك، وهو مبنىً صغيرٌ من الطوب ذو نوافذ وأبواب كبيرة؛ ثم إنه دافئٌ كهذه الدفيئات، إلا أنه غير مخصصٍ لزراعة النباتات، بل يستخدمه الكونت وعائلته لاستقبال الضيوف أو الجلوس في الأيام المشمسة.

- ولكن، كم هو محزنٌ ألا يأتي الكونت لرؤية نباتاته، وأن يكون هنالك من يقطفها ويزرعها له من دون أن يستطيع رؤيتها. قالتِ كلارا.

ابتسم روبرت، ثم باتت تعابيره حالمةً وبعيدةً، وقال:

- أود أحياناً لو أزور مكان زراعة هذا الأناناس، فقد أتيتُ إلى هنا وأنا أتخيل الشواطئ ذاتَ الرمال الحريرية، والبحارَ الزرقاءَ اللازوردية الدافئةَ كالحمّامات، والمترعة بأسماكٍ لها ألوانُ قوس قزح والشعاب المرجانية.

وتنهد بثقلٍ كأنما أجهد كاهلَه ثم أضاف:

- أما والحرب قائمةٌ، فلا فرصة كبيرةً لتحقيق ذلك.

بدا روبرت كأبيها، وكانت تود لو أنه يواصل حديثه، لكنه صمت وأطرق برأسه وراح ينخل التراب بين أصابعه، ثم سألها فجأةً:

- هل والدك منخرطٌ في الحرب؟

تصلب كتفا كلارا حين أجابت:

- كان كذلك.

كان جندياً من جنود المشاة بزيٍّ عسكريٍّ. تجاوزتِ كلارا تلك الأفكار قبل أن تسيطر على رئتيها وتعوق تنفسها.

كان الهواء الدافئ مثقلاً بالصمت.

وسكنت أصابع روبرت، ثم نظر إليها وقال:

- وهل عاد بعد ذلك؟

هزتِ كلارا برأسها إيجاباً، فأردف:

- أنا لا أرى بعيني اليسرى منذ مولدي، فليس لي أن أجتاز الفحص الطبي إذا ما حاولت الالتحاق بالجيش. وأطرق برأسه مجدداً، لكن كلارا وجدت أن وجنتيه باتتا أكثر احمراراً من ذي قبل حين أضاف: لقد تم تجنيد خمسةٍ من بستانيي السيد جيلبرت، ومن شأن هذا أن يزيد من عبء العمل على من تبقّى منا؛ ثم إن هنالك حديثاً عن نساءٍ من القرية قادماتٍ للمساعدة، وذلك لقلة عدد الرجال. وربّت روبرت على الأرض عند جذع إحدى نباتات الأناناس، وقال: لكني أقوم بدوري، وقد أخذتُ اليوم من الحديقة عربة خضارٍ وفواكهَ إلى المستشفى العسكري، وسنرسل من الآن فصاعداً أربع عرباتٍ أسبوعياً، فالكونت يرى أن علينا المشاركة في المجهود الحربي.

كانت أمواج فكرةٍ ما تتلاطم في محيط دماغ كلارا، وهي فكرة السيدة جيلبرت التي طرحتها عليها حين وصولها إذ أوصتها بأن تكون مفيدةً وحسبُ، ولذا سألته كلارا همساً: «هل يمكنني المساعدة؟»

- المساعدة؟ قال روبرت.

- في الحدائق. يمكنني ... جني التفاح، أو قطف الخضار، أو شيء من هذا القبيل ... من أجل المستشفى.

ابتسم روبرت، وقال:

- أنت تعلمين الكثير عن البستنة. أليس كذلك؟

شعرتِ كلارا باحمرار خديها الملتهبين أصلاً، ثم قالت:

- يمكنني التعلم.

كانت عين روبرت السليمة تتأملها حين قال:

- نحن نفتقر إلى البستانيين. ثم نقر على ذقنه بإصبعه وقال: دعيني أتحدث إلى عمك.

ابتسمت كلارا شاكرةً، واستدارت نحو المخرج، وقالت:

- آه! من يكون ذاك الصبي الذي يعمل في البساتين؟

نهض روبرت ونفض كفيه من الأوساخ قائلاً:

- صبي؟ وبدا على جبهته عبوس؛ فدنا منها خطوةً، وأضاف: الصبي الوحيد الذي يعمل هنا هو ريد؛ صبي الردهة.

- صبي الردهة؟

- أنت لا تعرفين حقاً طبيعة هذا المكان. أليس كذلك؟ قال روبرت بمرحٍ: ريد صبيٌّ يملأ الغلايات، ويلمع الأحذية، ويزاول من المهام ما لا يرضى سواه القيام بها مقابل أجرٍ زهيدٍ.

- واسمه ريد؟ قالت كلارا مغضّنةً أنفها.

- نعم، بسبب لون شعره الأحمر. قال روبرت مبتسماً.

لكن الفتى الذي رأته كلارا في الحدائق ليلاً لم يكن أحمر الشعر. كانت متيقنةً من ذلك.

- كيف كان شكل هذا الصبي؟ سأل روبرت مُطرِقَ الرأس.

- ربما خانني نظري؛ فأنا أرى الكوابيس أحياناً. قالت بخفةٍ أملاً ألا ينتبه روبرت للتردد في صوتها.

- همم ... قال روبرت وهو يدس يديه في جيوبه.

عند الباب استدارتِ كلارا، وقالت:

- من فضلك، لا تخبرِ السيدة جيلبرت أني جئت إلى هنا؛ فقد طلبث مني ... عدم الاقتراب من الدفيئات.

عبَر وجهَ روبرت تعبيرٌ غامضٌ؛ لكن كلارا لم تلبث أن فكت معانيه، فقال لها:

- سرّك في مأمنٍ معي.

فمنحته كلارا ابتسامةً سريعةً، وعبرت البابَ صاعدةً الدرجاتِ الحجريةَ عذواً، ثم خرجت إلى ضوء الشمس العليل.

- أوه! كلارا.

استدارت كلارا.

وقف روبرت في المدخل، ودفع نظارته إلى أعلى أنفه، وقال:

- إذا ما صادفتِ ذلك الصبي مرةً أخرى، ولم يكن أحد كوابيسك، فتأكدي من إخباري بذلك.

حدقت به كلارا لثانيةٍ ثم أومأت إليه باقتضابٍ. واضحٌ أن روبرت لم يصدق أن الصبي كان من نسج خيالها، غير أن شيئاً ما أخبر كلارا أنه عليها كتم أمر هذا الصبي عن روبرت - وعن سواه - إلى أن تعرف من يكون، وماذا كان يفعل في حدائق الكونت.

الفصل السادس
(البحث عنِ الصبي)

«كيف يمكن أن يمر الوقت ببطءٍ شديدٍ؟» قالت كلارا في سرها وهي مستلقيةٌ على ظهرها وسط سجادةٍ من الزهور البرية التي يصل ارتفاعها إلى الفخذ بالقرب من جدار الحدائق الشرقي، ثم سحبت نصلاً من العشب الطويل وحاولت أن تصفّر به، لكنها لم تتمكن من إصدار أكثر من صريرٍ ضعيفٍ؛ فتنهدت وتركت النصل يسقط من بين أصابعها.

لقد مضى على وجودها مع عائلة جيلبرت خمسة أيامٍ (والتي بدت لها في تلك المرحلة أكثر من خمسة أشهرٍ)؛ فلا مدرسة ولا دروس تحضرها، كما لا تمريناً يومياً في الفناء مع السيدة فيلبوت التي كانت تجعل الفتيات في مدرسة سانت مايكل يراوحن في مكانهن إلى ما لا نهاية (بينما يقضي الأولاد وقتاً أكثر تشويقاً في تعلم كيفية الملاكمة)، ولا سباق على غداء المدرسة مع الأصدقاء (رغم أن على كلارا الاعتراف بأنها تفضل جداً خبز عائلة جيلبرت الطازج وفطائرها ومخللاتها اللاذعة على خبز المدرسة الرطبِ عسيرِ الهضمِ)؛ ولذا فقدت أيامها نكهتها وقوامها وبدت طويلةً مملةً، فبدا لها الأمر كما لو هنالك من سرق منها غايتها وأخفاها في الأفق.

أمضتِ الأيامَ القليلةَ الماضيةَ تبحث في الحدائق عن الصبي الذي رأته من نافذة العلية، فكانت تتجول وسط الحدائق، وتطل برأسها من نوافذ الدفيئات المشبعة بالبخار عند عدم وجود أحدٍ في الجوار؛ كما شقت طريقها بين أشجار التفاح والكمثرى العطرية النامية في صفوفٍ منمقةٍ على طول الجدران المواجهة للجنوب، واستكشفتِ الجزء المهمَل من الحدائق على طول الجدار الشرقي، وهو مزيجٌ من أكوام سمادٍ كالبراكين، وعددٍ قليلٍ من أكوام الأنقاض والزهور البرية ونباتات القراص؛ لكن الصبي لم يكن في أي مكانٍ منها. لعله طيفٌ مر في واحدٍ من كوابيسها؟

كانت قد رأت روبرت مراتٍ عدة في الحدائق، تنظر إليه وإلى البستانيين

المساعدين الآخرين من بعيدٍ وهم يقطفون التفاح، أو يدفعون عربات قشور الخضار من البيت الكبير نحو أكوام السماد. لم يكن العمل صعباً وفق ما بدا لها، بل شاغلاً للوقت، وكانتِ كلارا في حاجةٍ ماسةٍ للانشغال.

حياها روبرت بطريقةٍ وديةٍ مرةً أو مرتين، لكنه لم يأت للتحدث إليها، أو إخبارها أن السيد جيلبرت قد وافق على مساعدة كلارا في الحدائق؛ ولذا تَسبب وقت الفراغ اللامتناهي بتسلل أفكار التوق لمنزلها وأمها وأبيها إلى ذهنها؛ فأخرجتِ المغلف من جيب المئزر، ورفعته في السماء حتى غطت به الشمس. لا، هذا لن ينفع. كانتِ الأفكار التي قد تحملها الرسالةُ أفكاراً مروعةً فظيعةً لا ينبغي السماح لها بالترسخ.

- أيتها القذرة! أعيدي لي شبكتي يا كونستانس. نادى صوت مرح.

نهضتِ كلارا على عجلٍ، وأعادتِ الظرف إلى جيبها؛ فإذا بهما فتاتان صغيرتان ابنتا سبع سنواتٍ أو ثماني ربما، وعليهما ثياب خضر ذاتُ أوشحةٍ صفر نالت إعجاب كلارا كثيراً، وكانتا تجريان نحوها عبر الحدائق بينما تلوّح الصغرى منهما في الهواء بشبكتَي صيد فراشاتٍ وهي تضحك.

التقطتِ كلارا قبعتها المصنوعة من القش (والتي أصرتِ السيدة جيلبرت على أن ترتديها أينما ذهبت) واعتمرتها.

- غريتا! هلّا أوقفتِ الفتاتين فضلاً؟ لا ينبغي لهما أن تركضا في مثل هذا اليوم الحار وتفسدا ثيابهما. اصطحبيهما إلى المنزل الصيفي لتحتسيا المرطباتِ. نادت سيدةٌ نحيلةٌ تحمل مظلةً زُينت حوافُّها بالدانتيل.

رأتِ كلارا خلف الأولى سيدةً أخرى ترتدي فستاناً بنياً فاتحاً بحزامٍ بنيٍّ داكنٍ، وتعتمر قبعةً مستديرةً مضحكةً تشبه البسكويت إلى حدٍّ ما فوق شعرها المشدود إلى الخلف بشدةٍ. سبق لها أن رأت نساء بزيٍّ موحدٍ مماثلٍ يدفعن عربات الأطفال بأطفالٍ نيامٍ (أو باكين أحياناً) في حديقة المنزل؛ فلا بد أنها مربية الفتاتين.

قالتِ الفتاة التي تحمل الشبكتين:

- انظري يا أمي! هنالك فتاةٌ مختبئةٌ في العشب.

توقفت السيدتان ونظرتا نحو كلارا.

شعرتِ كلارا بالحرارة ترتفع فوق رقبتها فتستشري في خديها؛ فهي لم تكن مختبئةً؛ بل كانت ... حسناً؛ لم تكن تفعل الكثير في الواقع.

همستِ السيدة النحيلة للمربية التي كانت تحدق في كلارا بنظرةِ رفضٍ قاسيةٍ.

:أوه عزيزتي.» فكرتِ كلارا. ما الذي ينبغي لها فعله؟ أتنهض وتخبرهم أنها ابنة أخ السيدة جيلبرت. لم تكن تريد أن تخالاها قدِ اقتحمتِ المكانَ بلا استئذانٍ؛ لكنهما في المقابل قد لا تعرفان من هم آل جيلبرت إن كانتا من البيت الكبير، ففي ذلك اليوم، قالتِ السيدة جيلبرت (بتغطرسٍ) إنها فخورةٌ بقدرتها على أداء وظيفتها كمربيةٍ من دون أن يراها أو يسمعها الكونت وعائلته.

قامتِ كلارا بتمسيد طيات مئزرها، وهمّت بالنهوض للتعريف بنفسها (معتبرةً أن من الوقاحة تجاهل ذلك) لولا أن اتكأتِ السيدة على مظلة الدانتيل، ودارت على كعبيها وابتعدت؛ أما المربية فسرعان ما جمعتِ الفتاتين البلهاوين كبطة ترعى فراخها، وقادتهما نحو المنزل الصيفي.

انهارت كلارا على الأرض، وخلعت قبعتها، ووضعت يديها على خديها الساخنين، واستنشقت رائحة الزهور والأتربة والهواء النقي، مما خفف من حرجها قليلاً. كانت أيام عائلة الكونت أكثر تنظيماً من أيامها على الرغم من تمركزها حول العناية بالثياب، والقبض على الفراشات المسكينة. لا بد أن يتغير شيءٌ ما قريباً وإلا ستصاب بلوثةٍ من الجنون. لعل حل لغز الصبي المراوغ المتواري يؤدي إلى إبقاء عقلها مشغولاً ريثما تُعاد إلى منزلها.

الفصل السابع
(الحنين)

بعد تناول الشاي مع الخبز الطازج والجبن المفتت ومجموعة متنوعة من المخللات اللاذعة الصفراء والحمراء (إذ قال السيد جيلبرت ببذرة فخرٍ في صوته إن تخليل منتجات الحديقة كان طريقة نافعةً يمكنهم من خلالها ضمان إطالة عمر الخضروات إلى أقصى حدٍّ ممكن زمنَ الحرب)، ذهبت عائلة جيلبرت للجلوس في غرفة المعيشة الصغيرة المطلة على بحيرة الكونت.

مسحتِ كلارا الأطباق الأخيرة، ومسحت يديها بمنشفة الشاي ولحقت بهما، وتوقفت أمام الباب فكانت أصابع السيدة جيلبرت منهمكةً بحياكة كرةٍ من الخيوط الزرقاء الحبرية. ربما كانت نُهر الخريف دافئةً، إلا أن أمسياته باردة، أما السيد جيلبرت فقد أوقد قبل تناول الشاي ناراً صغيرةً جلس أمامها يخربش في دفترٍ صغيرٍ.

دفعتِ كلارا يديها في جيوب مئزرها وقالت:

- كنت أتساءل ما إذا كانت لي أية رسائل من أمي.

كانت أم كلارا قد قالت إنها ستكتب لها دائماً لإطلاعها على حالة والدها الصحية، وهذا بالنسبة إلى كلارا يعني أنها ستنتظر رسالةً كل يومٍ، ولكنها حين كانت تسأل السيدة جيلبرت كل يومٍ عن وصول أية رسائلَ، تتلقى إجابةً بالنفي. مؤكدً أن أمها ستجد الوقت لتفريغ أفكارها في ورقةٍ، والعثور على مظروفٍ وصندوق بريدٍ ذي عمودٍ أحمرَ لوضعه فيه. تخيلت أمّها وأباها يمشيان مساءً على طول الواجهة البحرية الصاخبة بينما تحوم طيور النورس في الهواء، ويمسك والدها مخروطاً من صحيفةٍ يحوي الرقائق الدهنية المالحة. بينما هي تنتظر إجابة السيدة جيلبرت، انهالت على كتفيها موجةُ حنينٍ كأنها معطفٌ أسودُ ثقيلٌ.

قالتِ السيدة جيلبرت: «لا.» وراحت أصابعها تغرز بخبرةٍ إبرَ حياكة الصوف الداكن دخولاً وخروجاً وجانبياً في صعودٍ وهبوطٍ.

كانت جيوب مئزر كلارا مليئة بالحصى.

نظر السيد جيلبرت إليها وقال:

- تعالي واجلسي لبرهةٍ قصيرةٍ يا صغيرتي. وابتسم لها ابتسامةً دافئةً.

اشتعلت أنفاس كلارا في حلقها، ودخلتِ الغرفة بحذرٍ فكأنما تمشي على الزجاج.

لم يكن في الغرفة سوى كرسيين خشبيين بظهرٍ مرتفعٍ، وكلاهما كان مشغولاً. لم تطأ قدماها غرفة المعيشة إلا لتنظيف أرضيتها، بل كانت في كل مساءٍ تعود إلى غرفتها العلوية بعد تناول الشاي لتقرأ في (كتاب الأدغال) عن مغامرات ماوكلي وبالو، أو للتحديق من النافذة أملاً في رؤية الصبي الغامض الذي لم تره منذ ثلاثة أيامٍ؛ فأين تجلس الآن؟ على السجادة أمام النار؟ فكرتِ كلارا في القط نبتون والطريقة التي كان يتكور بها في حضن كلارا كدخان ألسنة اللهب وخريرها. لا بد أن هنالك من يبحث عنه في الجوار، وأنه يتساءل عما حل بعائلته التي اختفت فرداً إثر فردٍ.

اشتعلت النيران، فدغدغت رائحةُ دخان الخشب حلقَ كلارا وهي تجلس على البساط وتجمع بين ركبتيها وصدرها.

كان السيد جيلبرت يسعل سعالاً متقطعاً.

وكانت إبر حياكة السيدة جيلبرت تنقر.

لا بد أنّ هذه الأصوات والروائح مهدئةٌ، لكن كلارا وجدت فيها خلافَ ذلك.

قالت السيدة جيلبرت:

- ومع ذلك، فقد تلقيتُ من والدتك أخباراً أمس. ووضعت سترتها على ركبتيها وشدّت ياقة الدانتيل في بلوزتها كما لو كانت ضيقةً جداً حول عنقها: ستبقين هنا لفترةٍ أطول مما كنا نظن بادئ الأمر.»

تحاملتِ كلارا على إبقاء فمها مغلقاً حين كان كل ما تريد فعله هو فتحه.

توقف قلم السيد جيلبرت عنِ الصرير.

التقطت السيدة جيلبرت الإبر وواصلتِ غزلها.

شبكتِ كلارا يديها معاً لمنعهما من الاهتزاز، وقالت حابسةً أنفاسها:

- هل للأمر علاقةٌ بأبي؟ هل لي بقراءة خطاب أمي؟ من فضلك؟

بدا أن السيدة جيلبرت لم تسمعها، بل راحت أصابعها تلف الصوف في كل اتجاهٍ، كأنما تجري محادثةً فيما بين الإبرتين.

نظر السيد جيلبرت إلى السيدة جيلبرت، ثم أشاح ببصره بعيداً قِبَلَ النار.

قالت كلارا بقلقٍ:

- ولكن ماذا عن المدرسة؟ إنْ بقيتُ هنا لفترةٍ أطول، فسوف أتخلف عن الركب و ...

فقاطعتها السيدة جيلبرت بالقول:

- ستلحقين بالركب عما قريبٍ حينما تعودين إلى المنزل. لا أجد بُداً من القول إن المدرسة في رأيي باتت رفاهيةً في هذه الأوقات العصيبة. ثم مدت يدها لتلمس صليبها الرقيق في عقدها الذهبي المتدلي عند قاعدة حلقها؛ ثم رمقتِ السيد جيلبرت بنظرةٍ خاطفةٍ، لكنه لم يكن ينظر إلى زوجته، بل كانت عيناه تركزان في كلماتٍ منقوشةٍ في دفتر ملاحظاته، فكانت بعيدةً جداً بحيث لا تستطيع كلارا قراءتها.

Telegram:@mbooks90

تعالتِ الكلمات في رأس كلارا كحممٍ من فوهة بركانٍ: «لا. لا أريد أن أتخلف عنِ المدرسة. لماذا تمنعني من قراءة خطاب أمي؟ ما الذي تخفيه عني؟ أوَيكون مرض أبي قدِ ازداد سوءاً؟» ارتجفت شفتاها محاولةً كظم كلماتها داخلها.

تنحنحتِ السيدة جيلبرت وقالت:

- أهنالك شيءٌ آخر؟

قالتِ كلارا بلهفةٍ:

- نعم. فبدت شفتاها تعملان بشكلٍ منفصلٍ عن دماغها، وتتحركان من تلقاء نفسيهما، وأضافت: لقد قابلتُ روبرت قبل بضعة أيامٍ، وهو أحد البستانيين المساعدين، فأخبرني أنه سيسألك ... ما إذا كان في مقدوري مساعدته في قطف بعض الفواكه والخضروات لصالح المستشفى العسكري. إنْ لم يكن لي أن أعود إلى المدرسة، فمن المهم أن أقوم بدوري. أليس كذلك؟

نظر السيد جيلبرت إلى السيدة جيلبرت.

نظرتِ السيدة جيلبرت إلى إبر الحياكة.

حبستِ كلارا أنفاسها.

قالتِ السيدة جيلبرت بجفاءٍ:

- لا.

لاك السيد جيلبرت نهاية قلمه، ونظر إلى النار مرةً أخرى.

- لكن ... قالت كلارا بصوتٍ مترددٍ. ألا يمكن أن يكون لهذا القرار تفسيرٌ أو مسوغٌ؟

قالت السيدة جيلبرت بصوتٍ منخفضٍ: قلت لكِ: لا. كوني مفيدةً في الداخل. يمكنك تنظيف النوافذ غداً.

- هيا ليزي ... قال السيد جيلبرت بلطفٍ بعد أن وضع قلمه وانحنى إلى الأمام على كرسيه: يمكن لكلارا أن تساعدنا. لقد أرسلتِ الطاهيةُ قائمةً طويلةً جداً بالإمدادات التي تحتاج إليها من أجل وجبات الطعام في البيت الكبير، كما أن هنالك الكثير لتوصيله إلى المستشفى، ونحن نفتقر إلى الرجال ...

- قلت لا. كررتِ السيدة جيلبرت وهي تنظر نحو ركبتيها.

لا تتذكر كلارا كيف دخلتِ القاعة، ولا ما إذا كان السيد جيلبرت هو من أغلق باب غرفة المعيشة خلفها أم السيدة جيلبرت.

تصاعدتِ الأصوات المكتومة من جوفها، قال السيد جلبرت:

- قولي لها ...

- فيم سيساعد إخبارها؟

- ربما يساعدها هذا في فهم ...

أنصتتِ كلارا إلى همس إبر السيدة جيلبرت وأصابعها فوق كرة الصوف، كما لو أنها تحاول انتزاع أسرارهما من طياتها، ثم تسلل الخدر إلى ظهر كلارا، ففتحتِ الباب المؤدي إلى الحدائق، وخطت نحو الدرج خطوةً، ثم أخذتْ نفساً من هواء الليل البارد، ثم آخرَ فآخرَ إلى أن شعرت بتلاشي الضيق في بشرتها.

كانتِ الأشياء تتراكم على كلارا تراكم أوراق اللعب، فتقلّبها واحداً تلو الآخر، صبيٌ لا تراه إلا ليلاً، وهمس محادثات السيد والسيدة جيلبرت، ومزاج السيدة جيلبرت السيئ دائماً، ورفضها السماح لكلارا بقراءة رسالة والدتها. فكرت في أحجية الصور التي قد يشتريها والداها في عيد الميلاد، وفي جدلهما عند اختيار إحداها: القطارات البخارية، أم الطائرات، أم المشاهد البديعة للقرى الشتوية التي يصنع الأطفال فيها رجالَ ثلجٍ بأنوفٍ من جزرٍ، وأعينٍ من فحمٍ. ما الذي سيفعلانه بهذه الأحجيات؟

ضمتِ كلارا شفتيها معاً؛ فوالداها ليسا معها؛ بل هما في ديفون، وهي تعلم أنه لا ينبغي لها أن تزعجهم كالأولاد الغرباء بمحادثاتٍ لا معنى لها؛ لكن هنالك أشياء تجري وتحتاج إلى إجابات.

سمع في تلك اللحظة شجارٌ يجري بعيداً عن الأنظار خارج حواف الضوء المتدفق عبر البوابة. أهو ثعلبٌ أم شيءٌ آخر؟ أم شخصٌ آخر؟ أخذتِ كلارا نفساً عميقاً، واقتحمتِ الظلمات بقلبٍ خفاقٍ بين ضلوعها. لقد آن أوان جمع قطع هذا اللغز معاً.

الفصل الثامن
(البرتقال)

لم تكنِ كلارا ترى نفسها شجاعةً قطُّ، فحين كانت في العاشرة من عمرها سقطت صديقتها إيلسا في بئرٍ بينما هما ترميان فيه الحجارة، فألقت إيلسا نفسها من فوق جداره المنخفض بحماستها المعتادة، ومعها حجرٌ كبيرٌ؛ فبُهتتِ كلارا عند سماع صوت الحجر الذي تلته دفقةٌ أكبرُ وصوتٌ أعلى نجم عنِ ارتطام رأس صديقتها بالماء المتجمد، فكانت الأفكار التي جاست رأسَ كلارا كالتالي:

«يجب أن أكون شجاعةً.»

«يجب أن أنقذها.»

جابت هذه الأفكار رأس كلارا مراراً وتكراراً، ولكن ما أثار استياءها هو أن جسدها رفض ترجمة هذه الأفكار إلى أفعالٍ، وأن كل ما فعلته أصابعها هو أنها راحت تنفرد تارةً وتنقبض أخرى. كان جسد كلارا لا يزال متجمداً بينما هي تسمع صرخاتِ إيلسا وعويلَها، إلى أن جاء فيليب كينغ بعصاً كبيرةٍ، وسحب إيلسا كسمكةٍ مقددةٍ بذراعيها المتدليتين، وجلدها المبلول المرتعش. خلعتِ كلارا سترتها ولفّت بها إيلسا، وهدأتها مخبرةً إياها أن كل شيءٍ سيكون على ما يرام، ثم هرعت بها نحو منزل أمها القلقة لتأخذ حماماً ساخناً.

انقبضت أصابع كلارا وارتخت مجدداً حين عاد إليها والدها ليلاً ليتمنى لها ليلةً طيبةً، ووضع يديه على يديها فكانت قبضته حازمةً ومطَمئنةً.

- ماذا لو غرقت إيلسا لأني لم أفعل شيئاً؟ همستِ كلارا باكيةً.

كانت ضحكة والدتها الناعمة الأليفة قد صعدت السلالم فلفّت جسد كلارا كالحرير.

وضع الأب ذراعه حول كتف كلارا، وقبّل رأسها مرتين، فكانت تفوح منه رائحة دخان الغليون وسجق الزنجبيل الذي أعدته أمها مع الشاي. أغلقتِ كلارا عينيها، وسلّمت جسدها للراحة إلى جواره، فقال لها بضجرٍ:

- حسبُكِ في بعض الأحيان التظاهرُ بالشجاعة، فهي خصلةٌ علينا التحلي بها في الحرب، وخاصةً الآن بعد أن انضممتُ إلى الجيش وربما سأغادر قريباً.

بعد أن ودعتِ الشمسُ يوماً آخر بمدةٍ، وذهب والداها إلى الفراشِ، فكرت كلارا فيما قاله والدها، وقلّبت كلماتِه ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال، لكنها لم تجد فيها أيّ منطقٍ، وذلك لأنها لم تتظاهر بالشجاعة ولا بسواها عندما سقطت إيلسا في البئر. تذكرتِ المناقشاتِ التي كان والداها يجريانها كل ليلةٍ تقريباً بعد تناول الشاي حول ما إذا كان على أمها العمل في مصنع الذخيرة المحلي، حيث قال والدها حينها إنها وظيفةٌ خطرةٌ من جوانبَ عدةٍ، ففضلاً عن مخاطر التسمم (أو الاصفرار بسبب التعرض للمواد الكيميائية)، كانت تُروى كذلك قصصٌ مروعةٌ عن انفجارات المصانع التي تخلّف العديد من الوفيات، لكن والدتها تجاهلت تلك الجوانب، وقالت إنها مصممةٌ على القيام بدورها إلى أن يأتي يومٌ يُعلن فيه السلام إنْ قُدّر لذاك اليوم أن يأتي. كانت أمها شجاعةً، وقد أكد والدها ذلك. وحدها كلارا ليست شجاعةً.

لف ظلام الحدائق كلارا كالمخمل؛ فلا قمر أزرق في السماء، ولا إطلاق نار في الغابة، ولا نعيق طيورٍ مذعورةٍ فوق الرؤوس الليلةَ، بل كانتِ الحدائق صامتةً ساكنةً كما لو أنها تَرقب ما تقبل كلارا على فعله. فكرت في نصيحة أبيها: «حسبُ المرء التظاهرُ بالشجاعة في بعض الأحيان.» فتنفست بعمقٍ هواء الحديقة العذب، وراحت قدماها تخطوان برويةٍ على طول الممرات العشبية متجاوزةً الفزاعاتِ النائمةَ الباليةَ، وبستانَ الأشجار المثمرة ...

ثم سمعت من يمينها جلبةً لكشط حذاءٍ فوق حجارةٍ مرصوفة.

توقفت والتفتت منصتةً.

عادتِ الضوضاء مرةً أخرى. كانت صريرَ بابٍ؛ فجلستِ كلارا القرفصاء إلى جوار الدفيئة التي باتت الآن داخلها متخيلةً نفسها صغيرةً كأصغر الدمى الخشبية، ثم نظرت خلفها فإذا بها وسط الحدائق متواريةً عن أنظار أيّ شخصٍ يمكن أن يراقبها من المنزل، محميةً بأشجار الفاكهة التي يحب بعضهم الجلوس تحتها متكئين إلى جذوعها للتدخين مساءً.

اقشعر جلد كتفي كلارا.

سمع صوت وقع أقدامٍ خفيفٍ على العشب.

انصتتِ كلارا إليه إلى أن تبدد. وقفت وهرعت عبر الدفيئة إلى حيث رأتِ الصبيّ من قبل؛ لكنها لم تجد بساطاً يفترش العشب، ولا صبياً بقبعةٍ تدلث فوق وجهه. دارت حول الجذع المعمّر ثم توقفت لاهثةً، فهناك، وسطَ الجذع برتقالةٌ مثاليةٌ بورقةٍ خضراءَ لامعةٍ تتدلى على عودٍ قصيرٍ. حدقتِ كلارا في الظلام فسمعت صوت بومةٍ، وتحسس أنفُها رائحةً كرائحة دخان الغليون؛ انحنت والتقطتِ الثمرة بكفيها وشمتها. لقد ذكرتها بعيد الميلاد والضحك والألعاب حول النار. لم يكن لهذه الثمرة مكانٌ على جذع الشجرة، فلماذا تُركت هناك؟ ومن تركها؟

ضربت دفقةٌ من قطرات المطر نافذة الدفيئة القريبة كأنها خمشُ الأظفار، بينما كانت كلارا ترنو نحو الظلام. هل عساها تُركت لشخصٍ آخر؟ ربما عليها أن تُعنى بها لأنها لا ريبَ ستفسد ببقائها تحت المطر. التقطتِ البرتقالة ودستها في جيبها، ومسحت خديها ثم نظرت نحو الكوخ ونافذة غرفة نومها. لا بد أنها ستغرق بللاً إذا ما ركضت على العشب؛ ولذا تخيلت وجه السيدة جيلبرت الممتعض عندما سترى شعر كلارا المبلل، وتنورتها ومئزرها الرطبين.

اندفعتِ كلارا على الدرج المؤدي إلى الدفيئة الأخرى القابعة خلف الدفيئة التي كانت فيها من قبل، ووضعت أصابعها على المقبض النحاسي من الباب الذي كان مواراباً قليلاً، ثم دفعته ودخلت مترددةً، وراحت تستنشق الدفء اللطيف بينما كان صوت المطر مدوياً، فراحت عيناها تتكيفان ببطءٍ مع الأشكال المظلمة أمامها. لم تكن تلك الدفيئة كدفيئة الأناناس على الإطلاق، بل قد يظن المرء نفسه فيها داخلَ بستانٍ مغطىً بعباءةٍ من الكريستال.

تم ربط أطول الأشجار إلى تعريشاتٍ خشبيةٍ مثبتةٍ على أعمدةٍ بين الأحواض الزجاجية. مدتِ كلارا يدها تتلمس ثمرةً كرويةً تتدلى من فرعٍ، فكانت خوخةً ذاتَ ملمس فرائيٍّ ناعمٍ، أما الأشجار الصغيرة فكانت في أوانٍ بحجم المرجل، وقد تناثرت

على طول أحواضٍ حصويةٍ، كانت محملةً بالليمون الشمعي والبرتقال والليمون الحامض؛ فابتسمت حين اهتزتِ النوافذ ورنّت تحت صفع المطر.

- مرحباً شجيرةَ الليمون. همست ممسكةً بورقةٍ لامعةٍ بين سبابتها وإبهامها.

- مرحباً. همس صوتٌ ما أمامها.

راوح جلد كلارا بين السخونة والزمهرير في الآن ذاته. شخصٌ ما كان داخل الدفيئة. لقد رآها.

حدقت في الظلام فرأت طيفاً لشخصٍ نصفِ مختبئٍ خلف واحدةٍ من أطول أشجار الخوخ. خطا المجهولُ خروجاً من وراء الأغصان.

نكصتِ كلارا تلقائياً خطوةً إلى الوراء، ثم أخرى نحو الباب.

همس الصوت مرةً أخرى: «مرحباً.»

لعل ذلك الشيءَ هو الصبي الذي كانت تبحث عنه … ولكن كعب حذاء كلارا اصطدم عند هذه الفكرة بشيءٍ ما فسقط ودوّى بصوتٍ معدنيٍ، وتعثرت بشجيرةٍ خلفها وسقطت مرتطمةً بأرضيةٍ خرسانيةٍ. «يا إلهي!» فكرت بينما راح الشخص يتقدم نحوها. لقد صودفت مجدداً في إحدى دفيئات الكونت. جرّت أنفاسَها ونظرت إلى الشخص فاتسعت عيناها ذهولاً.

الفصل التاسع

(ويل)

- يا إلهي. هل أنت بخير؟ كان السائلُ صبياً. إنه الصبي ذاك.

- «بخيرٍ.» همستِ كلارا رغم ألم رأسها وجرح راحتيها واتساخهما من أثر السقوط.

مد الصبي يده التي رأتِ كلارا اتساخها رغم الضوء الخافت، فكأنما أصابغه مسامير مسودّةٌ غُمست في قدرٍ من الحبر.

تجاهلته واعتدلت في جلستها تتفحص يديها الجريحتين.

انحنى الصبي على التراب المتناثر، وقد أوقع سقوط كلارا بعض الأوراق وشجيرتي ليمونٍ، فأخذ الليمون في يده متغضنَ الجبين.

- «هل أتلفتُ الشجرة؟» همستِ كلارا التي كانت قبل دقيقةٍ واحدةٍ فقط تلقي التحية على تلك الشجرة الجميلة التي تحطمتِ الآن.

- ستعيش. أنا آسفٌ. هذا خطئي إذ أخفتك بهذا الشكل. أجاب الصبي همساً، ثم وضع يده على فمه من دون سابق إنذارٍ ليخنق سعالاً أجشّ.

- لا. إنه خطئي إذ أتيتُ إلى هنا، ولكن المطر اضطرني إلى الدخول اتقاءَ البلل. خرجتِ الكلمات من فم كلارا كجدولٍ يندفع من منحدرٍ عالٍ.

ابتسم الصبي ابتسامةً سريعةً وهو يضع الليمون الساقط إلى جوار وعاء الشجرة، ثم سعل مرةً أخرى كاتماً الضوضاء بباطن ذراعه؛ وعكف يكنس التربة بيديه ويعيدها إلى الوعاء، ثم أخرج من جيب سترته دفتراً صغيراً فتحه ودس بين صفحاته الأوراقَ المتساقطة بعنايةٍ. «هذا غريبٌ جداً.» فكرتِ كلارا. ولما أعاد دفتر الملاحظات إلى جيبه، سقط شيءٌ ما على الأرض.

انحنتِ كلارا والتقطته، فإذا هو ورقة نباتٍ طويلةٌ رفيعةٌ مطويةٌ كالأكورديون؛ فأعادتها إليه.

- إنها ورقة أناناس أرسمها. أعني أرسم النباتات والأوراق. هذا ما أفعله عندما لا أكون منشغلاً بتشغيل المرجل لتسخين هذه البيوت الزجاجية.» قال الصبي ثم دس الورقة المطوية في جيبه.

تذكرتِ كلارا ما أوصاها به روبرت، وحدقت في شعر الصبي الذي كان يختفي تحت قبعته، وقالت:

- إذن ... فأنت صبي الردهة؟ هل تعمل في البيت الكبير؟

أطلق الصبي ضحكةً صغيرةً كشفتْ عن أسنانٍ تلمع كالفضة، ثم أجاب:

- لا. ليس تماماً. اسمي ويل وحسبُ.

- أوه! مرحباً «ويل وحسبُ. أنا كلارا.» قالت كلارا متبسمةً.

مد ويل يده مرةً أخرى، وقال منحنياً لها نصفَ انحناءةٍ مضحكةٍ: «أسعدني لقاؤك.» مما جعل كلارا توشك أن تضحك، لكنها مدت يدها هذه المرة وصافحته فكانت قبضته قويةً دافئةً لسعت كفيها الجريحين، إلا أنها كانت راضيةً تماماً.

أخرجت من جيبها البرتقالة التي وجدتها على جذع الشجرة، وقالت:

- لقد وجدتُ هذه في الحدائق.

دلف ويل خطوةً نحوها، وتفحص البرتقالة، وقال:

- هذا مثيرٌ للفضول. لقد وجدتُ ليلةَ أمس أيضاً برتقالةً إلى جوار القصب المحاذي للبحيرة.

قالت كلارا وقد تغضّن أنفها:

- هذا مثيرٌ للفضول. ماذا أفعل بها؟

- كُليها. لعل شخصاً ما أسقطها. قال هازّاً كتفيه.

أعادتِ كلارا البرتقالة إلى جيبها مبتسمةً له ابتسامةً خفيفةً، وسألت متلفتةً حولها:

- قلتَ إنك توقد المرجل. أهو هنا؟

- لا. بل تحت الأرض، خلف منزل الكونت الصيفي. أجاب ويل.

تذكرتِ كلارا كيف تبخر ويل في الهواء حين كانت تراقبه من نافذة غرفة نومها. غرفةٌ تحت الأرض. ربما هذا يفسر كل شيءٍ.

ارتدّ صدى نيران البنادق المملة عن جدران الدفيئة الزجاجية فأجفلتِ كلارا، وضمت ذراعيها فوق قلبها النابض.

- إنه الفوج وحسب. ستسمعين تدريباتِهم كل ليلةٍ؛ فلا تخافي. قال ويل.

شككتِ كلارا في قدرتها على اعتياد أصوات إطلاق النار ليلةً بعد ليلةٍ، بل لقد جعلتها فكرة تجوُّل الفوج ليلاً في غابات الكونت وحقوله ترتجف قلقاً، لكن ويل كان محقاً. كان عليها أن تحاول التعود على ذلك حتى لو ذكّرها بأشياءَ تفضل نسيانها.

- أخشى أن عليّ أن أطلب منك خدمةً كبيرةً. قال ويل وهو يخلع قبعته ويمسكها بين يديه فتتهادى فوق عينه اليسرى خصلةُ شعرٍ أسودَ متموجٍ ما لبث أن دفعها خلف أذنه: صديقي ... أقصد ... صديقٌ أمّن لي هذه الوظيفة التي ترين. المهم في الأمر أن أمي وأبي قد رحلا فلا مكان أذهب إليه. وعاد لاعتمار قبعته فجعلها منخفضةً جداً حتى لم تكدِ كلارا ترى عينيه؛ وربما كان هذا مقصوداً.

- يا إلهي! إنه لأمرٌ محزنٌ للغاية. ردتِ كلارا ودست يدها في جيبها تتحسس نهاية المغلف الذي ما زالت تحتفظ به. «عندما تقول إنهما رحلا ...»

تقلصت شفتا ويل في خطٍ رفيعٍ، وقال:

- لقد ماتت والدتي عندما كنت طفلاً، بينما توفى أبي على خطوط الجبهة قبل شهرٍ.

ابتلعتِ كلارا كرة لعابٍ بحجم حبة خوخ علقت في حلقها. لقد أصيب والدها بأضرارٍ في رئتيه، لكنه حيٌ في المنزل على الأقل. فكرتِ كلارا في كل من ضحوا بحياتهم في سبيل بلدهم مخلّفين وراءهم أحباءهم الذين ستنقلب حياتهم رأساً على

عقبٍ بسبب الرعب الناجم عن كل هذا.

- أوقدْ المراجل ليل نهار، وعليّ أن أبقى متوارياً. يقول صديقي ألا ينبغي للكونت والسيد جيلبرت، كبيرِ البستانيين، أن يعلموا بوجودي. فهل أنتِ ممن يحفظون السر؟ همس ويل.

- في الواقع؛ أعتقد أني خيرُ من يكتم الأسرار. ردتِ كلارا بابتسامةٍ صغيرةٍ.

هز لها ويل رأسه كما لو لم يتوقع أقلّ من ذلك، ثم كبح سعلةً أخرى فاهتز كتفاه بسبب ذلك المجهود.

- عليك أن تكون حذراً؛ فقد رأيتك من نافذتي، ثم إن سعالك هذا... يبدو فظيعاً. قالتِ كلارا.

- أعلم أنكِ قد رأيتِني.» قال ويل ببساطةٍ: كانت المراجل تُصدر أصواتاً غريبةً، فذهبتُ أتفقد موازين الحرارة في الدفيئات، فإذا بكِ تراقبينني من كوخ البستانيين. كان كلامه خبراً لا سؤالاً: أما سعالي الفظيعُ فمجرد ... هبابٍ من غرفة المرجل. هذا كل شيءٍ.

وانحسر المطر.

- عليّ أن أذهب؛ فعائلة جيلبرت هم أقربائي، وقد يتساءلون عن مكاني. قالتِ كلارا بقلقٍ.

وبدا من تقلص فم ويل أنه يعرف السيد والسيدة جيلبرت حقَّ المعرفة، ولذا لم يكن ليتوهّم أنهما سيلاحظان وجود كلارا مرتاحةً في سريرها من عدمه.

- أنا ماكثةٌ بينهم؛ لأن أبي مريضٌ، وهو وأمي في ديفون كي يتمكن من التعافي، لكن زيارتي هذه لم تكن كما تخيلتها قط. أضافتِ كلارا.

هز ويل رأسه كما لو فهم الأمر، فتساءلتِ كلارا ما إذا كان قد سمع صراخ السيدة جيلبرت من خلال النافذة المفتوحة حينما أخذتِ كلارا قبضةً من شعرها.

- هل تعتقدين أنكِ ... قد ... تزورين الحدائق مرةً أخرى ... ليلاً؟ ربما غداً؟ سأل

بهدوءٍ وقد دس يديه في جيبيه.

- نعم. أعتقد أني قد أفعل ذلك. قالتِ كلارا بعد أن أخذت نفساً عميقاً دافئاً ملأ رئتيها أكثر مما مُلئتا منذ زمنٍ طويلٍ.

- يمكنكِ القدوم إلى غرفة المرجل عند نوم آل جيلبرت، من الجيد أن يكون للمرء من يأنس بالحديث معه. قال ويل مبتسماً لها ابتسامةً خجولةً.

سَرت أسفل أكتاف كلارا قشعريرةٌ صغيرةٌ إذ عليها أن تحرص ألا يباغتها حضور آل جيلبرت؛ فعمتها لا ريبَ ستغضبُ جداً إذا ما علمت بزياراتها الليلية إلى الحدائق، وهذا ما ينبغي تجنبه بأي ثمنٍ.

الفصل العاشر
(الثمار المسروقة)

فركتِ كلارا عينيها المتعبتين حين جلست إلى مائدة الإفطار صباح اليوم التالي. إنها في كنف آل جيلبرت منذ ستة أيامٍ فقط، لكن كثرة الأحداث التي حملها اليوم السابق (وليلُه) جعلتها تشعر أنها هنالك منذ أمدٍ بعيدٍ. تركتِ السيدة جيلبرت إناءً من العصيدة يدفأ فوق موقدٍ صغيرٍ قبل ذهابها إلى المنزل الكبير ليومٍ آخر من أعمال التدبير المنزلي.

تناول السيد جيلبرت من فوق الرف وعاءَ عسلٍ كان قرصه يتلألأ كجوهرةٍ في ضوء الشمس المنعكس عنِ الطاولة، كما كانتِ الحلاوة الذهبية تنساب من الملعقة الخشبية فوق عصيدة الحليب.

- أقرأ عن هجومٍ آخرَ بمناطيد زيبلين على ساحل نورفولك. قال ممتعضاً وهو يقرأ جريدته المفتوحة.

بدد صوتُه التعبَ في عينَي كلارا.

«قتيلان وعددٌ من المصابين بجروحٍ خطيرةٍ. إن خطورة هذه الحرب تقترب.»

علقت العصيدة في حلق كلارا، سعلت وهي تتناول رشفةً من الحليب الساخن. قبل توقفهم عنِ تلقي الصحيفة المعتاد في المنزل، دأبتِ كلارا على تصفحها بحثاً عن صور زيبلين، تلك المناطيد الضخمة العائمة كالأقلام، والقادرة على إلقاء القنابل، وتفتيت منازلَ بأكملها إلى قطعٍ صغيرةٍ، وهي فكرةٌ كانت تخِز جلدها وتُشعرها بالقشعريرة. هل سيرسل الألمان مئات المناطيد تلك لإبادة إنكلترا؟

كان أبناء عمومتها الذين عاشوا في حي شورديتش في لندن قد شهدوا العام السابق تفجيرَ قاعة إمباير ميوزيك في أثناء أحد العروض، فكانتِ الأسرة بأكملها خائفةً خوفاً جعل الجميعَ يتركون منزلهم ذا الشرفة وينتقلون إلى كورنوول. ألم تكن نورفولك في غالبيتها حقولاً، حالُها حالُ كورنوول وديفون؟ ربما كانت مناطيد

زيبلين ستتوجه كذلك إلى الساحل الجنوبي الذي يعيش فيه والداها وأبناء عمومتها. تبادرت إلى ذهنها صورةُ مخروط رقائق البطاطس المقلية بيد أبيها على شاطئ البحر، فغزتها موجةُ سقمٍ جعلتها تضع كأسها وتمسح فمها بظاهر يدها.

تغضن جبين السيد جيلبرت تحت شعره الأشعث إذِ ابتسم لها ابتسامةَ المتردد، وانحنى إلى الأمام واضعاً يديه على الطاولة، وقال: «اسمعي يا كلارا. في الحقيقة ...» لولا أن قاطعه طرق حاد على البابِ، الذي فُتح مُصدِراً صريراً، متيحاً فرصةً لاندفاع الهواء البارد نحو الردهة.

- سيد جيلبرت؟ هل أنت هنا؟ جاء السؤال بصوتٍ عرفته كلارا.

أشاح السيد جيلبرت بنظره عن كلارا متنهداً، ثم دفع كرسيه للخلف.

حدقتِ كلارا خارج نافذة المطبخ المتسخة. على رف الأطباق دلو وبعضُ الخِرق. على كلارا أن تبدأ التنظيف، فتذكرت أنسجة العنكبوت التي التقطها شعر السيد جيلبرت عند وصولها، وحواف الألواح المتصدعة، وورق الجدران المتقشر وجبسه المتهالك. كانت السيدة جيلبرت عاملة تنظيف، لكن مَن يرى منزلها يستحيل أن يصدق كذلك.

توقفتِ كلارا عن التفكير حين سمعتِ روبرت يقول في الردهة: «أناناس.»

- كم؟ سأل السيد جيلبرت والذعرُ بادٍ في نبرة صوته.

- ثلاثةٌ منها. كما شرق بعض الخوخ. قال روبرت.

فكرتِ كلارا في الثمرة التي أسقطتها عنِ الشجرة أمس، وفي أوراق الليمون التي نضّدها ويل بين صفحات دفتره، والبرتقالة التي وجدتها على جذع الشجرة وتلك التي رآها ويل عند القصب إلى جوار البحيرة.

توقفا عنِ الكلام مدةً طويلةً.

دفعتِ كلارا كرسيها للخلف بهدوءٍ، ثم دلفت نحو باب المطبخ فوضعت أذنها على خشبه، فسمعت:

- هل يعرف أحدٌ آخرُ بالأمر؟ سأل السيد جيلبرت بسرعةٍ.

- لا.

- جيد. فليكن. إنْ كان في الحوزة من يسرق، فلا نريد أن يعرفوا أننا مطّلعون على أمرهم.

- لا أعتقد أنه ممن يقطنون هنا. قال روبرت.

اختلستِ كلارا النظر عند حافة الباب فرأتِ احمرار وجه روبرت.

- ربما كان كذلك، وربما لا. قال السيد جيلبرت وهو يفرك ذقنه.

- وماذا عن فوج البنادق؟ إنهم وسواهم يتجولون في الحوزة ليل نهار. هل أذهب لزيارتهم؟ قال روبرت.

- لا. قال السيد جيلبرت بحزمٍ، بل بحزمٍ بالغٍ وفق ما ظنتِ كلارا: ولكنْ أبقِ أذنيك وعينيك مفتوحةً أيها الفتى؛ فإذا ما رأيت ما يريب، أبلغني.

- حاضر سيد جيلبرت. قال روبرت، وهو يدفع كتفيه إلى الخلف: يمكنك أن تثق بي سيدي. أضاف روبرت وشيءٌ ما عالقٌ في حلقه كأنما هو ضفدعٌ يتربص للقفز من فوق ورقة زنبقٍ طافيةٍ.

- أعلم أنك أهلٌ لثقتي. قال السيد جيلبرت قبل أن يتوقف ويدس يديه في جيوب بنطلونه: وأعلم أيضاً ما بك من حزنٍ لعجزك عنِ الالتحاق بالتجنيد العام المقبل عندما تبلغ عامَك الثامن عشر.

- نعم سيدي. أشعر بالسوء الشديد حقاً عند رؤية كل هؤلاء الأولاد يذهبون إلى القتال. بينما أنا ... امرؤٌ لا جدوى مني. رد روبرت وقدِ ازداد احمرار خديه.

- أعرف ذلك؛ لكن عليك التركيز على الحدائق التي تحتاج إليك، كما أحتاج إليك تماماً؛ فهناك الكثير لإنجازه.» قال السيد جيلبرت بلطفٍ ثم تحشرج وأضاف: حسناً، لنذهب. أريد أن أرى نتائج هذه السرقة بنفسي. سأحضر سترتي. وعاد إلى أسفل القاعة قاصداً المطبخ.

استدارتِ كلارا والتقطتِ الدلو والخِرق.

مر السيد جيلبرت إلى جوار كلارا كما لو أنه لم يرها، واجترع آخر جرعةٍ من العصيدة، وأخذ سترته من فوق كرسيه وغادر، ثم سمعته يتمتم وهو يسير في الردهة:

- إنِ اكتشف الكونت ذلك، سُتفتح أبواب الجحيم.

اهتزت جميع نوافذ المنزل معاً حين أغلق بوابة الحديقة خلفه، فلاحقته كلارا بعينيها، ووضعتِ الدلو والخرقة وراحت تنظف مئزرها.

لقد فُقدتْ فاكهةٌ وعُثر على أخرى، فهل بين الأناناس المفقود والبرتقال الموجود ربطٌ؟ لقدِ اتخذتِ كلارا قراراً. حالما تنتهي من تنظيف النوافذ ستذهب لاستكشاف الحدائق؛ لترى ما الذي يمكن أن تجده أيضاً قبل زيارتها لويل ذلك المساء؛ فالظاهرُ أن لويل ولعٌ كبيرٌ بالنباتات المزروعة في البيوت البلاستيكية، وقد يهتم (وينزعج كذلك) لسماع خبر سرقة الفاكهة.

الفصل الحادي عشر

(الكلبة تايغر)

كانت خيوط شمس الصباح تتقافز عن نوافذ الدفيئات مثيرةً عيني كلارا، والنهارُ في نضرته وذهبيّ أضوائه كالتفاح على أفنان الأشجار. عضتِ كلارا أظفار أصابعها وهي تعبر المنازل متوجهة نحو منزل الكونت الصيفي الذي كانت جدران الحديقة الداخلية جزءاً منه، فهو يشكل حداً من حدود المناطق الزراعية المختلفة، والذي تطل نوافذه الثلاثة الهائلة على البحيرة. تتصل الجدران المبنية من الطوب على جانبي المنزل الصيفي، ثم تستدير بزاويةٍ قائمةٍ عند البحيرة لتحيط بحديقةٍ كبيرةٍ يمكن لكلارا أن تتخيل فيها النزهاتِ الصيفيةَ الكبيرةَ، والحفلاتِ المقمِرةَ؛ وبينما هي تقف على حافة العشب المحاذي للماء إذ رأت ثريا متلألئةً تتدلى من سقف المنزل الصيفي المزيَّن بالكورنيش. كانت أشجار البرتقال عند الجدار الخلفي متراصفةً تراصفاً مثالياً، تتدلى ثمار البرتقال منها كحليّ عيد الميلاد، وكانت كراسي الخوص البيضاء مغطاةً بوسائدَ حريريةٍ كأنها السحائبُ، وضوءُ الشمس يرتد عن التكاثف الحاصل خلف النوافذ.

كان أحدُ الرجال جالساً على كرسيٍّ منحنياً فوق صحيفةٍ مفرودةٍ على ركبتيه، بينما يستريح على طاولةٍ بجواره غليونٌ ينفث الدخان بترويةٍ فيتصاعد نحو السقف. لم يكن هناك ما يشير إلى الفتاتين الصغيرتين ومربيتهن، أو للسيدة ذات المظلة التي وجهتهن إلى المنزل الصيفي عندما رأتهن كلارا أمس. ربما كانتِ الفتاتان تتلقيان دروساً وتتعلمان أشياءَ مثيرةً على يد المعلمة في المنزل الكبير. فكرت كلارا في إيلسا وأصدقائها الآخرين من المدرسة فشعرت بوخزة حزنٍ في حلقها.

طأطأت رأسها وربطت شرائط قبعتها المصنوعة من القش، وأخذت تتذكر تعليماتِ السيدة جيلبرت حول عدم التواصل البصري مع الكونت. إنْ كانت ستبقى مع السيد والسيدة جيلبرت لفترةٍ أطول قليلاً فلا بد لها من صديقٍ، وهو ما كانت ترجوه في ويل الذي إنْ بات صديقاً فقد يساعدها في حل لغز سارق الفاكهة.

تذكرت أنه أخبرها أن غرفة المرجل تقع تحت الأرض خلف المنزل الصيفي، ولذا نكصت على أعقابها نحو حدائق الخضروات، فسارت بمحاذاة الجدار من الجانب الآخر من حديقة المنزل الصيفي إلى أن ظنت أنها باتت ربما في المكانِ الصحيح، وفجأة، وقعت عيناها على دبورٍ وحيدٍ فوق عربتي قشورٍ ينقضّ ويتراقص عند جدارٍ منخفضٍ من الطوب الأحمر. كانتِ الحدائق هنا متناقضةً تناقضاً جلياً مع المروج المشذبة المستلقية أمام المنزل الصيفي. كانت بالات القش قد تحررت من مرابطها وسطها، كما تناثرت جملةٌ من أدوات البستنة الصدئة على تلك الأرض الوعرة. لا بد أنه جزءٌ من الحدائق لم يزره الكونت وعائلته قطُّ.

اقتربتِ كلارا من الحائط، فسارعت أصابعُها تتلمس طوبه، وحينها رأت خلف حزمتين من القش درجاتٍ متواريةً تفضي عند أسفلها إلى بابٍ خشبيٍّ أزرقَ قد تشقق طلاؤه وتقشر؛ فتوقفت ونظرت إليه. اتخذت فكرة مروعة طريقَها إلى أحشائها. «لا بد أنه هنا. أفيكون نائماً؟ أم لعله يرسم في دفتره؟ أيعلم أي شيءٍ عن الفاكهة المسروقة؟ ربما سمع شيئاً ما بينما هو يتجول في الحدائق ليلاً؟» ... ولكنها سمعت قبل أن يتاح لها الوقت لإدراك الأمر صوتَ منادٍ يقول:

- هل أنت بخيرٍ يا آنسة؟

استدارتِ كلارا، فإذا برجلٍ مع كلبه الصغير البني والأبيض يقفان ناظرين إليها وقد أحنى الكلبُ رأسه، كما لو أنه يريد هو الآخرُ أن يسأل كلارا سؤالاً بلسانه الوردي المتدلي. كان الرجل يمضغ بصخبٍ تفاحةً لم يُبق منها سوى لبِّها. بصق على العشب بذرةً تشممها الكلب؛ فقال الرجل:

- اسمي جورج. أحد حراس الطرائد. لقد رأيتك من قبل. أعتقد أنك ابنة أخت ألفريد؟

أومأتِ كلارا برأسها، وأصابعُها ترتعش. هل كان جورج يتساءل عما تفعله هنا؟ أكان يعلم بأمر ويل؟

- لقد عدتُ للتو من الغابة. إنها بداية موسم طيور التدرج، لكني أعتقد أن إطلاق

النار طيلة الليل أخافها فلم أوفق بأي صيدٍ هذا الصباح. قال جورج.

- أوه! أجابتِ كلارا وهي تنظر إلى البندقية التي يحملها على كتفه الأيسر: هل تصطاد الطيور فقط؟

- الطيور والأيائل ... والأرانب أحياناً. يحب الكونت الفطائر المصنوعة من شرائح الأرنب وإكليل الجبل، لكن أحدنا يغدو سهلَ الإرضاء زمنَ الحرب ورحيلِ الكثير من الرجال، فالآن لا يعمل في هذه الحوزة سوى عشرة رجال بعد أن كانوا ستة أضعاف ذلك فيما مضى. قال جورج متنهداً بعمقٍ، ثم انحنى يدغدغ أذن كلبه الصغير.

«كل هؤلاء الناس لرعاية الكونت وعائلته.» فكرتِ كلارا. «كيف يشعر من يقوم على خدمته صيادون وبستانيون وطهاةٌ ومدبرو منزلٍ كل يومٍ؟»

نظر جورج خلف كتفي كلارا أسفلَ الدرج، وقال:

- هل كنت تنظرين إلى غرفة المرجل؟ نزل كلبه السلالم وبدأ ينقر ويخدش خشبَ الباب ببراثنه، ثم زمجر وخدشه مرةً أخرى، فعبس جورج وناداه صافراً له:

تايغر. عد إلى هنا.» لكن الكلب تايغر (الذي لا يرقى البتةَ إلى مستوى اسمه الذي يعني «النمر») استمر في تجاهله.

- تايغر! تعال أيها الفتى. نادته كلارا. أتُراه اشتمّ رائحة ويل أو سمع سعالَه؟ إذا ما تبع جورج كلبَه تايغر وبدأ في التحقيق فإنه ...

- إنها كلبةٌ أنثى. قال جورج بتذمرٍ.

كلبٌ أم كلبةٌ. ما الفارق؟ المهم أن يترك هذا الكلبُ البابَ وشأنَه.

ركضتِ كلارا على الدرج وعانقت تايغر، فانتفضتِ الكلبة محتجةً، وتلوّت كثعبان البحر.

- كوني حذرةً، فقد تعضك. قال جورج.

حملتِ كلارا تايغر على ذراعها، فزأرتِ الكلبة تحاول عض كلارا من دون جدوى،

فهمستِ كلارا:

- لو كنتِ مَن زارني في كابوسي لما خفتُ جداً، ولما فقدتِ السيدةُ جيلبرت شعرَها. فهدأتِ الكلبة وحدقت فيها ثم تثاءبت، وأرخت جسدها فأدنتها كلارا من صدرها، فالتفتت تايغر ولعقت يد كلارا بلسانٍ خشنٍ رطبٍ جعل كلارا تضحك.

- إنها تحبك. قال جورج مائلاً برأسه، ثم أخذ الكلبةَ من كلارا من أعلى الدرج، وراح يداعب أذنيها؛ ثم قال بهدوءٍ:

- لا يأتيني منها سوى المتاعب، فلا هي تنفعني في الصيد، ولا أحتمل التخلص منها؛ تلك الصغيرة. ويقع ناظراه على الدرج مرةً أخرى، فيضيف: ماذا تفعلين في هذا الجزء من الحدائق؟

ودار دماغ كلارا بأقصى سرعةٍ فتوجهت نحو واحدةٍ من أكوام القشور، وهشّت على دبورين انضما إلى صديقهما، ثم رفعت المقابض، وقالت:

- كنتُ على وشك إحضار هذا لأغراض التسميد. فتأوهت عضلاتُ ذراعيها عندما رفعتِ المقابض، ودفعتها قُدماً لتُميلها جانباً وتُفرغ القشور على العشب، وقد حفرتِ المقابضُ أخدوداً في يديها الخجولة التي كانت محمرةً أصلاً بعد غسل النوافذ صباحاً.

- ما الذي يحدث؟ قال روبرت حين ظهر واضعاً على كتفيه حذاءه الذي كان يرتديه.

- إنها تأخذها لأغراض التسميد. قال جورج وهو يرمي بقايا التفاحة في العربة.

كانتِ كلارا تئن في أثناء محاولتها توجيه العربة على طول الطريق العشبي نحو الجدار الشرقي الذي شاهدتْ عنده أكوامَ السماد في أثناء مسيرها، بينما راحت تايغر تقفز وتتراقص عند قدميها.

- كلارا؟ اقترب منها السيد جيلبرت بخطواتٍ كبيرةٍ ووجهٍ وردي.

- إنها تأخذها لأغراض التسميد. قال جورج وروبرت في الوقت نفسه.

بدا خدّا كلارا كالموشكَين كأنهما ينفجران ارتباكاً؛ فتركتِ المقبضَينِ، ومسحت بمئزرها يديها، وقالت:

- أنا أحاول أن أكون ... مفيدةً وحسبُ.

- دعيني ... أقوم بذلك بدلاً عنك. قال روبرت آخذاً المقابض منها.

- لا. يمكنني أن أفعل ذلك. قالتِ كلارا. اهتزتِ العربة وتمايلت على طول الطريق المعشب، بينما كلارا ضاغطةٌ على أسنانها والرجالُ الثلاثةُ يسيرون خلفها ويلتقطون ما تناثر من القشور وراءها، فيعيدونها إلى العربة.

ولاحت أخيراً كومةُ السماد في الأفق، فدلف روبرت لمساعدة كلارا في كَفء العربة، فقالتِ كلارا لاهثةً:

- لا. دعني أفعل ذلك. وأمالتِ العربة فانتشر ما فيها فوق كومةٍ من الأوراق المتحللة ذات الرائحة العطرة.

لمحت من زاوية عينيها شفتَي السيد جيلبرت ترسمان أصغر ابتسامةٍ، ثم قال:

- ستجدين سلةً من قشٍّ على الجدار الخلفي خارج البستان، فلا تقطفي إلا التفاح الناضج، وافصلي ما بينها بهزةٍ لطيفةٍ؛ فإذا ما انتهيتِ أخبري روبرت كي ينقلها بالعربة إلى المستشفى. وهز لكلارا برأسه، ثم قفل عائداً إلى التل.

ابتسم روبرت وقال:

- يبدو أنك ستساهمين في أعمال الحدائق. أنا سعيدٌ لذلك، فأنت عاملةٌ كادحةٌ، وأظن أننا سنتفق جداً.

ابتسمتِ كلارا وانحنت تربّت على ظهر تايغر التي لا تزال تتشمم ما حول قدميها. اعتمر جورج قبعته، وصفّر لكلبته وواصل مسيره.

أحستِ كلارا بألمٍ في أكتافها، وحرارةٍ في رأسها المغطى بالقبعة، ووجعٍ في إبهامها من أثر مقابض العربة، ولكن وجودها مع الآخرين في الخارج خيرٌ لها إذ يجعلها تسهم نوعاً ما في المجهود الحربي.

لكن الأفكار التي كانت تنخر رأسها كالديدان الرهيبة عندما وقفت أمام غرفة المرجل عاودتها بعد ذلك. كان ويل قد طلب من كلارا كتمَ سر وجوده، فماذا لو كان هنالك أكثر من سببٍ لحرصه على البقاء متخفياً؟ وهل له علاقةٌ بالفواكه المفقودة؟

الفصل الثاني عشر
(ثقب المفتاح)

استلقتِ كلارا في تلك الليلة على سريرها تفكر في ويل؛ فقد عثرت عليه في دفيئةٍ، وهو يحتفظ بأوراق نباتاتٍ غريبةٍ في دفتر ملاحظاته، وتراه يتجول وحيداً في الحدائق ليلاً مما يتيح له فرصةً مثاليةً لسرقة بعض الفاكهة، لكنه من ناحيةٍ أخرى بدا منزعجاً مثلها حين سقوط ثمار الليمون من الشجيرة الصغيرة، ثم ما الذي قد يدعوه إلى سرقة أي شيءٍ قد يشي به؟ جف فمها جفاف الورق لكثرة التفكير، فارتشفت آخر قطرة ماءٍ في كوبها، ثم نظرت إلى الساعة التي أهداها لها والدها في عيد ميلادها الأخير. إنها العاشرة مساءً. لا بد أن السيد والسيدة جيلبرت قد أويا إلى الفراش الآن لأنهما استيقظا باكراً، ولذا نزلتِ كلارا السلمَ، وتوقفت برهةً قصيرةً لتسمع شخيرهما.

انسلّ شخير السيد جيلبرت من تحت الباب، أما شخير السيدة جيلبرت فلا. كان شعاع ضوءٍ يتدفق من الباب المجاور، وهو باب الغرفة المقفلة التي تمتاز بورق جدرانٍ عليه رسومٌ لأشجارٍ مختلفةٍ. وضعتِ كلارا كوبها برفقٍ، وركعت أمام ثقب المفتاح، ونظرت إلى الداخل فإذا بالسيدة جيلبرت تجلس خلف المكتب مرتديةً ثوبَ نومٍ أبيضَ، وقد انسدل شعرها على كتفٍ واحدٍ بينما يدُها منهمكةٌ بالكتابة، ثم تتوقف لتنظر إلى السقف، وتفرك مؤخرة رقبتها، فتقرص جلدها وتدلكه تدليكَ العجين؛ ثم تمتمت: «ما عساي أفعل؟ لا يمكن لهذا أن يستمر أكثر.»

اقتربتِ كلارا من ثقب المفتاح حتى أحس وجهها ببرودة معدنه الصلب.

طوتِ السيدة جيلبرت الورقة ووضعتها في مظروفٍ. لقد كانت رسالةً. أكانت تكتب لوالدة كلارا؟ هل يمكن أن تكون كومة الظروف الأخرى فوق المكتب رسائل والدتها منذ ستة أيامٍ؟

دغدغت حكةٌ جوفَ حلق كلارا، وانتابها شعورٌ غريبٌ أن في أنفها ما يشبه فقاعاتٍ راحت تتشكل، ثم راح هذا الشعور يتفاقم إلى أن أدركتِ كلارا ألا سبيلَ لإيقافه.

انهالت ركبتاها على الأرض بصخبٍ، فضغطت على أنفها بقوةٍ وعطست عطسةً كانت مزيجاً من الفَواق والضوضاء التي قد يُحدثها فرس النهر إذا ما دُغدغ أنفه.

سمعت صوت إزاحة كرسيٍّ دُفع بعيداً تلاه صوت قدمين حافيتين تنزلقان على الخشب.

وثبت كلارا منتصبةً فاصطدم مرفقها بمقبض الباب محدثاً جلبةً طويلةً. «آهٍ عزيزي!» فكرت وهي تفرك إصبعها الصغير.

فُتح الباب، فلاحت عينا السيدة جيلبرت المتضيقتان محدقةً في كلارا والكوب على الأرض، فقالت:

- ماذا تفعلين؟

التقطتِ كلارا كوبها وهمست وهي تنظر إلى باب غرفة النوم الذي يَصدر من ورائه شخير السيد جيلبرت الذي لم يوقظه الضجيج لحسن الحظ:

- أشعر بالعطش.

- المطبخ في الطابق السفلي. قالت السيدة جيلبرت.

- كنتُ ... في طريقي إليه. قالتِ كلارا بهدوءٍ رافعةً الكوبَ حذاءَ صدرها، مطرقةً رأسها، ثم همّت بالنزول.

- كلارا؟

توقفتِ كلارا، واستدارت. كانتِ السيدة جيلبرت تلف السلسلة الذهبية البسيطة التي ترتديها حول عنقها؛ فعادت إلى ذاكرتها ذكرى السيدة جيلبرت حين أرتها العقد في آخر زيارةٍ لها. كانت هي وكلارا جالستين في ضوء الشمس على عشب الحديقة الصغيرة، فقالت لها السيدة جيلبرت حينها بابتسامةٍ خجولةٍ: «إنه عقدٌ أهداه لي ألفريد في عيد ميلادي.» ولما أثنتِ كلارا على جمال العقد قالت: «كان يومُ ذهابي إلى العمل لدى الكونت، ولقائي بألفريد هناك أسعدَ يومٍ في حياتي. لم أكن يوماً أسعد مني حينها صدقاً.»

حدقتِ كلارا للحظةٍ في السيدة جيلبرت محاولةً التوفيق بين ذكرياتها الغابرة والعزيزة عن السيدة جيلبرت، وبين المرأة الرائعة التي تقف أمامها الآن.

- هنالك أشياءُ ... لا مسوغ لقلقكِ حيالها.» جاء صوتُ السيدة جيلبرت يائساً لا غاضباً، فكأنما هي تواجه معضلةً تحتاج إلى إجابة.

- تصبحين على خيرٍ إذن. قالتِ كلارا متمنيةً لو أن لديها الشجاعة لاستجواب السيدة جيلبرت أكثر، لكنها تعلم أنها لو فعلت ذلك أثارت بريق الغضب في عينَي عمتها.

Telegram:@mbooks90

- تصبحين على خيرٍ. أجابتِ السيدة جيلبرت.

ركضتِ كلارا ويدُها على الدرابزين الخشبي مواصلةً نزولها، فسمعتِ السيدةَ جيلبرت وهي تغلق باب غرفة الغابة عائدةً إلى غرفتها الخاصة.

كانتِ كلارا تعلم جيداً أن البالغين إذا ما قالوا ألا مسوغَ للقلق فإن مجرد قول هذه الكلمات غالباً ما يعني وجودَ ما يدعو إلى القلق، فقد أصرت والدة كلارا على ألا تقلق على والدها عند ذهابه إلى الحرب، وانظر كيف انتهى به الأمر. لقد غادر في عام ١٩١٥، وذلك بعد ذكرى ميلاد كلارا الحادي عشر بفترةٍ وجيزةٍ، إذ كانت حِملان الربيع قد بدأت تتراقص في الحقول؛ ثم عاد إلى المنزل إبانَ عاصفةٍ ثلجيةٍ قضمت خدودهم بدايةَ عام ١٩١٦؛ فما كادتِ كلارا تعرفه لشحوب وجنتيه، وخفقان رئتيه، ونظرة اليأس المطلق في عينيه. دفعتِ كلارا هذه الأفكار بعيداً وتجلدت. إن كانتِ السيدة جيلبرت تكتب لأمها وتتلقى رسائلها، فلها الحق المطلق في معرفة ما تقولانه، ولا سبيل إلى ذلك إلا: بدخول الغرفة الموصدة.

الفصل الثالث عشر

(دفتر الملاحظات)

طرقتِ كلارا باب غرفة المرجل الأزرق بأقوى ما تجرأت عليه من طَرْقٍ. كانت سماء الليل حينها متلبدةً بالغيوم، مترعةً بالنجوم، والريح تعبث بشعرها وتقذفه فوق خديها.

- كلارا؟ قيل بصوتٍ وسعالٍ كظيمٍ.

- نعم. هذه أنا. همستِ كلارا.

سمعت صوتَ مفتاحٍ يدور في القفل، وآخرَ لصرير فتح الباب، فكان ويل يقف في الظل ويهمس:

- ادخلي بسرعةٍ.

اقتحمتِ كلارا الغرفة الغارقة في الظلام، وأغلق ويل الباب خلفها، ولما تكيف بصرها مع ظلمة المكان رأت ضوءاً في نهايةَ ممرٍّ قصيرٍ، وسمعت صوتاً حاداً وأزيز عود ثقابٍ، ثم راح وجهها يلوح تارةً ويخبو أخرى في ضوء مصباح زيتٍ يتأرجح في يد ويل. كانت الجدران سوداءَ خشنةً، والهواءُ أكثرَ دفئاً منه داخل الدفيئات، أما صوت نيران البنادق الليلي فكان مكتوماً هنالك تحت الأرض، لا كحاله في غرفة نومها التي تردد صداه كلُّ جدرانها وتمتصه كل السطوح (بما في ذلك سطحها).

قال ويل: «من هذا الطريق.» كانت قدماه تعكسان الضوء على أرضية القرميد فلا تكادان تُصدران صوتاً. خطوا خمس خطواتٍ أخرى مروراً ببابٍ آخر أُغلق خلفهما فشاهدته كلارا وهو يدير المفتاح. كانت معدتُها منقبضةً كالخيط المعقود، وفمُها جافاً كالرمل. «متسلقو جبالٍ. ربابنةُ مناطيدَ هوائيةٍ. جراحون. كوني شجاعةً يا كلارا.» دست يدها في جيبها وضغطت على البرتقالة التي كان حجمها ووزنها مريحين، لكنها لا تزال تذكرها كذلك بهواجسها. ماذا لو «كانت» لويل علاقةٌ باختفاء فاكهة الدفيئة؟ ها قد حُبست في غرفةٍ تحت الأرض منتصفَ الليل فلا مَن يعرف

لها مكاناً. راحت تبذل قصارى جهدها لتكون شجاعةً، ولكنها أدركتِ الآن أن غباءها الفظيعَ استدرجها للموافقة على المجيء إلى هنا.

كان السقف منخفضاً بما يكفي للمسه تقريباً، وكانتِ الأنابيب السميك منها والرقيق تتقاطع هنالك تقاطُعَ الطرقات؛ وقد راحت تلك الأنابيبُ تُصدر كل بضع ثوانٍ هسهسةً يرافقها اهتزاز خفيف، فكأنما أحدُها يغنّي للآخر. سُمع صوتُ دمدمةٍ وارتطامٍ خفيفٍ طارئٍ من جهة الفرن الأسود الجاثم عند الحائط البعيد كوحشٍ يتقلب في نومه، وكان كل سطحٍ من سطوح الأشياء هناك مغطىً بطبقةٍ رقيقةٍ من هباب الفحم: سطحُ الطاولة الخشبية الصغيرة والكرسي المركونان في إحدى الزوايا، وكومة البطانيات على الأرض. لا بد أن كلارا راحت تشعر بالهباب يستقر على ملابسها وشعرها وبشرتها، وتذكرت ويل حين كان ينقض الأغطية قبل أن ينام تحت القمر الأزرق. لقد أدركتِ السببَ الآن.

سعل ويل مرةً أخرى سعالاً ذرفت له عيناه، فأخرج منديلاً كفكف به دموعه، ثم لبس سترةً سميكةً وفتح باب الفرن الذي يتوهج الجمر في جوفه، فتناول مجرفةً ألقمه بها الفحم، فبصق الجمرُ الملتهبُ رداً على ذلك. قال ويل ملتفتاً:

- سعيدٌ بقدومك يا كلارا، فالبقاء هنا ليل نهار لإلقام هذا المرجل ... يجعلني وحيداً.

- أعتقد أنك على حقٍّ. هل تتلقى أجراً مقابل عملك هذا؟ قالتِ كلارا وقد جف حلقها تعاطفاً.

هز ويل رأسه وقال:

- يكفيني معروف صديقي أن سمح لي بالبقاء هنا. حسبي طعامي ومكانٌ أبيتُ فيه، أما المال فلا حاجة لي به.

حينها لفت شيءٌ ما على كومة البطانيات انتباهَ كلارا. إنه دفتر ملاحظات ويل المفتوح والصفحاتُ ترفرف تبعاً لتيارات الهواء الدافئ. إلى جوار الدفتر أوراقُ أشجارٍ لم تعرف كلارا منها سوى أوراق الليمون، إلا أن هنالك أيضاً أوراقاً أخرى

غريبةً تجهلها. كان بعضُها أخضرَ اللون داكناً وكبيرَ الحجم ككف الإنسان، وبعضُها الآخر كان أصغرَ حجماً وله حوافُّ خشنةٌ. لا ريب أنها آتيةٌ من الدفيئات. مدتِ كلارا يدها إلى جيبها وأخرجتِ البرتقالة فوضعتها بيدٍ مرتجفةٍ إلى جوار دفترِ ملاحظات ويل وكومة الأوراق.

غمرها ظل ويل الذي سألها محملقاً في الثمرة: «لماذا أحضرتِها؟»

كانت قدما كلارا مغروسةً بقوةٍ في أرضية الطوب؛ إلا أن باطنها كان ككعكة توت العليق التي تصنعها والدتها بعد ظهر يوم الأحد. إنْ أخبرت ويل أنها تشتبه في أنه سارقُ الفاكهة، فقد يكون ذا وداعاً لبراعم الصداقة التي شعرتْ أنها تزدهر بينهما. عضت شفتها السفلى.

سأل ويل مقترباً منها خطوةً:

- ما الأمر يا كلارا؟

نظرتِ كلارا نحو حذائها. إنْ لم تسأله عنِ السرقة بقيتِ الفكرةُ التي لم تُطرقْ بينهما كقشرةٍ علقتْ في ثوبٍ. جرّت نفساً عميقاً محمّلاً بالهواء المغبرّ، ورفعت رأسها، وقالت:

- الفاكهة تختفي من الدفيئات. أناناس وأشياء أخرى.

- تختفي؟ قال ويل فاغرَ العينين.

- نعم. إنها تتعرض للسرقة. أأنت من فعلها؟ قالت كلارا مبتلعةً ريقها.

- أنا؟ هل تعتقدين أني قد أسرق فاكهة الكونت؟ قال ويل وقد فرّت من شفتيه ضحكةٌ.

- فمن إذن؟ قالت كلارا. «كوني شجاعةً. كوني شجاعةً. إن قلتِ ذلك مراراً وتكراراً، وتظاهرتِ بقوةٍ كافيةٍ فقد تصبحين كذلك حقاً.»

- انظري. قال ويل ملتقطاً دفتر ملاحظاته، ثم سلمه إليها.

- إلامَ أنظر؟

- ها هنا. قال ويل مشيراً إلى إحدى الصفحات.

تناولتِ كلارا الكتابَ بخجلٍ؛ فقفزت إصبع ويل نحو رسمٍ مثاليٍّ بقلمِ الرصاص لبرتقالةٍ تتدلى من غصن أملدَ ممشوقٍ تزينه وريقاتٌ لامعةٌ مظللةٌ بدقةٍ جعلتها تبدو كما لو تتأهب للقفز من الدفتر.

- إنها بديعةٌ حقاً، ولكن ...

- اقلبي الصفحة. قال ويل بصوتٍ حازمٍ.

نظرتِ كلارا إلى عينيه فكانتا متقدتين لامعتين.

قلبت الصفحة بسبابتها نحو خريطةٍ فاتنةٍ لحدائق المطبخ يظهر فيها جدارُ القرميد المتعرج، وأحواض الكرنب والكراث والجزر، والمنزل الريفي الذي تعيش فيه كلارا، بل وحتى نافذة غرفتها (المفتوحة)، ولو أغمضتِ كلارا عينيها قليلاً لرأتِ الشمعدانَ على حافة النافذة، وهي قطرةُ شمعٍ صغيرةٌ تختبئ إلى جوارها.

مضت إلى الصفحة التالية فرأت فيها رسماً لدفيئةٍ تحتها صفٌّ من أناناسٍ مصغرٍ ذي أشكالٍ مختلفةٍ منها المخروطي، ومنها الهرمي، وقد صُنفت جميعاً.

- الأنتيغوا الأسوَد صنفٌ طريٌ ولذيذٌ منه؛ أو هكذا يقال، ويقال كذلك إن صنف جافا الأخضر يذوب في فمك كالثلج، أما القرمزي البرازيلي، فيا له من اسمٍ يا كلارا! صحيحٌ أن هذه الفاكهة رائعةٌ، لكني ما كنتُ لأسرق شيئاً ليس من حقي. قال ويل ملوحاً بذراعيه: ستكون لي ذاتَ يومٍ غرفةٌ تطل على الدفيئات. سأُعْنى بالأناناس فأرى هذه الفاكهة تنمو أمامي كالأميرات على أغصان النباتات الصغيرة.

أثار حماس ويل ابتسامةً ارتسمت على ثغر كلارا، إذ لم يكن يبدو كمن ينوي سرقة ثمار الكونت، فسألته:

- كيف لك أن تعرف كل هذا عن الأناناس؟

تغضن وجه ويل، وفرك أنفه واستنثر: ثم قال:

- من والديّ إذ كانت لهما حوزة صغيرة من نصف حقلٍ كانوا يزرعونها أشجاراً مثمرةً وخضرواتٍ يبيعونها في السوق المحلية، لكن اهتمامَهما الأكبرَ كان بفاكهة البلدان البعيدة، فأراد أبي أن ننتقل إلى تلك الأماكن ليرينا كيف تنمو ثمارها، وربما نستقر هناك ذات يومٍ لولا أن الحرب اندلعت.

- أوه! قالتِ كلارا مغلقةً دفتر الملاحظات، ثم أعادته إلى ويل، بينما المرجل يثور ويغلي، ومصباحُ الزيت تتراقص أضواؤه فوق المنضدة فينثر الوميض والظلال هنا وهناك في أرجاء الغرفة. «أنا آسفةٌ. لم أقصدِ اتهامك ...»

- أفهم سبب فعلك هذا، ولكن لم أنت تختبئين معي هنا. قال، وهو يهز رأسه، ثم التقط البرتقالة وضغط عليها بكفه، وأضاف: يجب أن تأكليها قبل فسادها.

حدقتِ كلارا في ويل والبرتقالة التي كانت تنوي أكلها لولا أن منعها ما قيل عنِ الفاكهة المسروقة؛ فسألت بصوتٍ مهموس:

- هل تعتقد أن اللص قد أسقطها من دون قصدٍ؟

- أوَ تسقط منه صدفةً فوق جذع شجرةٍ؟ أجاب ويل وقد تغضن أنفه: فماذا تقولين في الثمرة التي وجدتها عند البحيرة؟ سيكون متهوراً بعض الشيء إذن.

- إنه... لغز غريب أن نجد ثماراً، ثم نكتشف أنها ثمار مسروقة. قالتِ كلارا، وهي تهز كتفيها.

- كيف علمتِ أن الثمار آخذة في الاختفاء؟ سألها متجهماً.

- سمعتُ روبرت يتحدث إلى السيد جيلبرت.

نظر ويل إلى الأرض، ودفع البرتقالةَ إلى كلارا التي سألته:

- ما الخطب؟

- لا شيء. قال ويل.

نظرت إليه كلارا وهو يمسح عن جبينه العرقَ بأكمام سترته، وقالت:

- هل أنت متأكد؟

وضع ويل يديه على أذنيه. ما الذي غيّر حالَه؟ كان منذ دقيقةٍ واحدةٍ يناقش معها أمر اللغز، وفي الدقيقة التالية ...

هسهس المرجل، وحمحمَ بينما تنتظر كلارا ردَّ ويل. انتظرته لبضع دقائقَ، لكن هذا لا يهم، فلطالما كان والد كلارا بالغَ الصبر معها عندما لا تجد كلارا ما تقوله، أو حين تعرف بالأحرى ما عليها أن تقوله إلا أنها لا تجد طريقةً لذلك.

فتح ويل فمه أخيراً، لكنه لم ينطق بشيءٍ.

- يمكنك أن تخبرني يا ويل. لقد أخبرتك من قبلُ أني خيرُ من يحفظ السر. قالتِ كلارا وقد أدخلت يدها في جيبها تتحسس نهايةَ مظروفها.

- لقدِ استحلفني ألا أفشي شيئاً. قال ويل بعد أن أخذ نفساً عميقاً.

- من تقصد؟ سألتِ كلارا.

ومشى ويل نحو كومة البطانيات في الزاوية، فارتمى فوقها وعقد رجليه واضعاً ذقنه بين يديه، وقال:

- روبرت. إنه ... إنه أخي.

الفصل الرابع عشر

(الإخوة)

تراجعتِ كلارا شاعرةً بغشاوةٍ على عينيها جرّاءَ هباب الفحم، واكتشافها هذه الحقيقة الجديدة عن ويل، ثم قالت:

- لكنك ... قلتَ إن من يساعدك كان محضَ صديقٍ.

- أعلم. لقد كذبتُ عليك. قال ويل بهدوءٍ.

أفسحتِ كلارا طريقاً عبر جلدها لتغوص فيه الحقيقة، فقد أحبت روبرت وحديثه عن آماله وأحلامه، كما كان عوناً لها في إقناعِ السيد جيلبرت بالسماح لها بالعمل في الحدائق؛ وكذا في كتم سرها عنِ السيدة جيلبرت إذِ اقتحمتِ الدفيئاتِ، غير أن روبرت كان يخفي كذلك سراً يبقى دفينَ غرفة المرجل نهاراً.

- حين مات أبي خسرنا منزلنا الريفي المتصل بالمزرعة الصغيرة التي كان والداي يديرانها، فأخبرني روبرت أنه سيجد لي وظيفةً هنا، ودأب على التأكد من تأمين مطعمي ومأوايَ.

- ولكن هذا العمل ليس عملك. أليس كذلك؟ لقد أخبرني روبرت أن إلقام المرجل منوطٌ بصبي الردهة. قالتِ كلارا.

- روبرت يعطي الصبي ريد المالَ مقابل أن يزعم ريد أنه لا يزال يقوم على إلقام المرجل إذا ما تعرّض لسؤال السائلين. إنه يساعدنا. قال ويل.

- لكني لم أر ذلك الصبي في الحدائق قط. قالتِ كلارا.

- أتصور أن الناس أكثرُ انشغالاً من أن يلاحظوا ذلك؛ فالحرب شاغلٌ كبيرٌ. قال ويل وهزّ كتفيه.

- أعتقد أنك على حقٍّ.

- قال روبرت إنه سيفقد وظيفتَه، وسنفقد مأوانا إذا ما علم أيٌّ كان بأمري، وأن

هذه الحال لن تدوم طويلاً، بل سيجد لنا مكاناً نعيش فيه.

جلستِ كلارا إلى جوار ويل، وراحت تنظر إلى طبقٍ على طاولةٍ خشبيةٍ صغيرةٍ قريبةٍ فيه قطعةُ خبزٍ مقضومٍ وتفاحةٌ أُكل شطرُها، فقالت:

- هل يأتي لك بما يكفيك من الطعام؟

هز ويل رأسه، وقال ناظراً إلى كلارا بقلقٍ:

- أنا لست بقصير حريةٍ ولا بعديم الوسيلة، فأحياناً أخرج ليلاً بحثاً عن الطعام بنفسي، لكني لا آتي إلا بالساقط منها أوِ البريّ.

تشنجتِ كلارا إذ لم تتفكر في ظروف ويل كما ينبغي. كان من المثير أن تقابل شخصاً جديداً، شخصاً يختبئ في الحدائق؛ لكن سماعها بالصعوبات التي يواجهها جعلها تندم على أكلها الشريحةَ الثانية من فطيرة البرقوق في أثناء تناول الشاي. كان عليها أن تحتفظ بها لويل. ستفعل ذلك في المرة القادمة.

سعل ويل مجدداً، فتلوى صدره وانهالت دموعه مرةً أخرى، فانقبض صدر كلارا إذ ذكّرها ذلك بلياليَ قضتها ساهرةً في المنزل تسمع والدها يتلوى ألماً. إنه شعور موجع بالعجز أن تعلمَ أنْ ليس بيدها ما تفعله لشفائه وتحسُّن حاله؛ ولذا قالتِ كلارا بحزمٍ:

- لا ينبغي لك البقاء هنا؛ فهو مكان سيضر برئتيك.

- إني أنام في الخارج إذا ما استطعتُ.

- لكن الشتاء على الأبواب، فماذا تفعل حيال المطر إذا ما انهمر، والمرج إذا غمرته الثلوج ؟

هز كتفيه وسعل مرةً أخرى، وقال:

- تبقى الدفيئات تفي بهذا الغرض.

- لكن الناس الآن سيراقبون روبرت بعد أن شرقتِ الفاكهة. قالتِ كلارا.

- أشك في ذلك، فروبرت يحب نومه وسريره في كوخه. قال ويل عابثاً بأكمام

سترته: فضلاً لا تخبري أخي أنك عرفتِ بأمري؛ فقد أوصاني أن أختبئ في غرفة المرجل فلا أتحدث إلى أيٍّ كان؛ لذا وسيغضب جداً إذا ما اكتشف أني التقيتُ بك؛ وخاصةً أنك من أقرباء كبير البستانيين.

- أعدك أن أبقيَ الأمر سراً، يا ويل. يمكنك أن تثق بي. قالتِ كلارا.

ابتسم لها ويل ابتسامةَ امتنانٍ.

خطرت لكلارا فكرةٌ فكأنما أمسكت برأس خيط اللغز، فقالت:

- يمكنك إذن النوم في الحدائق طالما روبرت لا يرى الدفيئاتِ، فماذا لو تراقب اللص حين تكون في الحدائق؟

حدق ويل بها.

فاعتدلت كلارا وشبكت يديها، وقالت:

- إن قبضتَ على اللص؛ استحسن السيدُ جيلبرت صنيعك، منحك عملاً مناسباً في الحدائق، وبذا تستطيع العيش في كوخ أخيك بعيداً عن غرفة المرجل القذرة هذه.

غضن ويل أنفه، وراحت أصابعه تنقر على ركبتيه، بينما عيناه ساهمتان.

لكن هزة ارتيابٍ زعزعت ساقي كلارا، وذلك أن أمر ويل إذا ما اكتُشف، فسيكون هو وروبرت في ورطةٍ كبيرةٍ، أما إذا نجح في مهمته فسيحصل على وظيفةٍ دائمةٍ وفِراشٍ وثيرٍ.

- حسناً، قال ويل بصوتٍ مهموسٍ جعل كلارا تظنه حلماً، وقد بات وجهه أكثر شحوباً من ذي قبل: سنحاول نحن القبض على هذا اللص. لا ينبغي لهم نهبُ أناناس الكونت.

- نحن؟ قالت كلارا جاحظةَ العينين.

- طبعاً؛ فهي خطتك أنت! قال ويل مبتسماً.

شعرتِ كلارا بابتسامةٍ اجتاحت خديها، فدست يدها في جيبها، وأخرجتِ البرتقالة

لويل قائلةً:

- خذها، فلدي الكثير لأكله.

- شكراً لك. قال ويل، ووضعها قرب دفتر ملاحظاته.

سمحت كلارا لعقلها بالتجول خارج غرفة المرجل، عائدةً به إلى الكوخ، مستذكرةً كل الألغاز الصغيرة التي اكتشفتها مصادفة منذ وصولها إلى آل جيلبرت: لا الثمار المفقودة وحدها، بل البرتقال الموجود، والغرفة المغلقة في الكوخ، وكومة الرسائل على المكتب (والتي يمكن أن تكون من والدتها). لحسن حظها سرعان ما غدا ويل صديقاً وحليفاً؛ ولعله يستطيع مساعدتها في حل ألغاز الحدائق الأخرى.

***

كانت إحدى قدمَيِ كلارا عالقةً في مستنقعٍ عميقٍ بغابةٍ، والأصعبُ من ذلك أنها كلما كابدت في سحب ساقها، غاصت أكثرَ في نشارة كريهة الرائحة؛ فخطر لها: «سيتلف حذائي، ولن تكون السيدة جيلبرت سعيدةً بذلك على الإطلاق.» سمعت أصواتاً مكتومةً بسبب كثافة أوراق الشجر الخضراء، فصاحتِ كلارا: «النجدة! أنا أغرق.» لقد وصل المستنقع إلى كاحلها، وتسربتِ المياه الموحلة البنية إلى جوربيها. ارتجفت شفة كلارا السفلية، فتذكرت ما قاله لها والدها عن التظاهر بالشجاعة؛ فقالت بوجلٍ: «مرحباً أيتها الغابة. مرحباً أيتها الأوراق الخضراء. مرحباً ... أيها المستنقع. مرحباً ... مرحباً ... النجدة!»

استيقظتِ كلارا هلعةً ينبض قلبُها في صدرها، ثم جلست في سريرها؛ فكانت أنوارُ الفجر تتدفق عبر حواف الستائر التي تنساب النسائم منها لتخرج من النافذة المفتوحة. كانت كوالدها تفضل فتح النافذة عند نومها مهما كان الجو بارداً. كان النسيم في ذلك الصباح شرقياً يساعد في تحسين المزاج وحمل الأصوات عبر الحدائق إلى غرفة نوم كلارا مباشرةً.

قال السيد جيلبرت:

- لا تتدخلي فيما لا شأن لك به يا ليزي. فليكن الأمر كذلك من فضلك.

بدأت الستائر تتحرك ذهاباً وإياباً، فشاهدتِ كلارا وهي تحاول ضبط تنفسها عنكبوتاً يرأبُ حواف نسيجه عند رأسها.

- يجب أن أحاول يا ألفريد. ليس من الصواب ترك الأمور تستمر على هذه الحال. قالت السيدة جيلبرت بصوتٍ أرق مما كان عليه وفق ما تَذكره كلارا من زيارتها قبل سنواتٍ.

- لقد قُضي الأمر فليس لشيءٍ تغييره. قال السيد جيلبرت بصوت بدا ثقيلاً ككيس من البطاطس.

أكان النسيم يغني في أذني كلارا، أم أنه تنهيدةٌ طويلةٌ قادمةٌ من شفتي السيدة جيلبرت؟ انسلّت من السرير واختلست نظرةً خاطفةً من وراء الستارة وهي ترتجف من برد الصباح الباكر فكان السيد والسيدة جيلبرت يقفان على مقربة من أقرب دفيئةٍ تنمو فيها أشجار الخوخ والحمضيات.

خطا السيد جيلبرت خطوةً إلى الأمام، وشبك يديه بيدي زوجته، فبدت عيناه كالمتوسلتين.

تجمدتِ كلارا وحبست أنفاسها.

سحبتِ السيدة جيلبرت يديها، وقالت:

- أنا آسفةٌ جداً ... لا بد لي من المحاولة.

وقفا يتبادلان النظر لبضع ثوانٍ، ثم استدارتِ السيدة جيلبرت، ويممت نحو المنزل الكبير.

دس السيد جيلبرت يديه في جيوبه ناظراً إلى زوجته التي راحت تبتعد، ثم عاد إلى الكوخ حالَما غابت عن ناظريه.

تركتِ كلارا الرياح تسلب حافة الستارة من بين أصابعها.

كانت للسيدة جيلبرت أسرارُها كذلك، وهو ما كانت كلارا متأكدةً منه، ولعل هذا

اليوم كان مناسباً لمحاولة معرفة تلك الأسرار.

الفصل الخامس عشر
(البساط)

بات الكوخ هادئاً ومريحاً، بعد أن انجلى صخبُ الصباح وجلبةُ الغسيل والإفطار والتنظيف، أما السيد جيلبرت، فلم يأكل قبل أن يقصد الحدائقَ سوى قطعةٍ من خبزٍ دافئٍ مغطىً بطبقةٍ رقيقةٍ من مربى الفراولة. بدت عيناه ساهمتين غارقتين في التفكير. ماذا قصدتِ السيدة جيلبرت عندما أخبرته أن الأمور لا يمكن أن تُترك على هذا النحو؟ هل يمكن أن يكون للأمر علاقةٌ برسائل والدة كلارا؟

وقفتِ كلارا أمام الغرفة المغلقة وتفقدتِ الأرجاء فلم يكن هنالك من أحدٍ، لكنّ ما كانت مقْدمةً على فعله بدا لها تسثراً وخداعاً، لكنّ هذا التستر ينطبق كذلك على السيدة جيلبرت إن كانت تخفي عنِ كلارا رسائلَ أمها. وضعت يدها على مقبض الباب وانحنت متجسسةً من ثقب المفتاح. أكانتْ كومةُ الرسائل على المكتب الخشبي من نسج خيالها أم حقيقةً؟ هل وصلت أية رسائل أخرى من والدتها؟ إنها في منزل عائلة جيلبرت منذ سبعة أيام، ولذا لا بد أن أمها قد خطّت لها أكثر من خطابٍ خلال هذا الوقت.

اقشعرّ جلد كلارا إذ لم تكن تريد لسوء الظن في السيدة جيلبرت أن يجتاح فكرها؛ فقد كان بينهما ارتباطٌ وثيق في المحصلة، إلا أنها كانت لا تعين كلارا على اكتشاف خصالٍ حميدةٍ فيها. همستِ كلارا للسقف والجدران والأرض: «آسفةٌ، فأنا مرغمة لا راغبةٌ في فعل ذلك.» إلا أن ورق الجدران ذا المناظر الغابية لم يردّ.

كان والدها قد قال لها بثقة قبل مغادرتها: «لعلكِ لم ترَي عمتك منذ بضع سنواتٍ، لكنك سترين منها ما يرضيكِ. وددتُ لو أن الكونت يمنحها وألفريد المزيد من وقت الفراغ حتى يتمكنا من زيارتنا أكثر، ثم إن لديها حساً فكاهياً مميزاً، فحين كنتُ طفلاً كانت تضحكني وتضحكني إلى أن أبلل نفسي.

- حقاً يا جيرالد. صاحت حينها والدة كلارا برعبٍ زائفٍ بينما راحتِ كلارا تضحك.

شخصتِ كلارا ببصرها محاولةً تخيل فم السيدة جيلبرت العابس يتحول إلى

ابتسامةٍ مشرقةٍ؛ لكن خيالها كما اتضح لم يكن بارعاً في مثل هذه الأشياء لأن تلك الصورة لم ترتسم في رأسها. فركت عينيها بعد أن تشتت انتباهها. كان غيابُ آل جيلبرت إلى أن يحين ميقاتُ الشاي فرصةً مثاليةً للبحث في غرفتهما عن مفتاح الغرفة المقفلة.

سبق لكلارا أن فتشت باقي هذا البيت الريفي. كالباب المقوّس المؤدي إلى الحدائق تقريباً. تقبع العديدُ من جدران هذا الكوخ في زوايا مهلهلةٍ، وإليها تستند الكراسي والوسائد والسجاد والطاولات غير المتطابقة؛ وهو ما جعل كلارا تشعر بقليلٍ من عدم التوازن، فكأنما هي شجرة اجتُثت جذورها من الأرض، وذلك بخلاف حالها في منزلها الصغير ذي الزوايا والشرفات والجدران المستقيمة والأثاث المرتب. بحثت بين خطافات المفاتيح المرتبة بشكلٍ عشوائيٍّ عند الباب الخلفي (بدا المفتاح البرونزي واعداً، لكنه علق عندما وضعته في القفل فاستغرق سحبُه بعض الوقت)، وفي أدراج المطبخ الخشبية (المليئة بالفضيات القديمة التي تحتاج إلى إعادة تلميعٍ)، بل وحتى في الغرفة الخارجية المتربة المترعة بالسجلات، لكن كل ذلك كان عبثاً إذ لم تجد للمفتاح أثراً.

فتحتِ كلارا باب غرفة نوم السيد والسيدة جيلبرت؛ فرسمت لها خيوط الشمس على الأرض طريقاً كما لو أنها تحفزها للمضي قُدُماً، فأخذت نفساً عميقاً وخطت إلى الداخل خطوةً، ثم وضعت كلتا يديها على الخزانة الخشبية متسائلةً للمرة المائة عنِ المكان الذي أخفت فيه السيدةُ جيلبرت المفتاحَ. لا ريبَ أنها لا تريد لأحدٍ أن يعثر عليه، ولذا لا بد أن يكون في مكانٍ خاصٍّ لا يخطر لأحدٍ أن يبحث فيه.

فتحتِ كلارا من الخزانة كل درجٍ كاشفةً عن قمصان نوم السيد جيلبرت وجواربه القطنية الباهتة، وكذا عنِ الملابس الداخلية للسيدة جيلبرت الرزينة (والكبيرة نوعاً ما). أخرجت حمالة صدرٍ وتحسست ما بداخلها بعنايةٍ فسرى في خديها احمرار ودفء، إذ لو علمت والدتُها ببحثها في أغراض عمتها الشخصية لتردّى رأيها بكلارا إلى الحضيض. تشنجتِ كلارا، فالسيدة جيلبرت لم تكن تعاملها أو تخاطبها كعمةٍ، ولم تكن تعانقها قبل النوم بدفءٍ أو ترنو إليها بحنانٍ، ولذا فلن تعاملها كلارا كابنة

لأخيها، بل ستكون المستكشفة التي ستميط اللثام عنِ الأسرار التي تخفيها عائلة جيلبرت عنها.

أعادت طيّ حمالة الصدر بعنايةٍ وأعادتها إلى مكانها. لا مفاتيح مخفية هنا للأبواب المقفلة. حدقتِ كلارا في حذائها بخيبة أملٍ. أين ينبغي أن تبحث إذن؟

ركعت على ركبتيها مختلسةً نظرةً تحت السرير الذي تجمعت حول أرجله الخشبية المتينة كراتٌ من الغبار، لكن الغبار كان كل ما رأته. انتصبتِ كلارا وتفحصت كل ركنٍ من أركان الغرفة التي لم يكن فيها أثاث آخر مقارنةً بالغرفة المقفلة المجاورة، والمؤثثة أكثر من غرفة نوم آل جيلبرت. حولتِ كلارا أنظارها إلى الجدران التي تتلوى أشجار العنب على امتداد ورق جدرانها محمّلةً بعناقيدَ من العنب الأرجواني الباهت، والتي كان تأثيرها قاتماً كئيباً؛ حالُها حالُ السلالم والغرفة المجاورة.

تنهدتِ كلارا ونهضت سائرةً نحو النافذة الجنوبية المطلة على البحيرة، لأن أباها كان مؤمناً أن من يواجه مشكلةً عويصةً فقد يساعده أحياناً النظر إلى المشكلة من منظورٍ مختلفٍ. كانت أمواج الماء تترقرق ببطءٍ كما لو أن أحدهم رمى حصاةً كبيرةً فيها، وكانتِ الغيوم تنساب في سماء الخريف الزرقاء، بينما يسبح هنالك زوجان من البجع، وقد غمسا منقاريها فيها. كان المشهد من النافذة كلوحةٍ داخلَ إطارٍ مذكّرةً كلارا باللوحات التي أُخذت لتراها في متحف المدينة.

لوحات، صور. استدارتِ كلارا لترى صورتين معلقتين على الحائط؛ فكانت إحداهما فوق الخزانة ذات الأدراج تصور مشهداً ريفياً لرجالٍ يدفعون أكوام التبن بينما تعج السماء الزرقاء بطيور السنونو. مدت يدها ورفعتِ الصورة عن الحائط، ثم تحسست بإصبعها أرجاءَ الإطار المغبر، لكنها لم تجد شيئاً.

أما الصورة الأخرى فكانت لبساطٍ صغيرٍ لا يكاد يفوق الكتابَ المفتوحَ حجماً، وكانت معلقةً فوق تاج السرير الخشبي، ولذا كان عليها ارتقاءُ السرير للوصول إليها. نظرت إلى الباب فكان كل شيءٍ هادئاً، فخلعت حذاءها وتسلقتِ السرير فوق اللحاف المرقّع.

تشبثت بتاج السرير الخشبي فراحت قدماها تتأرجحان على المرتبة بينما هي تحدق في النسيج الذي كان يصور ثمرة أناناس بلمسةٍ من خيوطٍ برتقاليةٍ وبنيةٍ وصفراءٍ داكنةٍ، وقد ربط شريطٌ ورديّ مطرز الثمرةَ بكيسٍ من التين الأرجواني وأوراق التين الخضراء. كانت تفاصيل العمل جميلةً لولا أن بعض خيوطه كانت فضفاضةً وفوضويةً كما لو أنها أُنجزتْ على عَجلٍ. أتكون السيدة جيلبرت هي من صنعته؟ بحثتِ كلارا عن أحرف اسمها الأولى مطرزةً أسفلَ البساط فلم تجد شيئاً.

رفعتِ كلارا الإطار بعنايةٍ وتحسست حوافه بسبابتها، ثم تفحصت ظهر الورق المقوى السميك، فلم تجد سوى اسم متجر الإطارات وتاريخ تركيبه:

(سامرز وأبناؤه لصناعة الإطارات، شارع أبيغيت، ١٩١٤)

أدى صوت إغلاق الباب الأمامي إلى اهتزاز النافذة، فانزلقت قدم كلارا اليمنى عنِ غطاء السرير، وتفلّت إطار صورة البساط من يديها، ولكنه سقط على الأرض خلف تاج السرير بدلاً من العودة إلى الحائط؛ فارتعشت أنفاسها حين سمعت جلبة شظايا الزجاج.

اقتربتْ على الدرج الخطى.

عج المكانُ من حولها أزيزاً. كم كانت غبيةً! لم يكن يليق بها الاستكشاف والبحث عنِ الأسرار. إنْ كانت إلا فتاةً صغيرةً تنقب في مكانٍ لا ينبغي لها التنقيبُ فيه.

انفتح الباب وله صرير، فعضت كلارا باطن خدها حتى شعرت بطعم الدم الغني بالحديد يخز لسانَها.

الفصل السادس عشر

(المفتاح)

ساد الصمت إلا من لهث الأنفاس. أكانت أنفاسَها أم أنفاسَ الشخص الواقف في المدخل؟

- ما هذا بحق الجحيم؟ صرخ السيد جيلبرت بعينين واسعتين كالأطباق: ما الذي يحدث هنا يا كلارا؟

- أنا آسفةٌ! قالتِ كلارا عاجزةً عن إخفاء ارتجاف صوتها: كنتُ أنظر إلى البساط فسقط وتحطم. سأدفع كلفة ما تضرر.

خطا السيد جيلبرت خطوة مترددة نحوها، ثم خطا أخرى، وقال بهدوء:

- حبذا لو تنزلين عن السرير!

كانت وجنتا كلارا ساخنتين حين نزلت عن السرير بما يشبه السقوط، ثم عكفت تمسّد تجاعيد الغطاء، وتعدّل وضعية الوسائد؛ ثم انحنت بعد ذلك لتلبس حذاءها فرأت شظيةً من الزجاج إلى جواره.

نظر السيد جيلبرت حيث تنظر، وقال وهو يفرك ذقنه: «يا عزيزي.» ثم نظر إلى البقعة الفارغة من الحائط التي كان البساط معلقاً فيها، وقال: «يا عزيزتي. يا عزيزتي. يا عزيزتي.»

- سآخذه إلى صانعي الإطارات لإصلاحه. لقد أعطتني أمي بعض المال ... لحالات الطوارئ. قالت كلارا على عَجلٍ.

تنهد السيد جيلبرت وهز رأسه هزةً مُلئت خيبةَ أملٍ، وجعلتِ كلارا ترتبك. انحنى ومد يده تحت السرير وسحب البساط الذي لا يزال مرتبطاً باللوحة، فشعرت بالارتياح عندما بدا لها أن الخيوطَ ذاتَها لم تتعرض للتلف. مرر السيد جيلبرت البساط لكلارا كي تمسكها ريثما يحضر مكنسةً.

إنْ كان نصفُ ضررٍ لإطار البساط قدِ استدعى من السيد جيلبرت أربعة «يا عزيزتي!»، فكيف سيكون رد فعل السيدة جيلبرت؟ استدارتِ كلارا لتضع البساط على السرير، فلما وضعته سقط شيءٌ ما على الأرض؛ فإذا هو قصاصةُ ورقٍ مطويةٌ محشورةٌ بين البساط واللوح.

تردد صدى أقدام السيد جيلبرت على الدرج.

التقطتِ كلارا الورقةَ وفتحتها فلم يكن بها سوى كلمةٍ واحدةٍ مكتوبةٍ بخط اليد: «مايسترو». ماذا يمكن أن يعني ذلك بحق السماء؟

سعل السيد جيلبرت في الرواق.

عاجلتِ كلارا بطي الورقة ودستها تحت البساط.

جاء السيد جيلبرت وطفق يدفع السرير بعيداً عنِ الحائط، فاحتكت أرجل السرير بالأرض واهتز تاجه الأمامي؛ ولكن صوتاً آخر سُمع كذلك، صوتاً لشيءٍ صغيرٍ ودقيقٍ جداً، فتساءلتِ كلارا ما إذا كانت أذناها تغشانِها. إنها صلصلة شيءٍ معدنيٍّ صغيرٍ على الخشب. نظرتِ كلارا إلى السيد جيلبرت الذي لم يسمعِ الصوتَ وِفق ما بدا لها.

وبينما راح السيد جيلبرت يكنس الزجاج انحنتِ كلارا لترى مفتاحاً برونزياً صغيراً معلقاً على ظهر اللوح بخيطٍ سميكٍ؛ فراح قلب كلارا يخفق سريعاً، وراحت تؤنب نفسها أنْ لم تفحص تاجَ السرير قبل ذلك فتتلافى الكثيرَ من العناء والمتاعب.

- سأتحدث إلى السيدة جيلبرت. قال السيد جيلبرت حالما انتهى من جرف الزجاج بعيداً؛ ثم نظر إلى البساط بذات الحزن الذي عرفته كلارا في نظرته السابقة نحو أشجار التفاح والبرقوق في الحديقة. فتح درج الخزانة السفلي، ووضعه في داخلها برفقٍ، وقال: سأحاول حل الأمور.

- شكراً لك.

- لا حاجة إلى شكري الآن. أجاب السيد جيلبرت بفظاظةٍ ناظراً إلى كلارا نظرةً حزينةً أحرقت عظامَها وأشعرتها بمدى ضآلتها.

***

جلستِ كلارا متربعةً على سريرها تراقب أصدقاءها العناكبَ الجاثمين في زوايا شبكاتهم، بينما نسج كبيرهم بين دعامتين من دعائم العلية شبكةً راحت تترنح في مهب نسيم النافذة المفتوحة كالغسيل الرقيق على حبال الغسيل.

كانتِ السيدة جيلبرت قد عادت إلى لكوخ منذ عشر دقائق، وبينما تشاهد كلارا الشبكة إذ سمعتِ السيدَ جيلبرت يتحدث إلى زوجته في غرفة نومهما، إلا أنها لم تسمعِ السيدةَ جيلبرت تقول شيئاً. كانتِ كلارا تترقب وقْعَ حذاء السيدة جيلبرت البني حين ستهرع صاعدةً السلالم بمجرد أن تسمع من فم السيد جيلبرت خبرَ اقتحام كلارا لغرفة نومهما (وفراشهما على وجه التحديد!)، وكسر إطار البساط، لكن هذا لم يحدث. أتُراه ذاك البساطُ لم يكن بالنسبة إلى السيدة جيلبرت مهماً بالقدر الذي أولاه إياه السيد جيلبرت؟

ظلتِ كلارا في هذه الأثناء تتساءل عما يعنيه ما في قصاصة الورق المخفية. مايسترو. أليست تعني قائد الأوركسترا؟ لم يكن في الكوخ أيُّ بيانو أو آلةٍ موسيقيةٍ أخرى، ثم إن السيدة جيلبرت لا تحب الغراموفون أصلاً؛ فقد قالت إن الضجيج يمنحها مزاجاً فكاهياً. كان كل شيءٍ غريباً جداً.

لكن كلارا عرفتِ الآن على الأقل كيف تدخل الغرفة المغلقة. نهضتْ وسارت نحو النافذة المفتوحة لتستنشق بعض الهواء النقي. كان الضوء يتلاشى والنجومُ الباهتة ترصّع صفحة السماء الداكنة. أغلق الباب الرئيس بقوةٍ مُحدثاً جلبةً كبيرةً هزّت نافذة كلارا المفتوحة فجأةً؛ كانتِ السيدة جيلبرت متوجهة نحو الدفيئات. إلى أين هي ذاهبةٌ في هذا الوقت من الليل؟ كانت مُطأطِئة الرأس تحمل سلة خوصٍ صغيرةً غطت محتوياتِها بقماشةٍ، وقد انسدل شعرُها من تحت قبعتها فتدلت ضفيرة على ظهرها. شعرتِ كلارا بالامتنان في جوانحها. بصرف النظر عما خالط شعرَ السيدة جيلبرت من اللون الرمادي المنتشر، إلا أن لشعرها تموجاتٍ مماثلةً لشعرها هي (وشعر والدها)؛ فرغم أن كلارا مُنعت من مخاطبة السيدة جيلبرت بالعمة، إلا أن شعرهما ذا كان دليلاً على ما بينهما من قرابةٍ لا تحتاج إلى دليل.

توقفتِ السيدة جيلبرت أمام دفيئة الأناناس، واستندت بيدها إلى النافذة، وراحت شفتاها تتمتمان بكلامٍ لم تحمله الريحُ في تلك الليلة إلى غرفة كلارا، ثم استدارت ونظرت إلى الكوخ كما لو أنها تتأكد من أحداً لا يراها.

نكصتِ كلارا مبتعدةً ثم نظرت مجدداً بعد ثوانٍ قليلةٍ فلم تر السيدة جيلبرت في أي مكانٍ. ضيّقتِ كلارا عينيها ثم رفعت رأسها باحثةً في الحدائق لكنها لم تجد لها أثراً أيضاً. أثراها دخلتِ الدفيئة؟

استندتِ كلارا إلى حافة النافذة بمرفقيها وانتظرت بينما غذتِ السماء أكثر ظلمةً وحلكةً بحيث بات من الصعب أن ترى شيئاً.

- كلارا؟ ناداها السيد جيلبرت.

تجاهلته محدقةً الظلام.

- كلارا. وسمع صوتُ خطىً تصعد السلالم.

أمسكتِ كلارا بمزلاج النافذة وأغلقتها تقريباً، ثم جلست على حافة السرير، وخدشت خيطاً ناشزاً من خيوط الملاءة وانتظرت.

فتح الباب صارّاً؛ فقال السيد جيلبرت وقدِ تلبد شعرُه الأشعثُ كأنما هو على خلاف العادة عشُّ طيرٍ:

- ألم تسمعي ندائي؟

- لا ... آسفةً. كذبتِ كلارا.

- هلّا رافقتِني لمساعدتي في تحضير الشاي؟ فلدى السيدة جيلبرت... مهمةٌ تنجزها. كانت ذراعاه متدليتين بحذاء جسده، بينما بدت عيناها بائستين منهكتين جاهزتين للإغماض في أية لحظةٍ.

تبعتِ كلارا السيدَ جيلبرت نحو الطابق السفلي، فلمحته يختلس النظر إلى الباب المغلق إلى جوار غرفة نومه ثم أشاح بنظره بعيداً، وكانت يداه مقبوضتين على جانبيه.

سرى في ضلوع كلارا من العزم سارٍ لا يتزعزع بأنها ستنال المفتاح المخفي وراء سريرهما في أقرب وقتٍ ممكنٍ، وستكتشف ما إذا كانت إجابات تلك الألغاز التي تؤرقها موجودةً داخل تلك الغرفة الموصدة.

الفصل السابع عشر
(خطة ويل)

بينما راحتِ كلارا تساعده في تحضير الشاي، ودهن الخبز بالزبدة، وتقطيع شرائحَ سميكةٍ من لحم الخنزير، وغسل الطماطم الحمراء الطرية، كانت تتمنى لو أن في مقدورها أن تَجري إلى الخارج، لتتفقد الدفيئاتِ الزراعيةَ لأنها على ثقةٍ أنه المكان الذي ذهبت إليه السيدة جيلبرت. كانت تحمل سلةً، ولكن لماذا؟ فكرتِ كلارا لثانيةٍ ... فانزلقت السكين عن لحم الخنزير وكادت تفقد إبهامها. هل يمكن لعمتها أن تكون ... أهي الـ ...؟ لا. لم يكن للسيدة جيلبرت أن تسرق الكونت، فلطالما أشاد والد كلارا بمدى تفاني السيد والسيدة جيلبرت في عملهما في تلك الحوزة، وهو واحدٌ من أسباب قلة زيارتهما تقريباً؛ ثم إن في اقترافهما السرقة مخاطرةً بفقدان وظيفتهما التي يحبانها، وتهوراً بالغاً لا يمكن تخيله أصلاً.

جلستِ كلارا إلى طاولة المطبخ وطفقت تتناول شريحةً من لحم الخنزير في رغيف خبزٍ (والتهام الكثير من الخيار المخلل معه)، ثم نظرت إلى طبق السيدة جيلبرت المنتظِر، ولكنها لمّا تأتِ بعد من مهمتها التي مضى عليها ما يفوق الساعة. مضغ السيد جيلبرت الشطيرة ببطءٍ وهو ينظر نحو الباب بين الفينة والأخرى. أتراه حان الوقتُ المناسبُ لمعرفة ما إذا كان يملك أية إجاباتٍ عن الألغاز الغامضة التي تدور في خَلدها؟

سألتِ كلارا السيد جيلبرت وهي تمسح عصير الخيار من شِدق فمها:

- ماذا تمثل غرفة النوم المجاورةُ لغرفة نومكما؟

توقف فكا السيد جيلبرت عند منتصف المضغ، ثم سعل كما لو أن فتاتاً صغيراً علق في حلقه، فوضع شطائره، ونفض الغبار عن يديه ببطءٍ، وتمعن في كلارا بنظرةٍ ثابتةٍ.

فُتحت بوابة الحدائق وأُغلقت.

ثبتتِ كلارا قدميها على الأرض متأهبةً لدخول السيدة جيلبرت ونظرتها الصلبة، وكلماتها القاسية، وعقابها المناسب، إلا أنها سمعت خطى عمتها تصعد السلالم ببطءٍ، فرمقت كلارا السيدَ جيلبرت بنظرةٍ خاطفةٍ. كان قدِ استأنف المضغ، ودلك حلقه كما لو يعاني صعوبةً في البلع، فلم يُجب عن سؤالها حول الغرفة، ولا بدا أنه ينوي ذلك.

- لقد تحدثتُ مع إليزابيث عنِ البساط؛ فهي تعلم الآن أنه كان مجردَ حادثٍ. قال بصوتٍ مهموسٍ متصدعٍ.

احترق صدر كلارا بجمر الشعور بالذنب والحزن. لقد كان حادثاً غيرَ مقصودٍ. صحيح أنها لم تكن تحب السيدة جيلبرت إطلاقاً، إلا أن معرفة عمتها لذلك الأمر شيء مهمٌ. دفعت كرسيها للخلف، وتوجهت نحو الباب.

- كلارا. قال السيد جيلبرت، لكنها تجاهلته وصعدتِ السلالم درجتين، درجتين قبل أن يصل السيد جيلبرت إلى باب المطبخ.

كانت تقف خارج غرفة نوم السيدة جيلبرت حين سمعت من داخلها جلبةً كأنما هي جلبةُ حيوانٍ صغيرٍ محاصرٍ يحتاج إلى النجدة. وضعتِ كلارا كفيها على الخشب فصرَّ الباب.

توقف صوت الحيوان.

قرعتِ كلارا الباب على استحياءٍ، وقالت:

- عمتي ... أعني، السيدة جيلبرت. هل لي بالتحدث معك؟

صمتٌ.

- أردت فقط أن أبلغك عن آسفي البالغ حيال كسري إطارَ البساط.

صمتٌ جديد.

ثم خطت داخل الغرفة دافعةً البابَ.

بدتِ السيدةُ جيلبرت على غير ما عرفتها كلارا يوماً، فقد كانت زهراءَ الوجنتين،

مشرقةَ العينين؛ ومن خلفها شاهدتِ كلارا على الأرض إلى جوار السرير السلةَ التي أخذتها السيدة جيلبرت إلى الحدائق. كانت فارغةً إلا من قطعة قماشٍ حمراءَ مطويةٍ بعنايةٍ في قعرها.

ضيّقتِ السيدة جيلبرت عينيها كالمستيقظ تواً فكأنما هي ترى كلارا لأول مرةٍ.

نظرتِ كلارا إليها في عَجبٍ متسائلةً: أين عقابها؟ أين صراخها وقسوتها؟ بدا الأمر كما لو أن عملاقاً من ورقٍ امتص كل ما في السيدة جيلبرت من شرٍّ وغضبٍ تاركاً إياها كقشرة بيضةٍ جوفاءَ.

- عودي إلى الفراش، يا كلارا. لقد كان يوماً طويلاً. قالت بضجرٍ وأغلقتِ الباب.

وقفتِ كلارا هنالك للحظةٍ، ووضعت يدها على الباب مرةً أخرى شاعرةً بشيءٍ من الفضول والأسف على عينَي السيدة جيلبرت المتعبتين المثقلتين، وكاهليها المنهكين.

***

كانتِ كلارا تراقب الحدائق من نافذتها بناءً على طلب ويل في الليلة السالفة. كانت مشكلتها الوحيدةُ هي ما أصاب عينيها من إرهاقٍ وذبولٍ فتغمضهما وتفتحهما كل بضع ثوانٍ بارتعاشٍ جديدٍ لدى سماع إطلاق نارٍ آخرَ خلال الليل. نظرت إلى العناكب التي بدت غيرَ مكترثةٍ بتلك الضوضاء، فتمنت للحظةٍ لو تنضم إليها في شباكها فلا يُقلقها شيءٌ سوى الحفاظ على منزلٍ أنيقِ النسيجِ، واصطياد ذبابةٍ أو اثنتين على العشاء. لقد أخطأ ويل حين ظن انها ستعتاد تدريباتِ الفوج الليلية، لكنها بمرور الليالي راحت تجد صعوبةً في تحمل تلك التدريباتِ إذ باتت تذكّرها باستمرارٍ بالمغلف الوارد من وزارة الحرب، وما يمكن للكلمات التي فيه من قدرةٍ على زعزعة استقرار حياة عائلتها. كانت هي ووالداها كدبابيس البولينغ الخشبية التي تترقب منتصبةً طَرْقَ كرةٍ كبيرةٍ لها من دون أن يكون هنالك مَن يلتقطهم وينظفهم ويُعيدهم إلى ما كانوا عليه من حالٍ.

بينما كلارا تنتظر، كانتِ شمعة تحترق ببطءٍ فالتقطت قطرةً من الشمع الذائب على عتبة النافذة، وقبضت أصابع قدميها داخلَ حذائها وقررت أن تفكر في أشياءَ مروعةٍ

عسى أن تبقيها مستيقظةً بين رشقات الرصاص. وقبل أن تغرق في أحلك أفكارها، رأت بقعةَ ضوءٍ إلى جوار درجات غرفة المرجل: إنها إشارتُها.

خلعتِ كلارا ثوب النوم الذي ترتديه فوق ملابسها (رغم أن ذلك لم يكن ضرورياً إذ لم يبد قط أن السيد أو السيدة جيلبرت مكترثان بالتحقق مما تفعله بعد أن تأويَ إلى الفراش)، ثم نزلت الدرج على رؤوس أصابعها فتوقفت في الطابق الأول لتستمع إلى إيقاعَ شخير السيد والسيدة جيلبرت في أثناء صعوده وهبوطه، ثم ركضت على الدرجة الأخيرة بخفةٍ، وفتحتِ الباب المفضي للحدائق ثم اغلقته وراءها وانغمست في الظلمات، وقدماها تستذكران المسار استذكارَ علاماتٍ موسيقيةٍ على البيانو.

- ها قد جئتِ! همس ويل الذي كان متكئاً على جدارٍ من الطوب أمام الدرج وقد وضع ملاءةً مطويةً على ركبتيه.

- طبعاً، ولماذا تظن أني لن آتي؟

- كل ما هنالك أني ... سعيدٌ. سعيدٌ وحسبُ. قال ويل مبتسماً مادأ يده بشيءٍ يحمله.

حدقتِ كلارا متفاجئةً. برتقالةٌ أخرى.

- وجدتُها عند مدخل الدفيئة.

- شيءٌ عجيبٌ! قالتِ كلارا وهي تأخذ البرتقالة من يده وتشمها. كانت رائحة الحمضيات تدغدغ أنفها.

- بل عجيبٌ جداً! قال ويل

- هل يمكن أن يكون ذلك ... من فعل اللص؟ سألته كلارا وهي تعيدها إليه.

- هنالك طريقةٌ واحدةٌ فقط للتأكد من ذلك، وهي الإمساك بالفاعل. كانت نبرة صوته تشي بشيءٍ لم تستطعِ كلارا قراءته.

- هل لديك خطةٌ إذن؟ أنختبئ في الأدغال أم في البستان؟ ستكون رؤية البيوت البلاستيكية من أعلى المنحدر أوضح. همستِ كلارا.

هز ويل رأسه، ووضع البرتقالة في جيبه، وقال:

- أعتقد أن علينا أن نراقب من داخل دفيئة الأناناس.

- ماذا؟ قالتِ كلارا بصوتٍ فوق الهمس.

وضع ويل إصبعه على شفتيه.

- لكنه ضربٌ من الجنون. مؤكدٌ أن روبرت سيراقب الحدائق كما أمره السيد جيلبرت، وبذا سيُقبض علينا، وسيغضب لأنك خرجت من مخدعك.

فرك ويل رقبته كما لو أنها تؤلمه وقال:

- لقد أخبرتك أن روبرت ينام نومَ الموتى، ولا أتوقع البتةَ أن يطوف بالحدائق الليلة. هيا؛ دعينا نذهب للقبض على سارق الفاكهة.

عقدت كلارا ذراعيها حول رقبتها محاولةً خنق الرعشات الصغيرة التي سرت في جسدها. كانت والدتها قد أوصتها أن تعدّ إقامتها عند عمها وعمتها مغامرةً صغيرةً، لكنها تشك أن والدتها قد تخيلت أن تشمل هذه المغامرةُ تجوال كلارا في الحدائق ليلاً مع صديقٍ جديدٍ في محاولةٍ للقبض على لصٍّ يسرق الأناناس.

الفصل الثامن عشر
(الأناناس)

كانت دفيئة الأناناس مختلفةً ليلاً، وسرى دفء الظلمة البهيج في أوصال كلارا ورئتيها فراح صوت خرير خرطوم الماء الساخن يدغدغ أذنيها، بينما تيجانُ الأناناس الشائكة تراقبها بهدوءٍ.

توقف ويل فجأةً فاصطدمتِ كلارا بظهره وقالت على عجلٍ: «آسفةٌ.» إلا أن ويل لم يسمعها على ما يبدو، وسقط الغطاءُ الذي كان يحمله فكان رأسه منحنياً فوق أصيصٍ للنباتات حين تمتم همساً واضعاً يده على حافة الأصيص: «انظري إلى هذا.»

عبستِ كلارا. كانتِ الأوراقُ الشائكةُ ماكثةً فيه، أما الأناناس فقُطع من أصله. بدا أن ثمار الأناناس المجاورة الأخرى كانت تحدق بينما تتأرجح تيجان أوراقها مصدومةً.

- هذا الأناناس البرازيلي القرمزي قد نضج للتو. قال بصوتٍ مشحونٍ بالعاطفة. نظرتِ كلارا إلى ويل وهو يداعب الأوراق ويتفحص الساق التي قُطفت منها ثمارُ الأناناس، ثم أسبل يديه وشد قبضتيه، وقال: إن دمي لَيغلي ... ممن يأخذ ما لا حق له فيه.

تكونث في حلق كلارا كتلةٌ بحجم بصلةٍ، فانحنت والتقطت الغطاء، وقالت:

- علينا أن نقبض على الفاعل أياً كان. ثم وضعتِ الغطاء على الحصى تحت حوض المزروعات في منتصف الممر داخل الدفيئة، ثم جلسا متجاورَين ملصقين ركبهما بذقنيهما وظهراهُما متجهان نحو النوافذ، فذكّر ذلك كلارا بمنزل اللعب عندما كانت صغيرة؛ إذ أعطتها أمها ملاءاتٍ يفوح منها عبيرُ ماء اللافندر لتغطي به أثاثَ غرفة المعيشة، فتمكنت من صنع أوكارٍ أقامت للدمى فيها حفلاتِ الشاي.

جلسا صامتين يلفهما هواء الأرض الدافئ الساكن فسقطت قطرة ماءٍ متكاثفةٌ على المقعد من فوقهم، ثم اهتزتِ النوافذ وارتعشت بفعل النسيم.

- هل تجد الأيامَ طويلةً هنا؟ سألتِ كلارا بعد برهةٍ.

- طويلة؟ سأل ويل ناظراً إليها.

- أعتقد أني أعني ... أن الوضع مختلفٌ هنا، فلا أكاد أجد ما أفعله. لعلّي أفتقد المنزل والمدرسة.

- تفتقدين إلى المدرسة؟ قال ويل رافعاً حاجبيه: لا أستطيع أن أؤكد لك ذلك؛ فأنا أفضّل أن أكون في الخارج أرسم. ربما أفتقد بعض أصدقائي كجوني الذي سرق ذات مرةٍ نظاراتِ السيدة براون، وارتداها في أثناء الدرس فضحك الجميع، واستغرق الأمر منه بعض الوقت ليلاحظ ما جرى. ربما لأنه لا يستطيع الرؤية.

ابتسمتِ كلارا مستحسنةً التحدثَ عن المدرسة مع ويل، فهذا يخفف من وطأة غيابها عن بيتها قليلاً، ثم همست: «كان هذا اليوم مثيراً.» والتقطت حصاةً راحت تداعبها في راحة يدها وهي تقص على مسامع ويل خبر كسرها إطار البساط، وسقوط مفتاح الغرفة المقفلة خلف السرير، ولقاء السيدة جيلبرت بالسيد جيلبرت بالقرب من الدفيئات، وسلة الخوص المغطاة بقطعة قماش.

رنّت مواسير المياه وهسهست.

- ألدى السيدة جيلبرت سلةً؟ سأل ويل.

أومأتِ كلارا برأسها.

- وكانت بجوار الدفيئات؟

أومأتِ كلارا برأسها مرةً أخرى، فسرت في رأسها دوامةٌ فقالت:

- إلام تلمح؟ هل تعتقد أنها ... من يأخذ الثمار؟

انحنى ويل إلى الأمام، وقال:

- ربما.

- لا. قالتِ كلارا ملتقطةً حصاةً أخرى، لتضعها في راحة يدها بجوار الأولى كشخصين يقفان كتفاً حذاءَ كتفٍ، ثم داعبتِ الحصى وقالت:

- عمي وعمتي كرّسا نفسيهما لعملهما فما كانا ليسرقا أبداً.

- هنالك نقصٌ في الغذاء، وضريبةٌ على السكر، وسيدفع الناس غالياً مقابل أي شيءٍ حلو المذاق. همس ويل.

فكرتِ كلارا بمقالته. لقد كان منزل آل جيلبرت متعفناً مغبرّاً لا يُخفي ما بهم من عوزٍ للمال، أما مائدتهما ففيها من الوفرة ما فيها، ولذا فلن تصدق للحظةٍ ما يفكر فيه ويل من أنهما قد يسرقان الكونت.

فتش ويل في جيبه ثم أخرج دفتر ملاحظاته، وقال:

- لقد تفقدتُ الدفيئات بعد مغادرتك الليلةَ الماضية، ودونتُ قائمةً بالفاكهة التي اختفت.

- وكيف تفعل ذلك، وأنت تعلم أنك قد تُرى هنالك؟ قالتِ كلارا شاهقةً.

- كنتُ حذراً. قال ويل مبتسماً لكلارا ابتسامةً قاتمةً.

انحنتِ كلارا، ونظرت في دفتر ويل المتأرجح في حِجره، فرأت رغم الضوء الباهت أنه قد رسم بجوار قائمة الفواكه المفقودة خوخاً مظللاً وثلاثة ثمار أناناس كانت تيجانُها تحيط بالثمار وتحميها كالعنب، وقد كتب إلى جوارها: الأناناس البرازيلي القرمزي.

- لماذا يحب الكونت الأناناس؟ سألتِ كلارا.

- مباهاةً. همس ويل: هل تعلمين أن بعض مربي الفاكهة يأخذون تيجان الأناناس المحلي، ويربطونه بأناناس من بلدٍ آخر؟

- ولكن لماذا؟

- لخداع الضيوف على العشاء، وجعلهم يعتقدون أن الأناناس يُزرع في دفيئة مضيفهم.

حدقتِ كلارا في الثمار، فوجدت في نفسها مودةً تنشأ حيالها. ربما لم تكن كمودة

ويل حيالها، إلا أن المودة كلها سيّان.

- جرتِ العادة على غرس فسائل الأناناس في روث الخيول لإبقائها دافئةً، ولك أن تتخيلي الرائحة! قال ويل وهو يحك أنفه ويحرك حاجبيه.

خنقتِ كلارا قهقهةً. لقد كان ويل يشبه أخاه روبرت، في بعض الجوانب كالنمش المتناثر على خديهما، وطريقة تغضُّن أنفيهما، بينما لم يكونا في جوانبَ أخرى متشابهين قط. كان روبرت حين يأتي على ذِكر الفواكه والخضروات يبدو مهتماً بعدد مَن يمكنها إطعامهم، أما بالنسبة إلى ويل فالثمار أهم من ذلك بكثيرٍ.

سرى في أوصالها شعورٌ تراكم بين جوانحها كتيارٍ يرحب بذوبان الثلج المنسكب من تلقاء الجبال، ومضى يزول ذلك التوتر الذي استقر بين كتفيها منذ وصولها إلى كوخ البستانيين. تحسست جيبها وأخرجتِ المظروف ووضعته في حِجرها.

- ما هذا؟ همس ويل.

- رسالةٌ. رسالةٌ لا تخصني. قالتِ كلارا مستنشقةً نفخةً من الهواء الساخن.

الفصل التاسع عشر
(مكتب الحرب)

تلاشى شعار مكتب الحرب لكثرة ما ضغطت عليه كلارا في محاولاتها تخيلَ ما قد ورد في تلك الرسالة، وقالت: «أخي كريستوفر. إنه على الجبهة في فرنسا؛ أو ... هذا ما أعرفه على الأقل.»

أخذ ويل نفساً عميقاً.

- لقد ... أخذتُ هذه الرسالة من ساعي البريد. لم أكن أنوي الاحتفاظ بها، لو لم يرسلوني إلى هنا، ثم إن أبي وأمي غادرا ففات الأوان. كنت سأعطيها للسيدة جيلبرت عند وصولي. لكننا ... لم ننسجم كثيراً، وأظن أنه سيغضبها كذلك احتفاظي بالرسالة لفترةٍ طويلةٍ.» قالتِ كلارا والدموع تلسع حلقها، فأخذتِ المغلف وقبضت عليه في يديها.

- سبق أن تلقينا برقيةً وردية عند موت أبي، فما هي كرسالتك هذه. لا أعتقد أن فيها أخباراً سيئةً. قال ويل بصوتٍ هادئٍ.

- لكنه احتمالٌ واردٌ، ولا أعتقد أن والديّ قادران على تحمّل مثل ذلك ... ولا أنا أيضاً. قالت كلارا بصوتٍ ضعيفٍ متحسرٍ ثم دستِ الظرف في جيبها: إنْ حدث مكروهٌ ما لكريستوفر واكتشفه أبي، فمن شأن ذلك منعُ تحسن حاله؛ ولكن السيدة جيلبرت قالت إن والدتي كتبت لها، وإن عليّ أن أبقى هنا مدةً أطول، وهذا يعني أن حالة أبي تزداد سوءاً في الحالتين. قالتِ كلارا وقد تراخى كتفاها بؤساً وعجزاً.

دنا ويل من كلارا فلامس ذراعُه ذراعها، وقال:

- لكن الصحف تنشر أخبارَ خسائر الحرب ووفياتها، ولذا فإن والديك ولا ريبَ سيعرفان ما إذا كان قد تعرض أخوك لمكروهٍ. أليس كذلك؟

- كان لدى أمي هوس بقراءة قوائم الضحايا عندما كان أبي في فرنسا، وكانت يداها ترتجفان حين تقرأ أسماء المصابين أو القتلى. قالتِ كلارا وهي تهز رأسها.

أحنت كلارا رأسَها على جانب المقعد، وراحت تتذكر ليلةً من ليالي أول العام حين سقطتِ الصحيفة من يدي والدتها على السجادة كالشراع، ثم وضعتْ يدها على فمها، وانهمرت الدموع من عينيها. حينها ركع كريستوفر على بساط غرفة المعيشة وعدّل الصحيفة في حِجره، وراح يتفحص بعينين جامحتين أسماء القائمة المنشورة.

«والدكما مصابٌ ... لا ميتٌ.» قالت أمها في كربٍ، واجتمعت هي وكلارا وكريستوفر معاً على الأرض وقد طوق أحدهم الآخر بذراعيه بارتياحٍ.

- عندما غادر كريستوفر، طلب أبي من أمي أن تعِده بالكف عن قراءة قوائم الضحايا في الصحف لأنها تبعث على دوام القلق، وقال إن الأخبار ستصل إليهم بالبرقية أو الرسائل؛ وهذا ما حدث فعلاً إلا أنهما لا يدريان حتى اللحظةِ. استطردتِ كلارا في الذاكرة.

- ينبغي لك أن تفتحيها. قال ويل:

- هيا ... افتحيها الآن. لا يمكنك التظاهر بأنك لم تستلميها. انظري إلى الختم يا كلارا. إنه ختم مكتب الحرب. عليك أن تفتحيها الآن وتخبري السيدة جيلبرت. ماذا لو كان كريستوفر يتلوى ألماً في مستشفىً ما في مكانٍ ما وحيداً؟

- لكنه حينها سيكون بين أطباءَ وممرضاتٍ يُعنون به.» همستِ كلارا بلا حولٍ أو قوةٍ محاولةً طرد كل أفكارها حول أخيها من رأسها حتى أخمص قدميها وعويل ذويها البعيدين عنها. لوت يديها في حجرها، وتذكرت إذ قرصتِ السيدة جيلبرت خدها. لا تستطيع ولا تريد تسليم الرسالة لعمتها.

كانتِ النوافذ تهتز بهدوءٍ بفعل الريح حين سُمع ضجيجٌ فوق الحصى في الخارج.

- ما ذلك الصوت؟ همس ويل.

صوت ضوضاءٍ آخر.

تزاحمت أنفاس كلارا في حلقها.

صوتُ خدشٍ وتشمُّمٍ خلف الزجاج.

- إنه حيوانٌ. تمتم ويل: ربما هو فأرٌ يبحث عن طعامٍ، رفع يديه إلى جوار خديه وهزّ أصابعه كالشاربَين.

ضاقت عينا كلارا حين تبسمت فأحسّت أن وزن سرّها بات أخف قليلاً بعد أن أذاعت به. حدقت في شجيرة الأناناس الجاثمة بفخرٍ في حوضها معتمرةً تاج الأوراق الرقيقَ، والفاكهةَ المبطنةَ. ويل محقٌّ حين قال إن عليها فضَّ المغلف. ستفتحه؛ ولكنها تعرف أن الوضع سيتغير تماماً بمجرد أن تفعل ذلك. وبينما هي جالسةٌ هنالك في الدفء تستمع إلى صوت الري بالتنقيط إلى جوار صديقها الجديد، أدركت أنها لم تكن متأكدةً تماماً من رغبتها في تغيير الأشياء بعد.

***

بدأتِ كلارا تستيقظ حين كان ويل يدفعها جانباً، فبدا لها أثرُ البرد فيه من خلال سيلان لعابه على ذقنه؛ فمسحته بظاهر يدها ونهضت.

- قريباً يحل الفجر ولمّا يأت أحدٌ بعدُ لسرقة الثمار. همس ويل وهو يطوي الغطاء.

تسللا من الدفيئة إلى ضباب الصباح الذي حام خفيفاً فوق الحدائق فسمعا فجأةً وقْع أقدامٍ وأحذيةٍ تنزلق على الندى الكثيف وتطأ العشب وتقترب منهما.

- أسرعي! همس ويل ممسكاً بذراع كلارا، ثم جرها على الدرجات، وانكمشا عند الباب مع اقتراب الخطى.

شعرتِ كلارا بشعورها الذي كان يراودها حين كانت تلعب الغميضة مع كريستوفر. كانت كثيراً ما تغطي عينيها في مخبأها متوهمةً أن ذلك سيجعلها غير مرئيةٍ. كانت الأقدام على وشك المرور أمام مدخل الدفيئة. أغمضتِ كلارا عينيها.

ستامب ... ستامب ... ستامب ...

دفعها ويل إلى جانبه حين انحسر صوت الخطى.

فتحتِ كلارا عينيها.

كانت عينا ويل فاغرتين مستثارتين.

- السيدة جيلبرت ... إلى أين هي ذاهبةٌ؟ همس ويل.

نهضتِ كلارا وخطت خطوتين تمكنت بعدهما من رؤية الحدائق؛ فكانتِ السيدة جيلبرت تتجول في الضباب كشبحٍ يحمل سلةً تتأرجح من ذراعه اليمنى كفانوسٍ مطفأ. جاست زوبعة أفكارٍ صاخبةٍ في رأس كلارا. انه لأمر غريب حقاً. ما الذي أتى بالسيدة جيلبرت في هذا الوقت المبكر جداً؟ والسؤال الأهم هو ماذا تحمل في تلك السلة؟

الفصل العشرون
(الجندي)

تبع ويل وكلارا السيدةَ جيلبرت عن بعدٍ في الغابة، فكانا من البعد عنها بحيث لا يسمعان صوتَ خطاها ولا تسمع صوتَ خطاهما، لكنهما قريبان بما يكفي لرؤيتها في رداء الضباب. التصق الطين بحذاء كلارا، وراحت تستنشق رائحة الطحالب الرطبة بفعل أمطار الليلة الماضية والخشب المتعفن. تسللا حذاءَ أنسجة العنكبوت العالقة في مهب الندى، ومشيا فوق أوراقٍ نحاسيةٍ داكنةٍ إلى أن توقفتِ السيدة جيلبرت عند شجيرةٍ مليئةٍ بالتوت الأسود الناضج، فقطفت منه حفنةً وأكلتها وهي تنظر إلى الأغصان شبه العارية وما وراءها من سماءٍ متجليةٍ.

رمق ويل كلارا بنظرةٍ خاطفةٍ مختبئاً خلف جذع شجرة بلوطٍ ثخينٍ، ورفع حاجبيه، فهزت كلارا كتفيها. بدتِ السيدة جيلبرت هذه المرة مختلفةً، فخطواتها كانت أكثر ثقةً من المعتاد. إلى أي الأماكن كانت ذاهبةً؟

تبعاها بهدوءٍ حتى توقفتِ السيدة جيلبرت مرةً أخرى بالقرب من شجرتين مقطوعتين. دنا ويل وكلارا متسللين خلف أثخن الجذوع مستغلّين الضباب للاختباء، فراح قلب كلارا يخفق بشدةٍ؛ فلو عادتِ السيدة جيلبرت أدراجها لباتا في خطرٍ كبيرٍ من أن يتم اكتشافهما.

وضعتِ السيدة جيلبرت سلتها على أرضية الغابة المغطاة بالأوراق إلى جوار مجموعةٍ من الفطر التي كان بياضها بارزاً بجوار البني والأخضر.

رفرفت ذبابةٌ حول وجه كلارا؛ فدفعتها بكفها بعيداً فعلق أحدُ أظفارها في لحاء جذع الشجرة الذي تتكئ عليها.

ثم سمع صوت أغصان تُلوى، وحفيفُ أوراقٍ.

راح الضوء يتحول إلى اللون الوردي الناعم عبر الضباب حين ظهر رجلٌ بشاربين وزيٍّ أخضر. كان جندياً.

- مرحباً ليزي. أقدّر قدومك. لقد بدأنا التدريبَ في وقتٍ مبكرٍ اليوم. قال بهدوءٍ وهو ينظر إلى ساعته بينما راح الضباب يتبدد من حولهما، ثم تحشرج وقال: هناك حديثٌ عن ذهابنا إلى الجبهة في غضون أيامٍ قليلةٍ.

- آه! توماس. قالتِ السيدة جيلبرت وقد تجهم وجهها.

خدش اللحاء الخشن ما تحت أظفار كلارا، فشدت على الشجرة بقبضتها. كانتِ السيدة جيلبرت تعرف هذا الجندي معرفةً جيدةً بما يكفي لتناديه باسمه الأول.

ابتسم توماس للسيدة جيلبرت ابتسامةً صغيرةً متصدعةً؛ فكانت عيناه تفيضان أسفاً، وقال:

- ويبدو أن ذلك لن يدوم. ثم التقط السلة، ورفع القماش، وألقى نظرةً خاطفةً على ما فيها، وقال: شكراً لكِ. كنتُ أتمنى فقط لو أفعل شيئاً من أجل ...» وطأطأ توماس رأسه فجأةً، وبدأ كتفاه يهتزان، وضع السلة على الأرض، ثم وضع يديه على وجهه، وأجهش بالبكاء شاهقاً مراتٍ ومراتٍ.

نظرتِ كلارا إلى توماس والقشعريرةُ تزحف في ذراعيها ومؤخرة رقبتها. الجنود لا يبكون؛ بل هم أقوياء وشجعان؛ فعندما عاد والدها من الحرب، وعندما ودعهم كريستوفر جميعاً، سارا في الطريق بظهرٍ مستقيمٍ وفخرٍ من دون أن ترى كلارا أدنى أثرٍ للدموع في عيونهما، بل مجردَ قرارٍ قاتمٍ في أوقاتٍ رهيبةٍ ينبغي القيام به على أحسن وجهٍ.

تقدمتِ السيدة جيلبرت نحوه خطوةً ووضعت ذراعها على كتف توماس بخجلٍ فقال لها متلعثماً:

- أنا آسفٌ ... أنا آسفٌ ...

- أنا آسفةٌ جداً. همستِ السيدة جيلبرت شاحبةَ الوجه كالطباشير في الضباب المتناثر.

- «هذا ليس خطأك. أنا لا ألومك، وأنت تعرفين ذلك.» شهق توماس.

قلة نوم، ومسير في الغابة خفية، وجندي باكٍ؛ كلها أشياءُ غريبةٌ جعلتِ كلارا تخاف من أن تنهار فجأةً كشجرةٍ تُقطع. أخذت نفساً هادئاً ثابتاً، ونظرت إلى ويل الذي كان مفتوناً بالمشهد الذي يتكشف أمامهما.

اعتدل توماس وأخرج من جيبه منديلاً واستنثر فيه بصخبٍ، ثم مسح عينيه وخديه بامتعاضٍ فترددتِ الأصوات في الغابة التي استيقظت للتو، وراح طيرٌ من الطيور ينعب في الأشجار فوق رؤوسهم.

نظرتِ السيدة جيلبرت خلفها في الاتجاه الذي جاءت منه، وقالت همساً: «لا بد لي من العودة إلى المنزل.»

نظرتِ كلارا إلى ويل نظرة قلقٍ، فأشار إليها أن تدور حول جذع الشجرة ليختارا مكاناً أفضل يتخفيان به عن الطريق، فتقدمتِ كلارا شاعرةً بدفء أنفاس ويل عند مؤخرة رقبتها وهو يمشي خلفها عن كثبٍ.

- طبعاً. عليك الذهاب. أجاب توماس.

- إن لم أرك مرةً أخرى فاعتنِ بنفسك جيداً. قالت السيدة جيلبرت ملتقطةً تنورتها، ثم ابتسمت لتوماس ابتسامةً حزينةً وغادرت، فظل توماس يراقبها إلى أن توارت عن ناظريه.

تغضن جبين ويل راسماً خطوطاً صغيرةً، بينما هما يشاهدان توماس يستدير مختفياً في الضباب الخفيف تاركاً خلفه صوت أغصانٍ تتكسر تحت حذائه الكبير.

- ألا نمضي؟ تمتم ويل محدقاً وراءه.

عضتِ كلارا شفتها السفلى. كانتِ السيدة جيلبرت عائدةً إلى الكوخ، فماذا لو صعدت إلى العلية لتفقُّد كلارا فلم تجدها؟

«كوني شجاعةً!» فكرت كلارا. لن تحتاج إلى أكثر من اختلاق عذرٍ لغيابها كالتنزه في الصباح لمشاهدة شروق الشمس، أو المضي إلى قطف التفاح لتسليمه للمستشفى. أومأت برأسها لويل فشاهدت في وجهه انعكاس ما شعرت به من

معنوياتٍ عاليةٍ، وتصميمٍ على حل هذا اللغز؛ فتساءلت ما إذا كان يشعر كذلك بقلقها العميق الثقيل كقضيبٍ حديديٍّ في تجويف بطنها. لماذا كان الجندي مستاءً جداً؟ وما الذي كان في السلة؟

كان توماس يمشي بثباتٍ بينما بدأت ساقا كلارا تؤلمانها، وسرعان ما ابتعد فتبعا بآذانهما حسيسَه فقط. أرادتِ كلارا الجلوس للحظةٍ لالتقاط أنفاسها، بل أرادتِ العودة إلى سريرها أكثر، لكنهما كانا في حاجةٍ إلى معرفة وجهة الجندي.

لقد أدركت فجأةً أن شيئاً ما كان مختلفاً، فتوقفت. لم تكن لخطى توماس أيةُ جلجلةٍ، ولا لحذائه حفيفٌ إذ يدوس الأوراق شاقاً طريقه عبر العليق؛ ولذا سرى في عمودها الفقري رعبٌ.

- هيه! ... أنتما هناك! أخاف الصوتُ طائرَ الدراج في الأدغال فحلّق في الهواء كانساً بجناحيه الأوراقَ كمكنسة السجاد، ثم سمع صوت تهشُّم عددٍ من الأغصان. أكان ذا صوتَ مزلاج أمان البندقية؟

التفت ويل ونظر بيأسٍ إلى كلارا، ثم تنفس وقال: «اركضي.»

استدارتِ كلارا فسمعت إلى يمينها صوت أنفاس توماس اللاهثة.

أمسك ويل بيد كلارا بحزمٍ، وقادها عبر الغابة سالكَين الطريق الذي جاءا منه.

كانت خطى مَن يلاحقهما تقترب، فكلارا لا تزال تسمع أنفاس الجندي.

واراهما الضبابُ عن ناظرَي توماس، غير أن الضباب كان عدواً لهما أيضاً، مما أجبرهما على الالتفاف حول أشجارٍ كانت تظهر من العدم فتعلق ملابسُهم بأغصانها، وتتعثر أقدامهم بجذورها.

- من هنا! تمتم ويل بلهفةٍ منعطِفاً نحو اليمين، فقادها وراء شجرةٍ مقلوبةٍ تلوح جذورها في الهواء كأصابع الساحرات.

استطاعت كلارا أن ترى نبض ويل في عروق صدغيه. ضغط بيده على فمه محاولاً خنقَ سعالٍ دمعت له عيناه.

كانت خطى توماس لا تزال تدوي متحاشيةً الشجيراتِ، متجهةً نحوهما.

الاختباء. لقد دأبا على الاختباء وما زالا، فهما مختبئان من اللص، ومن روبرت، والآن من الجندي الذي كانت السيدة جيلبرت ودودةً جداً معه.

توقف صوت خطى توماس.

رمقتِ كلارا ويل بنظرة قلقٍ فأشار إليها أن تستلقي إلى جوار الشجرة الساقطة. كانت هنالك فجوةٌ تكفي للانزلاق في الفراغ بين الأرض وجذع الشجرة المائل. تحركت خلسةً مقلدةً تسلل ويل في الفراغ الضيق، واستلقى كلٌّ منهما وقدماه عند رأس صاحبه حتى كاد نعل حذاء ويل المقلوب الموحل أن يلامس شعر كلارا.

سُمع صوت عصاً تجوس بين الشجيرات متسللةً تضرب العليق بحثاً عنهما فتتأرجح لها شجيرات البرقوق. التفتتِ كلارا إلى يسارها فرأت حذاءً عسكرياً ضخماً كبيراً يمر قبالة الشجرة الهاوية.

حبست أنفاسها في صدرها بينما كان ويل ساكناً سكوناً جعلها تتساءل ما إذا كان لا يزال على قيد الحياة، لكنها رأت انتفاضَ قدمه اليسرى.

تلاشى صوت العصا حتى لم يعد في مقدورهما سماعه، لكنهما ظلا مستلقيين في الوحل لا يكادان يختلجان أو يتنفسان. انتهى الأمر بحذاء ويل أن لامس جبين كلارا. «المكان آمنٌ ... فلنذهب.»

خرجتِ كلارا من تحت الشجرة فكان مئزرُها مغطىً بالطين، وكُم فستانها ممزقاً بتعلقه بغصن شجرةٍ؛ أما ويل فكانت أوراق الشجر تغطي خديه، وشعرُه أشعثَ منتصباً به أشواكٌ كثيفةٌ.

- لقد كان قريباً جداً منا. قال ويل متجهماً وهو يزيل الطين عن سرواله: ما هذا الذي جرى ... في رأيكِ؟

- لا أعرف، لكن ما روّعني جداً أن أرى ذلك الجندي يبكي.» قالت كلارا.

- هذا صحيح. اعترف ويل وسأل متكئاً على الشجرة المائلة، قاطعاً منها غُصيناً:

«وماذا تقولين في السلة التي أعطته إياها السيدة جيلبرت؟

- لستُ متأكدةً من السبب. لماذا تسأل؟

- السيدة جيلبرت ... أعتقد أنها مَن تسرق الفاكهة وتعطيها للجندي. قال ويل واخزاً الشجرة بالعصا كرمحٍ.

- لا يا ويل. لا يبدو ما تقول ... صحيحاً في نظري. السيدة جيلبرت لن تفعل ذلك. قالتِ كلارا وفمها مملوء بالقطن.

- فلماذا تتسلل إذن، وتلتقي به في ساعات الفجر الأولى بينما الجميع نيامٌ؟ قال ويل.

داعبتِ كلارا الأوراق بحذائها. هل كان ويل محقاً فيما يقول؟ كانت تكره التفكير في مثل هذا الشيء الفظيع بحق أخت أبيها، لكن السيدة جيلبرت لم تكن لطيفةً معها منذ وصولها، ولذا، فربما كان على كلارا أن تتصالح مع حقيقة أن السيدة جيلبرت امرأةٌ سيئةٌ حقاً.

- عليك أن تدخلي الغرفة المغلقة في الكوخ اليوم، فربما فيها أشياء مخبأة أخرى إلى جوار رسائل والدتك. أشياءُ كفاكهةٍ مسروقةٍ مثلاً. قال ويل بإصرارٍ.

- حسناً، لا أعرف. تمتمتِ كلارا بريبةٍ. كانت أفكارها غامضةً وبطيئةً كمن يتكلم ويفكر تحت الماء. لماذا كان ويل مصرّاً على أن السيدة جيلبرت هي السارقة؟ كانت أصابع ويل تنقر على سرواله في أثناء عودتهما عبر الغابة، وكان عيناه تتنقلان بين الفجوات التي بين الأشجار كمن يبحث عن شخصٍ ما. لا بد أن اجتماعه بالسيدة جيلبرت والجندي قد أزعجه بشكلٍ واضحٍ، أما كلارا التي كانت ترجو العثور على إجاباتٍ باقتفائها أثرَ السيدة جيلبرت، فقد وجدت نفسها تغرق في المزيد من الأسئلة أكثر من أي وقتٍ مضى.

الفصل الحادي والعشرون
(الرسائل)

كان السيد جيلبرت في المطبخ يصب لنفسه كوباً من الشاي عندما عادتِ كلارا، فناداها من الردهة:

- صباح الخير. جيدٌ أن أراكِ مبكراً جداً. لقد خرجتِ السيدة جيلبرت عند الفجر أيضاً؛ فهل رأيتِها؟

- «لا.» ردتِ كلارا خانقةً تثاؤبها، وقد عقدت ذراعيها لإخفاء بقع الطين في مئزرها.

دخل السيد جيلبرت القاعة عابساً، وكأسه في يده، فقال:

- ماذا حدث لفستانك، يا كلارا؟

وفي غمرة عجلتها وانشغالها بإخفاء المئزر، نسيت كمها الممزق؛ فشعرت بحرارة تزحف نحو وجهها المتعب، فردت:

- أوه! لقد ... علق بالعوسج. سأصلحه بنفسي.

- ستتكفل ليزي بذلك نيابةً عنك فلطالما كانت موهوبةً في الخياطة والحياكة وأشياءَ من هذا القبيل. قال السيد جيلبرت مبتسماً.

تذكرتِ كلارا البساط القابع في خزانة ملابس جيلبرت في الطابق العلوي. قد تكون السيدة جيلبرت موهوبةً، لكن كلارا لن تمنحها الفرصة لغضبٍ جديدٍ حيال أمرٍ تافهٍ ككمٍّ ممزقٍ.

- يمكنك المساعدة في جني ثمار التفاح بعد ظهر هذا اليوم. سيأخذ روبرت عربةً منها إلى مستشفى الصليب الأحمر في المدينة غداً. يمكنك الذهاب معه إذا أردتِ؟ لا بد أنك تشعرين ببعض الملل إذ علقتِ هنا في الريف. قال السيد جيلبرت.

ابتسمت له كلارا ابتسامةً صغيرةً، فهو لا يعلم حتى اللحظة أنها لم تكن قط أقلَّ مللاً منها الآن.

- صحيح. من الأفضل التعامل مع الأمر. ربما لا يزال أولئك البستانيون نائمين الآن. إنها لفكرةٌ جيدةٌ أن تسكبي دلو ماءٍ على أولئك الكسالى. قال السيد جيلبرت مبتسماً وقد تغضن ما حول عينيه المتعبتين مما جعل كلارا تبتسم له، ثم قال السيد جيلبرت وهو يتوجه نحو الباب: «تبدين متعبةً مثلي أيتها الشابة. آمل ألا يكون روبرت سبباً في كدّك في العمل.»

- أوه! لا. إطلاقاً. أفضّل الانشغال على فراغٍ يحيلني إلى التفكير. قالتِ كلارا.

توقف السيد جيلبرت ويده على مقبض الباب، ثم التفت إليها وقال: «نعم. أرى ذلك.» وأخذ رشفةً من الشاي ثم تنهد بعمقٍ، وأضاف: «ستتحسن الأمور تلقائياً عما قريبٍ.» كانت نظرته لطيفةً لطفاً جعل كلارا تود فجأةً لو أنها تحتضنه فتتحسس شعر ذقنه ورأسه، وتشتمّ رائحة التراب والتفاح والخضروات المطمئنة فيه، لولا أنه ذهب وأغلق الباب خلفه بتكتمٍ، فوجدتِ كلارا نفسها مع صورة أبيها التي تشكلت في رأسها بينما هي تتسلق الدرج بضجرٍ قاصدةً سريرها فتنام نوماً نهارياً سرياً.

* * *

انقشع ضباب الصباح، وأماط اللثام عن شمسٍ واهنةٍ وظلالٍ مستطيلةٍ، ثم تأخر الوقت إلى ما بعد الغداء بفترةٍ طويلةٍ حين فوجئت كلارا بأنها نامت طيلة فترة الصباح. نظرت في المرآة فلاحظت أثر الوسادة في خدها الأيمن وهالاتٍ بلون البرقوق تحت عينيها.

ومن دون إضاعةٍ للوقت قصدت غرفة نوم آل جيلبرت لاستعادة المفتاح الذي كان باردَ الملمس في راحة يدها الساخنة؛ ولمّا خرجت عائدةً نحو الردهة، أدخلتِ المفتاح في ثقب باب الغرفة الغامضة وأدارته دورةً واحدةً، ثم أدارتِ المقبض وفتحتِ الباب ودخلت بقدمين مرتعشتين فيهما من النعومة والصمت ما في قوائم القط نبتون. أغلقتِ الباب من الداخل ودستِ المفتاح في جيب المئزر.

تسبب إغراء الاندفاع نحو المكتب وما عليه من كومة الرسائل الصغيرة في ارتعاش أصابع كلارا، إلا أن عليها فعلَ أشياءَ أخرى أولاً. قالت: «مرحباً أيها السرير.»

واندفعت أصابعها نحو إطاره المعدني المطلي بلون الزبدة، والتقطت ملاءة الكروشيه وربتت على صوفها الأصفر والأخضر؛ فقد صُنعت تلك الملاءة بحبٍّ واهتمامٍ بالغين، فليس فيها غرزٌ متراخٍ أو حوافُّ خشنةٌ كما في سريرها. طوتها واتجهت نحو المكتب، ثم نظرت من النافذة، فقالت: «مرحباً أيتها النافذة.» كان المنظر منها مشابهاً للمنظر من غرفة نوم عائلة جيلبرت؛ من البحيرة الفضية للحقول المحروثة وما وراءها من أشجارٍ اختلط فيها اللون الأصفر البركاني والبرتقالي والأحمر.

أخيراً قالتِ كلارا: «مرحباً أيها المكتب.» كان خشبه بارداً لامعاً له رائحةُ الطلاء اللامع. فتحت أكبر أدراجه فرأت أن أكوام المظاريف قد رُتبت فيه وفق صفوفٍ متسقةٍ؛ وأنها كانت أكثر من أن تكون من أمها وحدها. سرت في ظهرها قشعريرةُ بردٍ، فمسحت كفيها المبللين بمئزرها وتناولت واحدةً من الرسائل؛ فلم تكن مرسَلةً إليها ولا للسيدة جيلبرت؛ بل لم تكن مرسَلةً لأيٍّ كان؛ ولذا تجهمتِ كلارا وتحولت تفتش بين المغلفات الأخرى التي كانتِ جميعها فارغةً ومختومةً.

أغلقتِ كلارا الدرج وفتحت دُرجاً أدناه حابسةً أنفاسها، متوقعةً أن تكون نظرية ويل حول السيدة جيلبرت صحيحةً؛ وأنها ستجد كيساً من الدراق وبعض الأناناس؛ لكن الدُرج لم يكن يحتوي أية فاكهةٍ، إنما هي مظاريفُ أخرى مختومةٌ.

التقطتِ كلارا أطول مظروفٍ من الكومة على المكتب فكان فارغاً أيضاً، أما ما تحتها فانهارت كالمروحة. قلبتِ الظرف فكان غيرَ مختومٍ فوضعته جانباً ثم التقطته مرةً أخرى متفكرةً في رسالة وزارة الحرب التي في جيبها. كان الشعور بالذنب يسري في ظاهر ذراعيها ويجعل شعرها منتصباً حتى أقصاه. دست أصابعها في المغلف وسحبت ورقةً واحدةً مطويةً، وبدأت في قراءتها:

أكتوبر 1916

أخي عزيز

ها قد حل الخريف أخيراً بحياض الحوزة؛ فالأشجارُ تئن بالتفاح والكمثرى والخوخ؛ كما أن هنالك الكثيرَ من الفاكهة التي أمر الكونت بإرسال بعضها إلى المستشفى العسكري في المدينة، والتي سيقوم البستاني الشاب روبرت بتحميل

صناديقها في العربة مسخراً لها الفرسَ كيتي. هل تذكر حبك لكيتي؟

كنتَ تحشر أنفك في خاصرتها وتستنشق من دفئها. هذه الليلةَ أيضاً حسبتُ أني رأيتك في الغابة وسمعتُ ضحكتك. لم تكن أنت، لكني تمنيتُ لو كنت أنت. لا أطيق الانتظار حتى نذهب معاً في نزهةٍ في الدفيئات فننشر الملاءة ونجلس بين الفاكهة العطرة بينما تسليني بقصصك عن المنزل. مُحبتك ... ليزي.»

***

- إنه لأمرٌ غريبٌ جداً. إلى من تكتب السيدة جيلبرت؟ وأين هي رسائل أمي؟ همستِ كلارا لويل في دفيئة الأناناس في تلك الليلة.

- أنتِ على حقٍّ. إنه غريبٌ فعلاً! قال ويل متكئاً على إحدى النباتات مداعباً أوراقَها برفقٍ.

فهمتِ كلارا تعابيرَ وجه ويل، إذ كانت استهجاناً لفكرة أن تكون السيدة جيلبرت سارقةَ الفاكهة، فقالت:

- ماذا هناك؟

- تكتب رسائلَ إلى شخصٍ لا تذكر اسمَه ... وتقابل سراً جندياً في الغابة ...

- لا يمكن لنا أن نؤكد أنهما يلتقيان سراً. قالتِ كلارا شابكةً ذراعيها.

- «حقاً؟» قال ويل فاغراً عينيه.

لاحت رعشة غضبٍ في وجه كلارا إذ سرعان ما حكم ويل على عمتها بالسوء؛ ولكن: هل كانت هذه الرسائل موجهةً إلى توماس؟ لم تكنِ كلارا تعتقد ذلك. صحيح أن نبرة رسائل السيدة جيلبرت كانت رقيقةً، لكنها الطريقةُ الطبيعيةُ لحديث المرء إلى صديقٍ مقرّبٍ؛ وصحيح أن السيدة جيلبرت قد هرعت لمواساة الجندي الباكي، إلا أن شيئاً من الإحراج شابَ اجتماعَهما، وهو ما دفع كلارا إلى اعتقادٍ راسخٍ بأن الرسائل لم تكن موجهةً إليه؛ فلو كانت الرسائل له لسلمته إياها يداً بيدٍ.

- ينبغي لنا أن نمنع عمتك من وضع يدها على ذلك الأناناس البرازيلي القرمزي.

قال ويل بحزمٍ وقد توهجت عيناه في الظلام: لقدِ استغرق وصولها إلى هذا الحجم الكبير ثلاث سنواتٍ، فغدت هذه النباتات مذهلةً جداً هكذا. إن نضجها يستغرق وقتاً طويلاً؛ لا كالتفاح أو البرقوق الذي لا يحتاج إلى أكثر من بضعة أشهرٍ حتى ينضج ويصبح جاهزاً للأكل.

- لكننا راقبنا المكانَ لليلتين. ربما استسلم اللص. قالتِ كلارا وقد دلفت منه.

- تقصدين أن السيدة جيلبرت ربما استسلمت. قال ويل بفمٍ متشنجٍ وهو يحدق في الباب: سنستمر في المراقبة. مؤكدٌ أنها ستعود لأخذ ثمارٍ أخرى.

نظرتِ كلارا إلى ويل بريبةٍ، ثم سارت على طول مقعد المزروعات، وراحت تتفحص الأناناس كلاً على حدةٍ؛ فكانت لا تستسيغ تصديق كون عمتها المسؤولةَ عن أخذ الفاكهة. ماذا سيقول أبوها؟ وماذا سيقول السيد جيلبرت إن كان ويل على حقٍّ؟

- أود لو أتذوق الأناناس المحلي يوماً ما ... قال ويل تابعاً كلارا على طول المقعد:.. وأرى ما إذا كان حلواً كما يقول الناس، فنجلس في منزل الكونت الصيفي ويكون الناس في انتظارنا بالأطباق الفضية والخزفية.

- وينحني الناس احتراماً لنا. قالتِ كلارا وقدِ ابتسمت واسترخت عضلاتُ فكها.

- وتكون لي أظفار نظيفةٌ، وبدلةٌ جميلةٌ. تمتم ويل مبتسماً.

- أظفار نظيفةٌ؟ قالتِ كلارا ضاحكةً بصوتٍ خافتٍ. «ربما.»

دفعها ويل بمرفقه.

دفعته هي الأخرى، وسرى فيها الدفء، وتجلى الرضا بأغربِ صوره: رضاً رغم وجودها في دفيئةٍ في الليل مع صبيٍ تكاد لا تعرفه، بينما هي تحاول معرفة ما الذي تفعله عمتها.

الفصل الثاني والعشرون
(التوصيل)

أيقظتِ السيدةُ جيلبرت كلارا؛ ففتحت عينيها وإذا بالسيدة جيلبرت تربت على شعرها (ربما تذكرت شعرها الذي فقدته آخرَ مرةٍ أتت فيها إلى غرفة كلارا)، ثم تراجعت خطوةً إلى الوراء. لماذا توقظها السيدة جيلبرت؟ كانت لحظةً مروعةً إذ ظنت أن السيدة جيلبرت جاءت لتخبرها بعلمها أن كلارا قدِ اقتحمتِ الغرفة المقفلة وقرأت رسائلها السرية؛ ثم مرت لحظةٌ رهيبةٌ أخرى إذ تساءلت كلارا عن عقوبتها؛ فقد كان لباب غرفتها العلوية ثقبٌ للمفتاح؛ فهلِ المفتاح في حوزة السيدة جيلبرت، وهل تنوي حبسَ كلارا فيها؟ استنهضتِ الفكرةُ لهاث أنفاسها.

- مرت أيامٌ تسعةٌ على مكوثك معنا، فلم أرَ من تنام أكثر منك! قالتِ السيدة جيلبرت وهي تشهق، ثم سارت نحو النافذة، وفتحتِ الستائر محدثةً صوتاً عالياً، ثم أضافت عند نهاية السرير عرضاً قائلةً: ستصابين بالبرد، يا كلارا، إذا ما لزمتِ ترك تلك النافذة مفتوحةً الليلَ بطوله؛ ولذا أحضرتُ لك ملاءةً أخرى.

جلستِ كلارا وسحبتِ الملاءة نحوها بينما هي تعيد صقل أفكارها، ثم قالت:

- شكراً.

ردتِ السيدة جيلبرت بإيماءةٍ صغيرةٍ وأغلقتِ النافذة فارتعشتِ العناكب فوق رأس كلارا في شباكها.

- يقول أبي إن الهواء النقي مفيدٌ للروح. قالت كلارا وهي ترفع الملاءة نحو خدها.

- هل قال ذلك حقاً؟ قالتِ السيدة جيلبرت محدقةً من النافذة في الحدائق بينما تقوم بتسوية الستائر، ثم همست: «قد يكون على حقٍّ.» فكان صوتها أرقَّ مما تذكره كلارا من حال صوتها: خبرني السيد جيلبرت أنك ستساعدين روبرت في حمل الخضار إلى المستشفى اليوم. قالت تاركةً الستائر تنسدل من بين أصابعها.

حبستِ كلارا أنفاسَها لثانيةٍ أو ثانيتين. أتريد السيدة جيلبرت أن تمنعها من

الذهاب؟

- كل ما أطلبه منك هو أن ... تبقي مع روبرت فلا تشردين عنه بعيداً. روبرت فتى طيبٌ، وهو متحمس جداً لفرز الخضروات وإيصالها إلى المستشفى. أظن أن ذلك بات يجعله يشعر بأنه امرؤٌ نافعٌ بعد يأسه من التجنيد. قالت عمتها.

ارتسمت على فم كلارا ابتسامةٌ، لكنها كتمتها في الوقت المناسب بأن ضغطت بيدها على خدها لتتذكر صفعة السيدة جيلبرت. كانت عمتها كزجاجة ماءٍ ساخنٍ تنتقل من حالة البرودة إلى حالة السخونة، ثم العكس؛ فعندما ذابت صلابةُ وجهها وصوتها، كادتِ كلارا أن ترى المرأةَ التي تتذكرها، والأختَ التي تحدث عنها والدها باعتزازٍ؛ تلك الفتاة التي تحب تسلق الأشجار، وإنشاء الأوكار، والتحدث مع أخيها بالأسحار؛ فما الذي حل بتلك الفتاة حتى غدت امرأةً تكتب رسائلَ سريةً، وربما تسرق فاكهة الكونت؟ ودّتِ كلارا لو تعرف، وقد تعرف ذلك بعد حل الألغاز الأخرى القابعة في هذه الحدائق.

***

كان السيد جيلبرت قد رأى كلارا وروبرت حين غادرا على صهوة الفرس التي تجر العربة بعد أن أوصى روبرت بألا تغيب كلارا عن ناظريه.

- لا حاجة إلى ذهاب كلارا معي. يمكنني نقل الخضروات إلى المستشفى بمفردي. قال روبرت ملتفتاً نحو كلارا وهو يداعب غرف كيتي.

- سشنجزان المهمة إنجازاً أسرع إن نفذتماها معاً. أريدك أن تعود إلى هنا بأسرع وقتٍ ممكنٍ يا روبرت. قال السيد جيلبرت مومئاً برأسه.

- إن في رفع هذه الصناديق مشقةً كبيرةً. قال روبرت وهو يخلع نظارته وينظفها بكمّ قميصه.

- كلارا ستنجح في مهمتها. إنها فتاةٌ قويةٌ. قال السيد جيلبرت وهو يرمقها بنظرةٍ سريعةٍ.

هز روبرت كتفيه من دون أن يبتسم لكلارا ابتسامته المرحة المعتادة. ربما كان يظنها ضعيفة جداً، وصغيرة جداً، وطفولية جداً على أن تساعد في حمل صناديق الخضار والفاكهة إلى المستشفى. ضمتِ كلارا شفتيها إذ كان عليها أن تُثبت خطأه.

اهتزتِ العربة بهما ذاتَ اليمين وذات الشمال، وهما يتخذان الممرّ الطويل للخروج من الحوزة. التفتتِ كلارا إلى صناديق الخضار وراءها، والتي كانت معبأةً بإحكام، ومغطاةً بأكياسٍ من القماش. لقد قال السيد جيلبرت إنه أكبر تبرعٍ يقدمه الكونت لمستشفى الصليب الأحمر في المدينة. عدلت جلستها ودست يديها في جيوب منزرها لتدفئها، ولتتحقق كذلك من وجود العناصر الثلاثة التي أحضرتها:

مظروف وزارة الحرب (الذي لم تكن تنوي فتحه رغم حثّ ويل لها.)

البساط الذي أخذته من درج خزانة السيدة جيلبرت بعد فصله عن إطاره برفقٍ (رغم غضب السيدة جيلبرت، إلا أن كلارا ألزمت نفسها بإصلاح ما كسرته إكراماً للسيد جيلبرت على الأقل.)

Telegram:@mbooks90

حقيبتها (التي تأمل أن والديها قد وضعا فيها ما يكفي من أموال الطوارئ لشراء إطارٍ جديدٍ للبساط، والتي أخفت فيها كذلك القصاصة الورقية الصغيرة التي عثرت عليها خلف البساط، والتي تحمل كلمة «مايسترو».)

اهتزت عجلات العربة فوق بوابة الماشية، وعبرت بوابةً حديديةً مزدوجةً ضخمةً؛ فكان على كل بوابةٍ أناناس حجري منحوت بإتقانٍ. يا لها من ثمارٍ! لقد أمضت كلارا حياتها كلها لا تفكر في الأمر، بينما هي الآن عاجزة عنِ الفرار منه.

ظل روبرت صامتاً في أثناء قيادة العربة في الجادات الريفية، فكانت رجلاه ترتطمان بألواحها الخشبية، وهو ممسك بإحكامٍ بزمام الفرس كيتي التي نزلتِ التل، ودخلتِ القريةَ الصغيرةَ. مرا بأكواخٍ من طوبٍ أحمرَ، ومحلّ حدادةٍ فيه امرأتان بأوشحةٍ زرقاءَ تحذيان خيلاً. مرت كيتي بنساءٍ أخرياتٍ يتحدثن ويضحكن في أثناء رعايتهن حقل خنازيرَ ورديةٍ وسوداءَ، فكانتِ الرائحة المنبعثة من الحقل نفاذةً بحيث أجبرتِ كلارا على تكميم أنفها.

نظر إليها روبرت فابتسم.

كانت تمر بهم من حينٍ إلى آخر عربات متعثرة يقودها رجال بقبعاتٍ أنيقةٍ، وإلى جوارهم نساءٌ بمعاطف أنيقةٍ. لماذا لم يكن هؤلاء الرجال في الحرب؟ ما الذي يفعلونه للمساهمة في المجهود الحربي بينما على كلٍّ منهم أن يساهم في البناء بطوبته؟

ولمّا ضاقتِ الشوارع ودخلا المدينة، مرّا بكنيسةٍ تلمع نوافذها الزجاجية الملونة في الشمس، فأبطأ روبرت سرعة كيتي لإفساح المجال لجنازةٍ عسكريةٍ؛ أما كلارا فلم تستطع التحديق في عربة الجنازة الزجاجية، والتابوت الوحيد فيها، والذي لُفَّ بعلم المملكة كطردٍ. كانتِ الخيول السوداء المقيدة إلى العربات تركل الأرض بحوافرها كالمتوددة، وكان ستةٌ من الضباط قدِ اصطفوا خارج الكنيسة مطأطئي الرؤوس استعداداً لاستلام التابوت.

- لا بد أن معركة السوم خسارةٌ لهذا البلد. قال ضابطٌ لآخر بصوت عالٍ حين مرتِ السيارة من أمامهما.

وضع الضابط الواقف إلى جواره يده على ذراعه، وقال بوجلٍ:

- صه! لا يُسمح لنا بالتحدث عن مثل هذه الأشياء، يا هارولد. ثم رفع رأسه فرأى كلارا التي أشاحت عنه ببصرها وشبكت يديها في حِجرها؛ فوجودها في هذه المدينة محاطةً بإشاراتٍ على أن البلاد في حالة حربٍ تذكرها بمسقط رأسها في كينت. صحيح أن مؤشراتْ الحرب لا تزال جليةً في حوزة الكونت، إلا أن في مقدورها على الأقل الهروب إلى الدفيئات، ومنح رأسها المرهق قسطاً من الراحة.

همز روبرت الفرسَ كيتي همزةً قويةً باللجام فأسرعت أكثر، وابتعدت عن الجنازة متجاوزةً ممراً حجرياً ضخماً.

- تلك هي أبيغيت. قال روبرت ناظراً حيث تنظر كلارا نحو الممر المفضي إلى الحدائق المتسقة البعيدة التي يتجول الناس فيها متجهمرين في وجه الريح العاتية.

على الجانب الآخر، امرأةٌ تركض في منتصف الطريق، تطارد صبيين صغيرين

يعتمران قبعتين صوفيتين خشنتين، وقد لف أحدهما ساقيه حول حصانٍ قزمٍ كان قد عقد حول عنقه منديلاً أحمر، بينما الآخر يطارده ببندقية أطفال وهو يصرخ في وجه من يمتطي الحصان القزم: «بانغ ... بانغ! أنت ميتٌ.» وهما يضحكان سالكين شارعاً مرصوفاً بالحصى ينتهي بقمة تلٍّ.

حدقتِ كلارا في اللافتة. «شارع أبيغيت» الذي يقع فيه متجر صانع الإطارات، فتلمستِ بأطراف أصابعها البساط في جيبها متسائلةً عن وسيلةٍ للهروب من روبرت وزيارته، فنظرت إلى روبرت الذي كان ينظر إلى الأولاد الصغار. الاخوة الصغار.

- أين تقيم عائلتك يا روبرت؟ قالتِ كلارا مخفيةً أظفارها في كفيها.

- لا عائلة لدي. قال روبرت ملتفتاً نحو كلارا، قابضاً على اللجام، فكان وجهه خالياً من أية عاطفةٍ.

- أوه! أنا آسفةٌ ... ظننت ... قالتِ كلارا.

- لا يوجد من تأسفين من أجلهم. والداي قد ماتا. قال روبرت.

- إذن ... ليس لديك أي إخوةٍ أو أخواتٍ؟ قالت كلارا حابسةً أنفاسها إذِ انتفضت عضلة على صدغ روبرت.

- لا ... آسف، يا كلارا، ولكنها أشياءُ لا أطيق الحديثَ عنها. قال روبرت مستنشقاً الهواءَ، دافعاً نظارته إلى أعلى أنفه.

- أوه! أنا آسفةٌ. لم أقصد التطفل. قالتِ كلارا. كان روبرت يبذل قصارى جهده لحماية ويل، لكن قلقه حيال رعاية أخيه الأصغر بات يؤذيه.

امتد الصمت بينهما حتى ظنتِ كلارا أنه لن ينكسر، لولا أن قبضت يدا روبرت على زمام الفرس، فذكرتها مفاصل أصابعه بالجبال المغطاة بالثلوج. انعطفت كيتي عند إحدى الزوايا فأوشكت أن تصدم رجلاً عابراً مع كلبه الريفي، فصاح الرجل:

- هيه! احترس!

تجاهله روبرت، أما كلارا فعضت شفتها السفلى. كيف لها أن تجعل الأمور بينهما

أفضل؟ فقالت:

- إنك تبلي بلاءً حسناً؛ إذ تنظم هذه الفاكهة والخضروات لأجل المستشفى.

- إنها فكرة الكونت، لا فكرتي، فلا أستحق أن يُنسَب الفضلُ إليّ في ذلك. تمتم روبرت وقدِ احمرَّ خداه.

- نعم ... لكن السيدة جيلبرت قد عبّرت عن مدى فخرها بك، بعد ... خيبتك في ... قالتِ كلارا قبل أن تغلق فمها. ها هي ذي تعود إلى تطفلها مرةً أخرى.

فرك روبرت أنفه محمرَّ الوجنتين حتى سرى الاحمرار إلى عنقه كاحمرار الخدود الذي يسببه نبات القراص، ثم قال:

- الحقيقة يا كلارا - وستتعلمين هذا عندما تكبرين – أن المرء بطبيعته قادرٌ على تجاوز بعض خيباته، أما بعضها الآخرُ فقد يبقى معه إلى الأبد.

نظرتِ كلارا إلى روبرت للحظةٍ، ثم أشاحتِ النظر بعيداً.

الفصل الثالث والعشرون

(ملابش المستشفى)

- ها قد وصلنا. قال روبرت حين أوقف الفرس في شارعٍ محاذٍ لأبيغيت، فكان وجهه يبدو أكثر إشراقاً حين ترجّل من العربة، وربط زمامَ الفرس حول عمود إنارةٍ. «فتاةٌ جيدةٌ. لن نمكث طويلاً.» همس للفرس مداعباً غرفها.

كان اللبلاب قد غطى واجهة المستشفى المكون من ثلاثة طوابق، وتسلل من بعض النوافذ كذلك، أما علم المملكة والعلم ذو الصليب الأحمر فإنهما يرفرفان على السارية البيضاء، وهما علمان تعرفهما كلارا جيداً منذ بداية الحرب.

راح روبرت وكلارا يُفرغان صناديق الخضار، ويحملانها نحو المدخل، بينما يدخن بالقرب من البوابة رجلٌ بقميصٍ أزرقَ ذي أكمامٍ قصيرةٍ، وسروالٍ فضفاضٍ. كان متكئاً على عكازٍ خشبيٍّ وقد طوى ساق سرواله الأيمن عند الركبة بدقةٍ بعد أن فقد نصف ساقه السفلي.

ابتلعتِ كلارا رضابها، وسمّرت قدميها لتستريح وعيناها مثبتتان على مكان ساقه المقطوعة، ثم سمعت روبرت يختفي في الداخل. كان الصندوق الذي كانت تمسك به كلارا مائلاً فأسقطت على الرصيف اثنتين من الجزر الأبيض، وثلاثةً من الجزر الأحمر.

أسند الرجل ذو الساق الواحدة عكازه على الحائط، ثم وضع سجائره وأعواد الثقاب على حافة إناء زهورٍ قربه، وقال مشيراً إلى ملابسه:

- لا جيوب في ملابس المستشفى هذه. هل تتخيلين هذا؟

حدقتِ كلارا في زيه الغريب. لا جيوب فيه؟ كيف يُتوقع من امرئٍ أن يسافر يوماً من دون جيوب؟

- أرى أن لديك جيبين جيدين. قال الرجل مشيراً إلى ثوب كلارا بصوتٍ يشي بالحسد.

طأطأت رأسها، فلمحت أن نهاية المغلف الذي تلقته من وزارة الحرب كانت بارزةً؛ فلما همّت برفع رأسها، انحنى الرجل بحرجٍ لالتقاط الجزر الأبيض الساقط، فقالتِ كلارا عندما التقطها الرجل وأعادها إلى الصندوق بحذرٍ:

- أوه! لا عليك! لا حاجة إلى ذلك؛ فالأمر... لا يستحق كل هذا العناء ...

- من الجيد أن يكون المرء نافعاً. قال مبتسماً ابتسامةً صغيرةً لكلارا.

- نعم. هذا جيدٌ جداً. شكراً لك. قالتِ كلارا مبتسمةً.

ووقفت تنتظر أن ينحني مرةً أخرى لالتقاط الجزر.

خرج روبرت من البوابة فوقعت عيناه على الرجُل ثم على صندوق كلارا، فقال:

- يتوقع السيد جيلبرت عودتنا في غضون ساعةٍ.

أومأت له كلارا إيماءةً خفيفةً.

حمل الرجل عكازه وسجائره فرمقت عينا كلارا ساقه مرةً أخرى.

- إنها لا تؤلمني كثيراً إن كان هذا ما تفكرين به. قال بهدوءٍ متابعاً نظراتِها.

- أوه! لا ... أنا ... قالتِ كلارا وقد سرى وميضٌ ساخنٌ نحو عنقها.

- لا بأس في أن تكوني فضوليةً، بل إن مِن الأطباء هنا مَن يقول إن الحديث عن ذلك مفيد، وبما أني الآن بدأتُ الحديث عنها، فلا أستطيع التوقف. لقدِ انفصلت ساقي تماماً بانفجارٍ فأنقذتِ الممرضاتُ في فرنسا حياتي. إنهن ملائكةٌ حقيقياتٌ.

أهذا ما حدث لكريستوفر؟ أهذا ما جاء في رسالة وزارة الحرب؟ نظرتِ كلارا إلى الرجل فلم تره هو، بل تمثلت لها نُتوءُ ذقن كريستوفر، وشعرُه الذي يشبه شعر أبيهما، والذي يرفض تمسيده من دون دهنه؛ أما ساقه، فقد تكون موجودةً حتى الآن ... وقد لا تكون كذلك.

سمعتِ كلارا تمتمة روبرت حين مر إلى جوارها منحنيَ الظهر من ثقل الصناديق، فقال: «إنه الصندوق الأخير.»

كان الرجل لا يفتأ ينظر إليها كما لو يريد التحدث أكثر؛ ولكن لا بد لها من الذهاب لمساعدة روبرت، كما أن من الوقاحة أن تبتعد عنه بهذه البساطة.

تنحنحتِ كلارا، وقالت:

- أكان الأمر مروعاً إلى هذا الحد؟ أعني على الجبهة.» وراح الصندوق يؤذي ذراعيها فوضعته على الرصيف، واقتربت من الرجل.

- وهل من عائلتك من هو هنالك؟ قال الرجل بنظرةٍ عابسةٍ.

أومأتِ كلارا برأسها.

- الوضع هنالك أسوأ من مزاعم الصحف التي لا تقول الحقيقة كاملةً. لا يمكنك فهم الأمر إنْ لم تكوني هناك. قال الرجل متنحنحاً بعينين لامعتين.

- من فضلك. أود أن أعرف. قالتِ كلارا وهي تشبك يديها معاً.

- الخنادق هنالك كالمتاهة، أما القتال فيها فيكون في بعض الأحيان من الفظاعة ألا يجد المرء الوقتَ لدفن الموتى إلا فيها، ثم ينهمر المطر فتنهار جوانب الخنادق وتنهال منحسرةً عن أرجل الجنود وأذرعهم وعن جماجمهم أحياناً. قال الرجل بغُصةٍ كمن علقت تفاحةُ آدم في حلقه.

قبضت كلارا أصابع قدميها داخل حذائها محاولةً خنق انزعاجٍ بات في معدتها.

- الطين الأصفر ينتشر في كل مكانٍ فيملأ الأحذية والبنادق والمدافع، ويصيبك ببردٍ لا تتخلين برداً يضاهيه قساوةً. قال الرجل وهو يفرك رقبته: لكن الأصوات هي من صدمتني، فالهواء يعج بالقنابل وقذائف الهاون بحيث يبدو الأمر كما لو أن عشرة انفجاراتٍ تجتمع في انفجارٍ واحدٍ؛ أما بالنسبة إلى الروائح ...

- شارلي! قالت ممرضةٌ تعتمر قبعةً بيضاءَ ناعمةً وهي تطل برأسها من الباب الرئيس. «هل تزعج هذه الشابة؟»

- لا ... أبداً. على الإطلاق. ردتِ كلارا رغم أنها كانت سعيدةً إلى حدٍ ما بظهور

الممرضة، فقد باغتها خوضُ الرجل في كل هذه التفاصيل، فأخبرها في دقائقَ أكثر مما أخبرها والدها في أشهرٍ تلت عودته من الجبهة، وساقَ لذلك مسوغاً أنه لا يحب الخوض في تجاربه تلك. أفيكون هذا هو السبب؟

أرشدتِ الممرضةُ شارلي إلى الباب ملوحةً لكلارا.

- وداعاً وحظاً سعيداً. قالت كلارا.

تثنى خدا الرجل عنِ ابتسامةٍ عريضةٍ ملوّحاً كذلك قبل أن يختفي وراء الباب.

عادا إلى العربة والفرس بعدما تم إيداع جميع الخضروات في مخزن المطبخ، وقبّل الطباخُ ذو الوجه الوردي خدّي روبرت شاكراً إياه على كرم الكونت.

- لي في مكتب البريد مهماتٌ أقوم بها، ولا حاجة لحضوركِ معي. سأعود بعد عشر دقائقَ على أكثر تقديرٍ. قال روبرت ناظراً في ساعته.

ظلتِ الفرس كيتي واقفةً تجترّ برضىً بعض الجزر الأبيض الذي رماه لها روبرت.

- ألا يمكنني المشي إلى أبيغيت؟ ألا أبحث عن مخبزٍ أشتري منه كعكاً نتناوله في طريق عودتنا؟ سألتِ كلارا.

- هل تعرفين الطريق؟ قال روبرت عابساً.

فتشتِ كلارا في جيبها لتحسّس البساط المطويّ، وقالت: «أعرفه. إنه قاب قوسين أو أدنى، وسأعود من الطريق الذي جئنا منه ولن أتأخر عليك.

نظر روبرت إلى الفرس كيتي بقلقٍ، ثم أومأ لكلارا إيماءً سريعاً وجادّاً، وقال:

- حسناً، لكن إياكِ أن تخبري السيد جيلبرت بهذا؛ فقد وعدته ألا تغيبي عن ناظريّ.

- يمكنك أن تثق بي. قالتِ كلارا وهي تبتسم في وجهه.

استدارت عند نهاية الشارع، فرأت روبرت لا يزال واقفاً قرب كيتي يراقبها، ثم توقفت ونظرت خلفها مجدداً عند زاوية الشارع، فكان روبرت هذه المرة يسير في الاتجاه المعاكس بياقته العالية، وأكتافه المنحنية للأمام في مواجهة رياح الخريف

السريعة وزوابع الأوراق المتساقطة التي تتراقص في أعقابه.

الفصل الرابع والعشرون
(شارع أبيغيت)

كان متجر سمرز وأولاده لصناعة الإطارات يقع في منتصف الطريق المرصوف بالحصى، محشوراً بين مخبزٍ وصيدليةٍ امتلأت نافذتها بقواريرَ لسوائلَ ذاتِ ألوانٍ زاهيةٍ. تجاهلتِ كلارا جوعَها وقرقرةَ بطنها بسبب رائحةِ كعك تشيلسي المخبوز طازجاً والممزوج بالقرفة، لكنها نوت شراءَ ثلاثةٍ منها لتناولها عند العودة إلى المنزل: واحدةً لها ومثلها لكلٍّ من روبرت وويل. رن جرس ورشة صناعة الإطارات عندما دفعتِ كلارا الباب، فتقدمت ما بين مسيرٍ وعدوٍ متجاهلةً أنظارَ زبائنِ الظهيرة الفضوليةَ، ثم استجمعت أنفاسَها إذ وقفت عند المدخل فكانتِ الجدرانُ البنية غائبةً وراء مجموعة إطاراتٍ رقيقةٍ بحوافٍّ فضيةٍ، وأخرى خشبيةٍ بحجم نافذةٍ، وإطاراتٍ أخرى ذهبيةٍ فاخرةٍ أكثر شمكاً من الصور التي ستوضع فيها؛ فقالت كلارا بلهفةٍ: «مرحباً يا جدار الأحجيات المزدحم.»

كان صاحب المتجر الواقف خلف المنضدة يشرح لسيدةٍ بقبعةٍ زرقاءَ أنيقةٍ الفرقَ بين إطارين صغيرين بديا لكلارا متطابقين تماماً، كما بدا أن السيدة تعتقد ذلك أيضاً؛ إذ قالت إنها قد تعود الأسبوع المقبل فهي لا تستطع اتخاذ قرارٍ، فتنهد التاجر، ووضع الإطاراتِ تحت المنضدة، بينما غادرتِ السيدة متجاوزةً كلارا فرنت أجراس الباب لوداعٍ سريعٍ.

- كيف لي أن أساعدك؟ قال صاحب المتجر ناظراً إلى كلارا، فاهتز شارباه الأبيضان الشبيهان بشارب القطط عند حديثه مما ذكّر كلارا بالقطة بنبتون.

- لقد قمتُ بتأطير بساطٍ للسيدة جيلبرت. أعني عمتي. قالتِ كلارا مقتربةً من العداد.

- أفيه مشكلةٌ؟ قال صاحب المتجر مومئاً برأسه.

- لقد وقع حادثٌ ... فكُسر الإطار. قالت كلارا لاعقةً شفتها السفلى، ثم أخرجت من جيبها البساط المطوي ووضعته على المنضدة، ثم تراجعت تراقب وجه صاحب

المتجر وهو يتلمسه ويتفحصه.

- حسنٌ. إنها ثمرة أناناس فاتنةٌ جداً، ولكن ينبغي شدُّ البساط قبل تأطيره. قال.

- أوه! هل سيستغرق وقتاً طويلاً؟ سألتِ كلارا.

- يوماً أو يومين. هل تريدينه سريعاً؟

طأطأتِ كلارا رأسها ناظرة قِبلَ حذائها المبلل، ثم قالت: «أخشى أنه كذلك.»

- آه! فهمتُ. قال صاحب المتجر، فشخصتِ كلارا ببصرها فرأته يبتسم لها بودٍّ كما لو أنه فهم الحالة الطارئة تماماً، فأضاف: عندما كنتُ صغيراً كسرتُ لأبي الماسورةَ الفخارية المفضلة، وكان إلى جوارنا كانش مداخن، فكنتُ يومياً أحمل فرشاتَه بعد المدرسة حتى جمعتُ من المال ما يكفي لاستبدالها.

- أما أنا فلدي نقودٌ منحاها لي والداي لحالات الطوارئ. قالتِ كلارا.

- ممم! هل فعلوا ذلك حقاً؟ وهل تعتقدين أن الأمر قد يكون كذلك؟ سألها صاحب المتجر وهو يصقل شاربيه.

أومأت له كلارا إيماءةً صغيرةً.

أخرج صاحب المتجر دفتراً بنياً كبيراً من أسفل المنضدة، وقال:

- ألا تذكرين التاريخ الموجود خلف الإطار؟

- ١٩١٤ قالتِ كلارا بسرعةٍ.

- هل قلت لي إنه باسم جيلبرت؟ قال.

- السيدة اليزابيث جيلبرت. ردتِ كلارا قاضمةً إبهامها.

أوغل الرجل في البحث في دفتر الحسابات متنقلاً بسبابته بين الصفحات المكتوبة بخط يده المثالي، ثم قال مشيراً إلى إحدى الصفحات: ها نحن أولاء. نعم. لدي جميع مقاساته. لقد كان اختياره لخشب الكرز اختياراً موفقاً. أوه! كان ينبغي له

أن يكون على مقدمة الإطار نقش، لكن عمك غيّر رأيه.

- عمي؟ قالتِ كلارا مغضّنةً أنفها.

- نعم، فالسيد جيلبرت هو من طلب الإطار.

- ما الذي كان من المفترض أن يقوله النقش؟ قالتِ كلارا ممسكةً بالعداد.

- «السلامُ العميق للأرض الوادعة» قال الرجل محدقاً مبتلعاً ريقَه فاركاً فكه.

عبستِ كلارا إذ بدت لها العبارة كئيبةً نوعاً ما، ولكنها في الآن ذاته جميلةٌ إلى حدٍّ ما، فهي تنسجم كثيراً مع البساط الذي يصور الأناناس النامي في الأرض بسلامٍ. اعترتها رغبةٌ مفاجئةٌ بالعودة للقاء ويل في الدفيئات ذات الهواء الدافئ الهادئ اللطيف.

- هل تريدين نقش الكتابة على لوحٍ نحاسيٍّ؟ هذا سيكلف أكثر بقليلٍ، وأظن أن غلاءه هو ما جعل عمك يعدل عن فكرة النقش. سأل صاحب المتجر واضعاً قلمه على دفتر الحسابات.

«السلام العميق للأرض الوادعة»

- سيكون ذلك رائعاً؛ لكن عليّ أولاً أن أتحقق من أن لدي من المال ما يكفي لذلك. قالتِ كلارا وهي تُخرج محفظتها من جيبها، وتُفرغ محتوياتها على المنضدة.

أحصى صاحب المتجر النقودَ بسرعةٍ، ثم نظر إلى دفتر الحسابات مجدداً. حك ذقنه ثم أعاد نصف النقود لكلارا، وقال بحزمٍ:

- ما لديك يزيد عن الحاجة. هل أرسل الطردَ إلى كوخ البستاني؛ على عنوان ... السيدة جيلبرت؟

- نعم. من فضلك. قالتِ كلارا، وأعادتِ العملاتِ المتبقيةَ إلى حقيبتها فدستها في جيبها.

ثم التقطتِ القصاصةَ الورقية من بين النقود وسلمتها إليه، وقالت: «هل لك أن

تضعها خلف البساط، من فضلك؟»

أخذها صاحب المتجر ومنحها إيماءةً سريعةً كما لو كان معتاداً على سماع طلباتٍ بوضع قصاصاتٍ ورقيةٍ تحمل كلمة «مايسترو» خلف إطاراتِ بساطٍ بديلةٍ.

سارت نحو الباب، ثم توقفت واستدارت تراقب التاجر وهو يملس النسيج، فقالت:

- أليس لي أن أفترض إمكانيةَ انتهائك منه غداً؟ انظر؛ عمتي لا تعرف أني أحضرته إلى المدينة و ...

نظر صاحب المتجر للأعلى مبتسماً ابتسامةً أخرى أكثر حزناً وتوتراً بقليلٍ من الأولى بحيث لم تصل تجاعيدها إلى عينيه، فقال:

- لا توجد طلبات تأطيرٍ كثيرةً في الوقت الحالي بسبب الحرب؛ فلي ولدان اثنان في الجبهة، ولم أسمع أي أخبارٍ عنهما منذ فترةٍ. قد نتلقى بعض الرسائل، لكن معظم تفاصيلها تخضع للرقابة كما تعلمين.»

أومأتِ كلارا برأسها بعبوسٍ وهي تفكر في تأرجح لافتة المتجر في الخارج.

«سمرز وأبناؤه». تمنت بشدةٍ أن يعود له أبناؤه.

- سأرى ما يمكنني القيام به لتأطير هذا البساط بسرعةٍ. لن تقعي في مشكلةٍ. أليس كذلك؟ قال التاجر.

شكرته كلارا بابتسامةٍ، وألقت نظرةً أخيرةً على جدار الإطارات وهي في طريقها للخروج، فكانت متعجبةً من أن يكون السيد جيلبرت هو من طلب الإطار. لا بد أن السيدة جيلبرت التي خاطت البساط كانت تريد أن يكون لها رأيٌ في اختياره؛ لكنها قد تكون من ناحيةٍ أخرى مفاجأةً لها في عيد ميلادها أو في عيد رأس السنة. أياً كان السبب، كانتِ كلارا تأمل بصدقٍ أن يغفر دفعُها ثمنَ لوحة النقش النحاسية – وإن جزئياً على الأقل - اقتحامَها لغرفتهما، وكسرَها متاعاً نفيساً لا يخصها.

الفصل الخامس والعشرون

(طردٌ لويل)

بعد أن ساعدتِ كلارا صبيَّ الإسطبل في تنظيف العربة، وإرسال كيتي لترتاح في الإسطبل، مضتِ كلارا وروبرت عائدَين إلى الحدائق أسفلَ التل؛ فدفعتِ كلارا في فمها آخرَ قطعةٍ من كعكة تشيلسي حتى تألمت لثتها من حلاوتها السكرية.

قال روبرت وهو يلعق قطعةً من قشر الليمون عن إبهامه:

- شكراً على الكعكة يا كلارا.

ابتسمتِ كلارا. كان روبرت عكِرَ المزاج باهتاً عند عودتها من متجر صانع الإطارات إلا أن كتفيه استرخيا وبدأ في الحديث ما إن خرجا من المدينة، فكأنما عاد إلى الحياة وهو يتحدث عن ضعف محصول القمح لهذا العام، وخوفه من نقصٍ وشيكٍ في الغذاء واحتمال اللجوء إلى التقنين؛ ففكرتِ كلارا في حجرة المؤن الخاصة بآل جيلبرت المليئة بجرار المربى والمخللات والصلصات. ربما عليها أن تطلب أخذ بعضها إلى المنزل ... إن عادت إلى المنزل أصلاً ...

بعد مغادرة روبرت مع السيد جيلبرت خارج الكوخ، فتحتِ كلارا باب المنزل فإذا برسالةٍ من السيدة جيلبرت ملقاةٍ على خزانةٍ جانبيةٍ تقول فيها إنها ستتأخر في عملها في البيت الكبير. إنها فرصةٌ لا يمكن لكلارا تفويتها.

أثقلتِ الكعكة معدةَ كلارا حين صعدت إلى الطابق العلوي والتقطت مفتاح الغرفة المغلقة خلف سرير آل جيلبرت. لا ينبغي لها اقتحام غرفة السيد والسيدة جيلبرت مرةً أخرى، ولا جدال في أنه لا ينبغي لها أن تلتقط المفاتيح وتفتح الباب وتقرأ رسائل لا تخصها؛ ولكن ماذا لو وصلت رسائلُ أخرى، رسائلُ تخصها؟ إنها في الكوخ منذ أكثر من أسبوعٍ ولم تسمع من والدتها خبراً ولا رداً على رسائلها التي كتبتها لها وطلبت من السيدة جيلبرت تولّي إرسالها. مضتِ كلارا نحو المكتب، وتناولت مغلفاً من أعلى الكومة، فكان من دون اسمٍ أو عنوانٍ كسابقه. أهي الرسالة ذاتها التي قرأتها سابقاً، أم لعلها أخرى جديدةٌ؟ أخرجت الورقة وبدأت في القراءة:

أكتوبر 1916

أعز عزيزٍ

الوقت يمضي حثيثاً، وقد باتتِ الأيام أقصر، أما ألفريد فقدِ انهمك في الحدائق هوساً بها، فتراه في الغالب يبدأ العمل بمجرفته ومذراته من قبل شروق الشمس فلا يعود إلى المنزل إلى أن يحين آنُ الشاي، فنجلس إلى جوار النار فلا نكاد نتحدث إذ نحدق في النيران، وأنا متأكدةٌ أن كلينا راغبٌ في شيءٍ واحدٍ هو ... أن يكون حراً. أواهِ لو أسمع ضحكتك! يا لها من فرحةٍ ستغمرني. آهِ لو أنَ لي أن أراك الليلة بعد أن أتسلل إلى الحدائق والجميعُ نيام! سأكون في انتظارك كالمعتاد بالقرب من منزل الأناناس المفضل لدينا.»

مُحبتُك ليزي

حدقتِ كلارا في الكلمات فأرادت لو أنها تكشف طلاسم أسرارِها. لقدِ اعترفتِ السيدة جيلبرت في رسالتها بأنها تسللت إلى الحدائق وزارتِ الدفيئاتِ، فهل يمكن أن تَصدُق نظرية ويل القائلة أن آل جيلبرت يسرقان الأناناس حتى لو لم ترغب كلارا في تصديق ذلك؟ أليس من الغريب كذلك ألا تؤرخ السيدة جيلبرت رسائلها؟ وهل كانت لديها أية نيةٍ بإرسالها وتسليمها؟ أعادتِ الرسالة إلى مغلفها بحذرٍ، وأعادتها مرةً أخرى لأعلى الكومة فتأكدت من إمالتها قليلا كما وجدتها تماماً.

***

غدا وجه ويل في ذلك المساء أكثرَ شحوباً من ذي قبل، وكانت عيناه حمراوين حين وافته كلارا إلى غرفة المرجل، فقال بصوتٍ متصدعٍ خفيضٍ: «جاء روبرت لرؤيتي.» والتقط قطعة فحمٍ فألقى بها غرضَ الحائط فانقسمت إلى قطعٍ صغيرةٍ.

بدا لسان كلارا أكبر من أن يتسع له فمُها. أثراها أثارت شكوك روبرت بسؤالها إياه عن عائلته عند ذهابهما إلى المدينة آنفاً؟

- لقد أعاد فوج والدي زيه العسكري ومتعلقاتِه الشخصية. وانهار ويل على الملاءة إلى جوار كلارا.

- أوه! قالت كلارا، وسلمته الكعكة التي اشترتها من المدينة فلم ينظر إلى ما بداخل الكيس الورقي، بل وضعه على الملاءة المجاورة، راحتِ كلارا تخدش الجلد من حول إبهامها. أكان هذا سببَ انقباض خدي روبرت وشحوبهما حينها؟ لا بد أنه استلم متاع والدهما من مكتب البريد. «ما الذي ستفعلانه بمتاعه؟» سألته ضامةً ركبتيها إلى صدرها؛ فرغم حرارة الفرن إلا أن البرد تسرب إلى عظامها حتى جعلها ترتجف.

- «أعتقد ...» قال ثم صمت. «نرى أنا وروبرت أن ندفنها.»

لفظ المرجل اللهبَ وهسهس.

استدارتِ كلارا نحو ويل متفاجئةً متذكّرةً الجنازة التي شاهدتها في المدينة في وقتٍ سابقٍ من ذلك اليوم، فقالت:

- في مقبرةٍ؟

- لا، ذلك ممنوعٌ.. قال ويل ممتعضاً.

- فأين إذاً؟ قالت.

- كنتُ قد جئتُ أنا وأبي لزيارة روبرت بعد فترةٍ وجيزةٍ من بدء عمله هنا. كان ذلك في فصل الربيع إذ تغص الأشجارُ بزقزقة الطيور، وتنبعث من الأرض أضواء المصابيح، فكان كل شيءٍ عذباً وجديداً كلوحةٍ أُنجزت للتو.

أحستِ كلارا بوجعٍ في حلقها لِما سمعت منه آنفاً من فقدانه لأبيه، وما قد تكون عليه حالُ أخيها، وما إن كانت شجاعةً بما يكفي لمواجهة النائبات.

جر ويل من ورائه طرداً بحجم وسادةٍ ملفوفاً في ورقٍ بنيٍ وخيطٍ فوضعه في حجره واشتقه، وسألها: «هل تريدين أن تري ما فيه؟»

شعرتِ كلارا أنها أومأت له برأسها، وكبُر الألم في بطنها ككرة الثلج. لم تكنِ كلارا تعرف ما الذي تخيلته، لكنه لم يكن متعلقاً بإرسال متعلقات والدهما في طردٍ عاديٍ بالبريد. ألم يكن يستحق عزفَ أبواقٍ وموكباً وعرفاناً أكثر ملاءمةً لتضحيته بحياته

في سبيل بلاده،لا مجرد طردِ ملفوفٍ بورقٍ بنيٍّ؟

فلّ ويل الخيط وأزاح الورق كاشفاً عنِ الزي الأخضر الزيتي الشبيه بزي أبيها وزي كريستوفر حين غادر المنزل سائراً في الشارع بفخرٍ وظهرٍ مستقيمٍ وعينين بارقتين جاهزتين لمغامراتٍ قادمةٍ، فلمّا فتح ويل القماش أخذتِ كلارا نفساً عميقاً، فكانت ذراع السترة اليسرى مقطوعةً تقريباً، وقد غطتِ الكتفَ بقعةُ دمٍ بنيةٌ داكنةٌ. كان ويل قد أخبرها أن البرقية التي أبلغتهم فيها بوفاة والدهما قالت إنه قضى نَحبَه سريعاً بلا ألمٍ، ولكن كيف لأيٍّ كان أن يموت في معركةٍ بلا ألمٍ؟ حامت موجة دوارٍ فوق رأس كلارا حين فرد ويل المعطف قرب وجهها، ثم اشتمّه بعمقٍ وقال بصوتٍ خافتٍ:

- رائحتها ... عفنةٌ ... لا كرائحته.

وضعتِ كلارا يدها على ذراع ويل، والدموع تحرق حلقها.

- ماذا سيحدثُ لنا عندما نموت في رأيك؟ سأل ويل بهدوءٍ.

سحبت كلارا يدها بعيداً، وأغلقت عينيها لثانيةٍ شاعرةً أن الغرفة تدور بها كدوامةٍ في مهرجان المدينة، وحين فتحتهما مجدداً كان أول شيءٍ رأته هو دفتر ملاحظات ويل مفتوحاً، فالتقطته وطفقت تتبع بإصبعها رسماً لأناناسٍ ذي تفاصيلَ تكاد تُرى فيها الأشواك ومسام اللحاء، فأخذت نفساً عميقاً تواسي به نفسَها، وقالت ببطءٍ:

- أعتقد أن الأمر أشبهُ ... بالسقوط في فجوات صورٍ في صفحةٍ؛ فجواتٍ لم تعد متوافرةً.

ضغط ويل السترة على خده، وقال: «أحببتُ ذلك» فكان وجهه محمراً وعيناه دامعتين، فتشممها ونظر إلى السقف.

- لا ريب أن والدك كان ليفخر بك يا ويل. قالتِ كلارا بهدوءٍ.

- أتظنين ذلك؟

- رسوماتك للحدائق، وخططك للمستقبل. كان سيود لو أنه يسمع عنها. قالتِ كلارا مومئةً برأسها.

عبرت موجةٌ من خجلٍ وجهَ ويل، لكن ابتسامةً صغيرةً غضنت زوايا فمه أيضاً، فقال:

- هل ... تأتين معي الليلة لدفن زي أبي؟

- وماذا عن روبرت؟ قالتِ كلارا عابسةً.

- لن يأتي. لقد أخبرني أنه لا يستطيع تحمّل الأمر. رد ويل بشفتيه الرقيقتين.

- لكنه ... أخوك.

- يجد صعوبةً في ... تقبّل مثل هذه الأشياء. هز رأسه.

فركتِ كلارا بقعة من الفحم عن مئزرها، وتذكرت حديثها مع روبرت بينما الفرس والعربة مندفعان نحو المدينة. لقد وجد الأمر صعباً وفق ما رأت؛ لكن إحجامه عنِ الوجود مع أخيه في مثل هذا الوقت العصيب أمرٌ يصعب فهمه.

حزم ويل الزي الرسمي بعنايةٍ، وقال بحزنٍ:

- أعلم أنك تجدين الأمر صعباً أيضاً يا كلارا، ولكن عليك أن تفتحي رسالة وزارة الحرب، فلا شيءَ أكثرُ فظاعةً من عدم معرفة الحقيقة.

ضمتِ كلارا شفتيها معاً، والتقطت من الأرض قطعة فحم ساقطةٍ وضغطت عليها في يدها. كان ويل على حقٍّ. عليها أن تستجمع شجاعتها وتفتح الرسالة، ولكنها تتوقع أن تتصل أمها بالسيدة جيلبرت في الغد، وقد ترسل طلباً بإعادة كلارا إلى المنزل فتستطيع دس الرسالة بين أصابع أمها من دون أن تضطر إلى اتخاذ أية قراراتٍ.

الفصل السادس والعشرون
(التحلي بالشجاعة)

انتصف الليل واكتمل البدر تقريباً في كبد سماءٍ صافيةٍ ذاتِ بردٍ، وبدا صوت إطلاق النار أقرب من المعتاد. أحكمتِ كلارا شدّ شالها حول كتفيها إذِ ارتجفت، ثم قالت همساً لويل: - هل أنت متأكدٌ أن الفوج لا يتدرب في الغابة؟ بدت فكرة المغامرة خارج الحدائق بينما الجنودُ يطلقون نيران بنادقهم فكرةً حمقاءَ إلى حدٍّ ما.

- لن يكونوا في الجزء الذي سنذهب إليه على الأقل. أجاب ويل ضاماً إلى صدره طردَ متعلقاتِ أبيه.

وبينما هما يدوران حول الحديقة للوصول إلى بابٍ في الجدار الشرقي المؤدي إلى الغابة، كانتِ المجرفة التي تحملها كلارا ترتطم بساقيها فيؤلمانها جداً. دفع ويل الباب وأشار إلى كلارا أن تمضيَ، فلما تقدمت للأمام، غاص حذاؤها الأيمن في شيءٍ هشٍّ (لم يكن كالعشب على الإطلاق)، فانحنت واحتبست أنفاسها في حلقها حين رأت ذلك الشيء. كانت برتقالةً عُصرت تحت حذائها.

- يا إلهي! انظر. همست لويل بينما هي تلتقط لبها فانسابت قطرةٌ من عصيرها على معصمها، ولما نهضت لاحظت تمثالَي كيوبيد حجريين صغيرين على قاعدةٍ، فكان كل واحدٍ منهما على جانبٍ من جانبَي الباب. كان الكيوبيد الأول خالي الوفاض، أما الثاني ففي يده اليمنى برتقالةٌ أخرى؛ فلعلّ البرتقالة الأولى التي داستها كانت في يد التمثال الأول فأسقطتها الريح.

لم يَرد ويل، بلِ اكتفى بمعانقة طرد أبيه ناظراً نحو الثمار، بينما أعادتِ كلارا البرتقالة المسحوقة بعنايةٍ إلى المكان الذي سقطت منه، وطفقت تمسح أصابعها بمئزرها، فلم يكنِ الوقتُ مناسباً للتساؤل عن سبب ترك هذه الفاكهة عمداً في الحدائق، وقد كانت متأكدةً من أنها كذلك. الوقتُ الآن لمساعدة ويل.

لم ينبس أيٌّ منهما بحرفٍ، بينما كانت أقدامهما تكسر الأغصان، وتجوس بين نباتات القراص، وتراوغ بين العليق.

- هنا. قال ويل بعد أن أحصتِ كلارا أنهما مرا بستٌ وسبعين شجرةً من مختلف الأحجام والأشكال. كانت أنفاسهما تتبخر من شفاههما وهما يقفان في مساحةٍ صغيرةٍ، بينما جذوع الأشجار جاثمةٌ على الأرض كأقدام العمالقة. أسندتِ كلارا المجرفةَ إلى أحد الجذوع المغمورة بالأشنيات، بينما وضع ويل الطرد عند جذعٍ آخر ثم التقط المجرفة.

- ها هنا تنمو في الربيع زهورُ اللبن الثلجية والزعفران اللذان كان أبي مغرماً بهما جداً. قال ويل.

تسلل ثعبان هواءٍ باردٍ من ياقة معطف كلارا، فدفعت عنها صورةَ الخريف جانباً، وتخيلت بدلاً منه أن الشمس تتسلل بين الأشجار فتنبعث من الأرض رائحة التراب تحت البراعم الخضراء الناميات، فتُبعث فيها الحياة من جديدٍ.

بدأ ويل الحفر وجرف الأوساخ عن كتفه، ثم توقف وخلع سترته ومسح جبينه، وعاوده السعالُ يهز صدرَه فأخذتِ كلارا منه السترةَ وطوتها على ذراعها.

كانتِ الحفرة التي يحفرها ويل تزداد عمقاً فباتت كبيرةً بما يكفي لاحتضان الطرد، بينما راحت حباتُ العرق تنساب على وجهه، فسعل مرةً أخرى ومسح أنفه بظاهر يده.

دوى صدى نيران البنادق من بعيدٍ بين الأشجار، فأيقنتِ كلارا أنّ ويل كان محقاً إذ قال إن الفوج سيتدرب الليلةَ في جزءٍ آخر من الغابة، إلا أنّ الانفجاراتِ المتقطعةَ لا تزال تجفف فمها، وتشنج قبضتها. هل كانت هذه الأصوات كالأصوات التي سمعها والد ويل عند وفاته، أوِ التي اعتاد والدُها وشقيقها على سماعها؟ بذلت قصارى جهدها لدفع هذه الأفكار بعيداً، ثم همست: «أعتقد أنها باتت كبيرةً بما يكفي يا ويل.» لكن طقطقة المعدن في التراب، وصوتَ أنفاس ويل المتعبِ أغرقت كلماتها.

زمجر ويل، وحثى الأوساخ عن كتفه بينما الحفرة تكبر.

اتخذتِ كلارا خطوةً إلى الأمام، ثم قالت بصوتٍ أعلى هذه المرة: «هذا كافٍ يا ويل!»

واصل ويل حفر الحفرة إلى أن ابتلعت كومة التراب ساقيه فبدا كنصف إنسانٍ فقط.

- «ويل!» قالت كلارا بحزمٍ.

توقف ويل ثم ألقى نظرةً على كلارا كمن نسي أنها معه، ثم قال بصوتٍ مخنوقٍ: «نعم.» ونظر بعدها إلى الحفرة والطرد فأضاف: «من الأفضل أن تعطيني إياه.»

أخذت كلارا الطرد بعنايةٍ وناولته إياه.

ضمه ويل إلى صدره مرةً أخرى، ثم انحنى وشمه بعمقٍ، فهز صدرَه سعالٌ شديدٌ.

فكرتِ كلارا أن روبرت قد قصّر في تخلفه عن مساعدة أخيه، فما كان ينبغي له أن يفعل ذلك بمفرده، لكن روبرت لم يكن معه، أما هي فكانت. تقدمتِ كلارا إلى الأمام وحذاؤها يغوص في الأرض، فمدت يديها ليدي ويل بلطفٍ شديدٍ، ووجّهتِ الطرد نحو الحفرة، ثم جلسا القرفصاء متجاورين بينما لا تزال أيديهما متشابكةً، كانت أصابع ويل باردةً مغطاةً بالطين؛ لكن كلارا لم تأبه لذلك. دستِ الطرد في الحفرة إلى أنِ اتسخت بالطين أظفارها وأصابعها ويداها؛ ثم همست: «وداعاً.»

بدأ ويل يرتعش كما لو أن هنالك من يمسك بجسده ويهزه بقوةٍ. مسح أنفه مرةً أخرى ثم قفز وبدأ بردم الطرد بالتراب إلى أنِ اختفت كل آثار ورقه البني.

تحاملتِ كلارا على إبقاء عينيها مثبتتين على وجه ويل الشاحب، رغم أن جزءاً صغيراً منها أراد الابتعاد والهرب من الغابة والزي المدفون الملطخ بالدماء والدموع التي تنهمر على خديها.

وتم الأمر، ورمى ويل المجرفة على الأرض، ولف جسده بذراعيه منحنياً إلى الأمام كما لو أن خاصرته تؤلمه.

لفتِ كلارا جسدها بذراعيها. إن تسلق الجبال المغطاة بالثلوج، والطيران في الهواء فوق العالم بمنطادٍ يعمل بالهواء الساخن هي أشياءٌ تتطلب قدراً ونمطاً معيناً من الشجاعة، غير أن هذه الشجاعة كانت من نوعٍ مختلفٍ؛ نوعٍ لم تعهده كلارا من قبل،

وتمنت ألا تراه مرة أخرى أبداً.

الفصل السابع والعشرون

(السلة)

اكتوبر 1916

أعزّ عزيزٍ

هل تذكر أول مرةٍ تذوقتَ فيها ثمرة أناناس محليٍ من الدفيئة؟ كم كان لبها الأصفر حلواً ومختلفاً تماماً عنِ الأناناس المستورد الذي يصل إلى أرصفة لندن مالحاً وحامضاً! كانتِ البهجة جليةً في وجهك!

أنا الآن أحتاج إلى جهد أكبر للاستيقاظ صباحاً. أفكر فيك وأنا أعمل وأوجّه الخادمات في المطبخ إلى تزويد المواقد لإشعال النار في البيت الكبير. لا أشعر برغبةٍ في تنظيف منزلي، وقد ذكر لي ألفريد أكثر من مرةٍ خيوطَ العنكبوت الخشنة المعلقة في زواياه، وكراتِ الغبار المنجرفةَ تحت السرير كالفئران الصامتة. أعتقد أنه موسوَس مرتابٌ، لكني لا أهتم. كل ما أريده هو أن نكون معاً يا عزيزي.»

مُحبتك: ليزي

أدخلتِ كلارا الرسالة في الظرف، لكن الأمر بدا كما لو أن الرسائل كانت مغناطيساً يجذبها إلى الغرفة لقراءتها رغم مخاطر ذلك ومحاذيره. لا ريب أن السيدة جيلبرت كانت في الغرفة تكتب رسائلها السرية حين كانتِ كلارا تساعد ويل في دفن متعلقات والده الليلةَ الماضيةَ، ولذا قامتِ كلارا بفحص كل دُرجٍ مرةً أخرى بحثاً عن رسائلَ من أمها، لكنها لم تجد شيئاً.

أغلقتِ كلارا الباب، وأعادت المفتاح إلى غرفة آل جيلبرت، ثم هرعت على الدَرج تجتاز درجتين في كل خطوةٍ، فلما فتحتِ البابَ المؤدي إلى الحدائق، استنشقت نسيمَ الظهيرة الخريفي الباكر فكان أرقَّ وأبردَ من ذي قبل، ثم نزلتِ المنحدرَ بسرعةٍ قاصدةً غرفة المرجل متسائلةً عما يفعله ويل. أكان نائماً؟ أم أنه يُلقم المرجل؟ أم يرسم في دفتر ملاحظاته؟ كانت نبرةُ حديثه عنِ الأناناس والدفيئات الزراعية بالغةَ الرقة كما لو أنها عائلته. ربما أصبحت كذلك الآن على كل حالٍ.

كان السيد جيلبرت يتحدث إلى روبرت تحت أشجار التفاح مشيراً إلى الدفيئات؛ فراوغتِ كلارا مندسةً ما بين الأشجار حتى باتت قريبةً بما يكفي لسماع ما يقولان:

- هل قلتَ إنهما اثنتان؟ قال روبرت.

- نعم، وعشرات الدراق أيضاً، والكونت يريد تدخل الشرطة. قال جيلبرت بحزمٍ.

- لا داعيَ لذلك الآن. كنتُ أراقب، وسأكون مستيقظاً الليلة لأحاول القبض عليهم. ربما سيحاولون مرةً أخرى. قال روبرت بسرعةٍ.

- هل أنت متأكدٌ من هذه النقطة؟ سأل السيد جيلبرت باقتضابٍ.

- لست ... أفهم ما تعنيه. قال روبرت.

- هل كنتَ تراقب الدفيئاتِ حقاً؟ قيل لي إنك في الليلة الماضية أويت إلى فراشك باكراً وكنت تشخرا!

حامت ذبابةٌ حول رأس كلارا فهشّتها بعيداً.

- إن العمل في الحدائق متعبٌ. قال روبرت أخيراً بصوتٍ رقيقٍ مشوبٍ بالشعور بالذنب.

- طبعاً، يا ولدي. نحن في حربٍ تدور بنا رحاها، وهذا يتطلب من كلّ فردٍ فينا مزيداً من العمل، ناهيك عن أن هنالك لصاً ينهب دفيئات الكونت. قال السيد جيلبرت بامتعاضٍ.

- أنا آسفٌ ...

كانت ساقا كلارا رخوةً كالهلام؛ فقد نُهبت ثمارٌ أخرى، وذلك لمّا لم يكونا يراقبان. كان ويل بعد عودته من الغابة أمس يرتجف فتتعثر قدماه بكل فرعٍ وكل شجيرةٍ، فأقنعته كلارا بالعودة للنوم في غرفة المرجل بدلاً من الوقوف لحراسة الدفيئة.

كانتِ كلارا منهكةً متعبةً كذلك تعباً غريباً أثقل أطرافها، وألجأها كالمنهارة إلى السرير فورَ عودتها إلى غرفتها، فالتقمها فمُ النوم ما إن لامس رأسها الوسادة؛

وتركتِ النافذةَ مفتوحةً كعادتها، إلا أن شيئاً أو أحداً لم يوقظاها، فلا كوابيسَ، ولا صريرَ لباب الدفيئة، ولا خطىً في العشب، ولا أصواتٌ يحملها متنُ النسيم. كانتِ كلارا تريد التحدث إلى ويل.

وضعتْ يدها على جذع شجرة تفاحٍ متشابكٍ، وخدّها على لحائه الخشن.

- لقد وعدتُ الفوجَ بسلة تفاحٍ؛ فهل يمكنك أخذها لهم؟ قال السيد جيلبرت وهو يلتقط تفاحتين ليضعهما في سلةٍ يدويةٍ.

- هنالك الكثير من العمل هنا كما قلتَ لي. أجاب روبرت بصوتٍ متقطعٍ.

كانت هنالك وقفة قصيرة، اختار السيد جيلبرت بعدها تفاحةً أخرى ووضعها في سلة اليد، وأضاف: «الجيش كذلك ملزم بالكثير لضمان سلامتنا.»

ركل روبرت تفاحةً سقطت بمقدمة حذائه فتحطمت قطعاً عدةً، فالتقط السيد جيلبرت مجرفته، ووضعها على كتفه، ويمم نحو الجانب الآخر من الحدائق.

مرت فكرةٌ غلت في رأس كلارا. كومةٌ من سلالِ خيزرانٍ تتكئ على جدار القرميد القريب. ابتعدتِ كلارا عن الشجرة، وتقدمت ملتقطةً واحدةً من تلك السلال حول ذراعها بينما كان النسيم يتلاعب بالأوراق فوق رأسها فتتمايل أشجارُ التفاح وتعود، وروبرت ينظر إليها فتجاهلته ووصلتْ إلى غصنٍ منخفضٍ يحمل تفاحة وردية، فلوتِ الغصنَ وقطفتها ووضعتها في السلة، ثم واصلت ليّ الأغصان وقطف الثمار حتى امتلأت نصفُ سلتها.

تقدم روبرت نحوها ثم ألقى نظرةً خاطفةً على السلة وقال متكئاً على الأشجار:

- إنك تحسنين اختيار الفاكهة هنا. كانت عيناه زهريتي اللون، وشفته العليا مطرزةً بالعرق.

- خِلتُ أنك قد تحتاج إلى بعض المساعدة.

- هنالك الكثير من العمل هنا؛ بل يكون أحياناً أكثر من اللازم. قال روبرت وهو يخلع نظارته، ويُخرج من جيبه منديلاً يستنثر فيه، ثم يمسح به وجهه.

شنجت موجةُ وذ فك كلارا. يا لروبرت المسكين! إن السيد جيلبرت يرهقه في العمل، فضلاً عن كل ما يساوره من قلقٍ حيال إخفاء ويل وإيجاد مكانٍ يعيش فيه. لا بد أنه كان متعباً للغاية:

- يمكنني مساعدتك ... هل تريد مني التقاط المزيد من التفاح؟ قالتِ كلارا.

وضع روبرت منديله في جيبه، ونظر إلى السيد جيلبرتِ الذي كان يحرث حوضاً زراعياً على طول الجدار الخلفي، فقال:

- عليّ نقلُ بعض التفاح إلى معسكر الفوج.

قالت كلارا بلهفةٍ أكثر مما ينبغي:

- يمكنني تولي ذلك. وأضافت متجاهلةً: ليس لدي شيء آخر أفعله.

- سيكون ذلك مفيداً. عليّ تحضير عربة خضرواتٍ أخرى للمستشفى فضلاً عن رعاية الكراث. ساعات اليوم كلُّها لا تكاد تكون كافيةً. قال روبرت وهو يحك ذقنه.

- الحق معك؛ ولكن لا تقلق. سآخذ التفاح وسأعود قبل أن يرتد إليك طرفك. ردتِ كلارا وهي تغرس حذاءها في العشب.

- تبدين نافعةً حقاً. أليس كذلك؟ قال روبرت بتفكرٍ.

شعرتِ كلارا أن نظرته إليها كانت كلسع خنفساء تمشي فوق ذراعها؛ بيد أن إثارة شكوكه ليس في صالحها، ولذا أرغمت شفتيها على ابتسامةٍ بهيجةٍ لتدفع عن كاهلها قلقاً كان يغمرها. إن نقلها للتفاح إلى الفوج سيعين روبرت، لكنها (وفي ذلك بعضُ الأنانية منها ربما) كانت تأمل أن يساعدها ذلك أكثر.

عندما علم ويل بسرقة المزيد من الفاكهة، حرِص على استحضار نظريته القائلة أن السيدة جيلبرت كانتِ اللصّ، ولما تحدث بهذه الطريقة، تغير صوته فبات أكثر قسوةً مما أثار صداع كلارا التي إن تمكنت من الوصول إلى معسكر الفوج، فربما تتمكن من العثور على الجندي توماس، وسؤاله عما كان في السلة التي أعطته إياها السيدة جيلبرت. كانت متأكدةً من أن السيدة جيلبرت بريئةٌ من نهب الأناناس رغم عدم

انسجامها مع عمتها على النحو المنشود، لكن الأهم هو إثبات هذه الفكرة لويل كي يتمكنا من التركيز على العثور على الجاني الحقيقي.

الفصل الثامن والعشرون
(قضيةٌ مروعةٌ)

كانت الأشجار تئن وتتمتم في مهب الريح العاتية، فتتراقص بقعٌ من ضوء الشمس وتنسلّ بين فروعها المودعةِ أوراقَها لسنةٍ مقبلةٍ، وكانتِ الغربان تتهادى في السماء كمناديلَ سوداءَ تَرشحُ أصداءَ نعيبها بمرورها عبر الغابة نحو الحقول. على بوابة مزرعةٍ يجلس رجلان يتأرجحان ذهاباً وإياباً، ثم توقفا عند رؤية كلارا فرفع أحدهما يده تحيةً لها، وحينما دنت منهما، داست أعقاب سجائرَ ملقاةٍ إلى جوار آثار أحذيةٍ ثقيلةٍ.

كانت خيام الفوج تصطف كملاءاتٍ على حبال غسيلٍ، أما الملابس والجوارب والملابس الداخلية الرجالية فتتدلى من حبال الخيام أمام كلارا التي أرادت أن تنظر في الاتجاهِ المعاكس. أمام الخيام قرب الغابة طاولةٌ طويلةٌ حولها صفان من المقاعد، وعلى يمين تلك الطاولة خيمةٌ أخرى أكبرُ حجماً تتصاعد منها دوامة دخانٍ.

تقدم أحد الرجال من الحاجز مقترباً منها، وهو يمضغ علكاً فوق العشب، فقال:

- مرحباً بك. ماذا لديك هنا؟

نظرتِ كلارا إلى سرواله الأخضر الزيتوني وسترته المنسدلة فشعرت بنبضها يتسارع إذ كان زيه كزي كريستوفر. وضعتِ السلة على الأرض ودلكت ذراعها المتألمة، وقالت: - تفاحٌ ... للـ ... طبخ ... من كبير البستانيين.

- خيمة الإطعام هناك. قال الجندي بابتسامةٍ ودودةٍ مشيراً إلى الدخان المتصاعد. «تبدو تفاحاتٍ جيدةً.» ومد يده إلى السلة ملتقطاً تفاحةً فركها بكمه قبل أن يأخذ منها قضمةً كبيرةً، ثم قال بفمٍ مملوء: نحن نقدّر صنيعَ الكونت معنا، فالطعام حاجةٌ وضرورةٌ ملحّةٌ لنا.

التقطتِ كلارا السلة، ونظرت إلى الخيام الأخرى، وقالت:

- أنا أيضاً أبحث عن ... توماس.

- أيُّ توماس تعنين؟ هناك الكثير ممن يحملون اسمَ توماس هنا.

- الطويلُ منهم ... ذا الشاربين. قالتِ كلارا.

- آه! نعم ... وماذا تريدين منه؟ سأل الجندي باستخفافٍ.

شعرتِ كلارا باحمرارٍ يزحف من رقبتها إلى خديها.

- أهي رسالةٌ من إليزابيث؟ سألها الجندي.

حدقت كلارا في وجهه حينما رأت عِلمه بأن توماس يلتقي عمتها. كانت أبواب الخيام ترفرف كالآذان المتلهفة.

قضم الجندي قطعةً أخرى من التفاحة، وراح يمضغها ببطء، ثم قال:

- يمكنك تسليمي الرسالة إن أحببتِ، ثم أتولى إخباره عندما يعود من التدريب.

- ممم! همهمتِ كلارا وهي تفكر، ثم قالت:

- لا عليك. من الأفضل أن أوصل ذلك التفاح وأعود إلى المنزل، فالسيد جيلبرت ينتظرني.

ضاقت عينا الجندي وأومأ، ثم قال:

- إنه لأمرٌ محزنٌ وقضيةٌ مروعةٌ. آمل أن يتمكنوا من حلها قبل أن نذهب إلى الجبهة.

تحدث الجندي بالألغاز. ما القضية المروعة التي كان يتحدث عنها؟ سجلتِ كلارا المعلومات في دماغها لاستعادتها ومراجعتها لاحقاً، ثم تجاوزتِ الجنديَّ متوجهة نحو خيمة الطعام.

- «مرحباً. هل يوجد أحدٌ هنا؟» قالتِ كلارا وهي تطل بحذرٍ من تحت غطاء الخيمة الخالية من الناس، المملوءة بالبقالة. كانتِ الطاولة المزدوجة مثقلةً بالخبز وعلب الصفيح، أما الطاولة الأخرى فكُدست عليها أطباق معدنية وأكوابٌ وأدواتُ طبخٍ.

لفت انتباهها شيءٌ ما قابعٌ تحت الطاولة الأولى: إنها سلةٌ؛ بل السلة ذاتُها التي كانتِ السيدة جيلبرت تحملها، وكانت مغطاةً بالقماش ذاته، فشهقتِ كلارا، ووضعت سلة التفاح، وجلستِ القرفصاءَ بينما كانتِ الريح تعبث بقماش الخيمة دخولاً خروجاً ... دخولاً خروجاً فكأنما هي تقول لها: «انظري داخلها ... انظري داخلها.»

رفعتِ القماش بعيداً، وسحبت من تحته كراثاً رقيقاً، فكانت إلى جوار الكراث حفنةٌ من البطاطا والجزر، وبعض الشمندر الوردي. جلست إذِ انتابتها قشعريرةُ ارتياحٍ أنْ لم تجد في السلة أناناساً وخوخاً؛ وهذا يعني أن السيدة جيلبرت لم تكن اللصّ.

- ماذا لدينا هنا؟ سألها صوتٌ من خلفها.

نهضتِ كلارا وقد صعد الدم إلى رأسها فإذا برجلٍ ممتلئٍ يحدق فيها مرتدياً معطفاً أبيضَ، وفي يده ملعقة.

- أحمل لكم التفاح. قالتِ كلارا.

اقتحمتْ وجهَ الرجل ابتسامةٌ عريضةٌ، ثم فتح ذراعيه كما لو يهم بعناقها فتراجعتِ كلارا نحو الخيمة، فقال:

- رائعٌ! عصير التفاح من أجل الحلوى! يمكنكِ أن تخبري رئيس البستانيين أن الجنود سيلعقون حذاءه بكل سرورٍ إذا ما جاء يزورنا.

كانت ضحكة الطاهي مُعديةً جعلتها تبتسم أيضاً. تقبيل حذاء السيد جيلبرت. إنه لَمشهدٌ يستحق أن يُرى.

***

- كلارا؟ أهذه أنت؟

توقفتِ كلارا أمام باب غرفة نوم آل جيلبرت الذي كان مواربا، فكانتِ السيدة جيلبرت جالسةً على حافة سريرها منتصبةَ الظهر، وفي حِجرها إطارُ صورةٍ.

- تعالي! هلّا دخلتِ؟ قالت رافعةً رأسَها.

دفعتِ كلارا الباب بخجلٍ ثم دخلت.

- يا إلهي! ما الذي فعلتِه؟ تبدين ... متعبةً حقاً، وتحتاجين إلى الاستحمام.

نظرتِ كلارا إلى منزرها الملطخ بالطين، ثم دست شعرَها الأشعث خلف أذنيها، وقالت: - لقد نقلتُ تفاحاً إلى الفوج.

- أحسنتِ صُنعاً؛ فطعامهم ينفد. قالتِ السيدة جيلبرت بابتسامةٍ صغيرةٍ.

ولكن، إنْ كان السيد جيلبرت يرسل الطعام للفوج بموافقة الكونت، فما الداعي لإعطاء توماس الخضارَ عند نوم الجميع؟ وما هي القضية المروعة التي قال الجندي إن عليكما؛ أنت وتوماس، حلها؟

- هيا! تعالي. قالتِ السيدة جيلبرت وهي تشير إليها بالاقتراب.

دفعتِ كلارا أفكارها بعيداً، ونظرت إلى إطار الصورة في حجر السيدة جيلبرت، فإذا به بساط الأناناس المنسوج، وقد وفى السيد سمرز بوعده بأن أصلحه وسلّمها إياه بأسرع مما كانت تعتقد. تلألأتِ الصفيحة النحاسية ونقشُها في الضوء. «السلام العميق للأرض الوادعة».

- هل اخترته بنفسك؟ مضت إصبع السيدة جيلبرت فوق الصفيحة متباطئةً عند كل كلمةٍ.

- بل هي من اختيار السيد جيلبرت ... في المرة الأولى التي تم فيها تأطيره. قالتِ كلارا.

ارتجفت شفتا السيدة جيلبرت.

شبكتِ كلارا يديها خلف ظهرها ... فقد تفوح منهما رائحة العرق فجأةً.

نهضتِ السيدة جيلبرت، وحبت حتى تاج السرير، وعلقتِ الإطار على الحائط، ثم أخذت من جيبها منديلاً صقلت به الصفيحةَ النحاسية في عُجالةٍ، وقالت وهي تتجه نحو كلارا: «شكراً لك.»

احمرّ خدا كلارا.

سارتِ السيدة جيلبرت بضع خطى بقدمين ترتعشان، ووضعت يديها على أكتاف كلارا.

تشنجتِ كلارا في عجبٍ، فهذه أول مرةٍ تكون فيها قريبةً جداً من السيدة جيلبرت منذ وصولها، باستثناء حادثة الشعر المؤسفة طبعاً. ومن دون سابق إنذارٍ، عانقتها عمتها، لكنه لم يكن عناقاً دافئاً أمومياً له رائحةُ خزائن الكتان الطازج أو الفراولة، بل كان عناقاً تفوح منه رائحة ملمع الأثاث التي ذكّرتها بفرشاة أحذيةٍ كئيبةٍ ذات شعيراتٍ متآكلةٍ باليةٍ، لكن كلارا التي لم تعانَق منذ فترةٍ طويلةٍ شعرت أن جسدها بدأ يخونها فيسترخي بين ذراعي السيدة جيلبرت التي أسندت ذقنها إلى رأس كلارا لثانيةٍ، ثم أخذت نفساً عميقاً بطيئاً.

الصفعة. الرسائل المخفية. الوصية. ويل. كل شيءٍ مر في رأسها.

بيد أن عليها أن تحذر التأثر بلطف السيدة جيلبرت المفاجئ، ولذا تحررتِ كلارا من عناقها، واستدارت تركض خارجةً من الغرفة.

- كلارا! نادتها السيدة جيلبرت.

تجاهلتِ كلارا نداءها، وصعدتِ الدرج نحو غرفة نومها، وأغلقتِ الباب وظهرُها إليه، ثم أغمضت عينيها وضغطت بأصابعها عليهما إلى أن رأتِ الأشكالَ السوداءَ المتموجةَ، وتلاشت ذكرى عناق السيدة جيلبرت في العدم.

الفصل التاسع والعشرون
(اللص)

كان ذلك بعد منتصف الليل. حينها سقطت قطرة ماءٍ متكاثفةٌ من السقف الزجاجي لدفيئة الأناناس فوق الخرسانة قرب حذاء كلارا الأيمن، فمدت يدها وتحسستها بإبهامها وهي تفكر فيما قاله ويل لها آنفاً، إذ قال إنه وجد برتقالةً أخرى على ضفاف البحيرة في ذلك المساء قبل أن يبدأ ضباب الخريف في خنق الحدائق برداءٍ غير شفافٍ.

- لعل أحدهم يمارس علينا خدعةً ما بترك هذه الفاكهة في طريقنا. همس ويل متفقاً مع نظرية كلارا القائلة أن الفاكهة تُترك عمداً، لكنهما لم يستطيعا تخيل هوية الفاعل، فقال: أيكون أحد البستانيين الشباب؟

- لكنك تفقدتَ الدفيئة، وقلتَ إن أياً من البرتقال لم يُنهب. قالتِ كلارا.

- أكانتِ البرتقالات من مكانٍ آخر ... من بقال المدينة مثلاً؟ قال ويل وهز كتفيه.

غضنتِ كلارا أنفها. أتملأ حديقةٌ بفاكهةٍ وبرتقالٍ مبتاعٍ من متجرٍ؟ بدا احتمالاً ضعيفاً بالنسبة إليها! ثم لماذا قد يخاطر بستانيٌ بفقدان وظيفته من أجل مزحةٍ غبيةٍ على أية حالٍ؟

- إنْ أمسكنا الليلةَ بالسيدة جيلبرت، فماذا ستفعلين حينها؟ سأل ويل مغيراً الموضوع.

- سبق أن أخبرتك أن السلة التي وجدتُها في معسكر الفوج تحتوي على خضروات من الحديقة. ألا تزال مصرّاً على أن لعمتي علاقةً بالسرقة حتى الآن؟ تبدو كما لو أنك تتمنى أن تكون المسؤولةَ. تمتمتِ كلارا ثائرةً.

هنا حان دور ويل في تغضين أنفه، فالتقط حجراً صغيراً ألقاه في حوضٍ للزهور فارتد الحجر عن الحوض، وتدحرج في مسارٍ بين نباتات الأناناس.

أحستِ كلارا بألمٍ في عنقها لوقوفها تحت المقعد، وقالت وهي تضغط مكانَ الألم

بأصابعها: - كلُ ما في الأمر هو أن ... آل جيلبرت هم عائلتي.

- وليس هنالك ما هو أهم من الأسرة. قال ويل بصوتٍ خافتٍ مرتبك.

اقتربتِ كلارا من ويل قليلاً حتى تلامست ركبهما، فقال ويل:

- لقد مضى أمد بعيد على ابتعادي عن المنزل حتى أني حين أفكر في عائلتي لا أكاد أتذكرها بشكلٍ صحيحٍ، فأنا أتساءل ما إذا كان الأمر كذلك بالنسبة إلى أبيك وكريستوفر عندما غادرا للقتال؟

نظر ويل إليها وبدا يفكر في هذا، ثم قال: «افتحي رسالة وزارة الحرب يا كلارا. عليك أن تعرفي ما فيها من أجلك ومن أجل والديك.»

أخذتِ كلارا نفساً عميقاً دافئاً عذباً. لقد عاشت في بيتها بالقرب من رحى حربٍ حقيقيةٍ تدور على بُعد ذراعٍ، كان والدها يتحاشى الحديث عن تجاربه في الجبهة، كما كانت أمها ترفض قراءة الصحف. لقد كانت تشعر في بعض الأحيان أنهم يعيشون في فقاعةٍ آمنةٍ من أسوأ ما قد تخبئه لهمُ الحرب؛ أما هنا فكان الأمر مختلفاً؛ من دفن متعلقات والد ويل إلى الجندي المصاب في المستشفى فمعسكر الفوج القابع على حافة الغابة ونيران بنادقه ليلاً، وروايات السيد جيلبرت عن إلقاء مناطيد زيبلين القنابلَ على نورفولك المجاورة. كانت هذه الحرب أشبهَ بشامةٍ تُدفن في نفقٍ عميقٍ داخلها، ثم تنفجر في الهواء مخلّفةً آثارها وبصمتها، فقالت كلارا: «ربما.»

- «ربما نعم، أم ربما لا؟ أنت أكثر شجاعةً مما تعتقدين، فلا تحتاجين إلى أكثر من الكف عن القلق حيال قلة شجاعتك.» قال ويل ممسكاً بيد كلارا، ثم قبض عليها بإحكامٍ بينما كانتِ الرياح تلعق النوافذ نافذةً نافذةً كأنما هي في جولة تكريمٍ واستحسانٍ. رمقها ويل بنظرةٍ لم تستطع تفسيرها؛ نظرةٍ حزينةٍ جعلت وجهه يتقلص كما لو كان بعيداً عنها وعن الدفيئة وأناناسه المحبب.

ضغطتِ كلارا على يده كذلك.

- «صه!» هسهس ويل فجأةً بجسدٍ متيبس، فأفلت يدها.

سمع صوت خطىً في الخارج؛ لكنها لم تكن خطىً صغيرةً لمخلوقٍ ليليٍّ يبحث عن طعامٍ.

جف فم كلارا، بينما كانت عينا ويل بارقتين متحفزتين في الضوء الخافت، ويداه مقيدتين في حجره. جازتِ الخطى جانبَ الدفيئة الزجاجية ثم توقفت عند مدخلها؛ فشعرتِ كلارا أنها نسيت كيف تتنفس حين نزلت قدمان الدرجاتِ برفقٍ واستدار مقبض الباب. استخفتِ كلارا تحت المقعد بينما مالَ ويل إلى الأمام محدقاً في الباب.

كانت خطواتٍ خفيةً لا تشبه خطى شخصٍ ذي حقٍّ في المشي بجوار الدفيئة لرعاية الفاكهة. كانت كلارا مقتنعةً بأنها خطى شخصٍ يُضمر لهما الأذى، فغرزت أظفارها في راحتيها.

راح أنبوب الماء الساخن يقطر فابتلعتِ كلارا ما تبقى فيه من رضابها حين سارتِ القدمان على الطريق الضيق بين أحواض الزرع وهي تدنو رويداً رويداً. تراجعتِ كلارا مرةً إثرَ مرةٍ فرأت رغم الظلمة ما يكفي من الحذاء لتعرف أن الماثل أمام المقعد حذاء عسكريٍّ. كانت أنفاس الرجل خفيفةً ثابتةً على عكس ما تخيلته كلارا من أنفاس اللصوص. استدار وانحنى فوق المقعد ثانياً رجليه.

عضتِ كلارا شفتها وهي تراقب ويل يمد ذراعيه حتى باتت قابَ دبوسٍ من كاحلي الرجل؛ ثم اندفع إلى الأمام مزمجراً فأمسك بساقي الرجل.

خرجت من حلق الرجل جلبةُ حشرجةٍ ... كأنما هي جلبة صدمةٍ وألمٍ حين ترنح وسقط على الأرض سقوطاً شديداً.

زحف ويل من تحت المقعد وتبتعه كلارا فاحتكّت ركبتاها بالرصيف الخشن، واختنقت بشهيقٍ وهي تحدق في الظلال.

إنه الجندي توماس، صديقُ السيدة جيلبرت.

استدار ويل مبتسماً لها ابتسامةً عريضةً فكأنما عيناه تقولان: «قلتُ لك ذلك.»

سمعت جلبةً خلف ويل، ففغرتِ كلارا فاها لتصرخ في وجهه لكن أوان الصراخ فات إذ قفز توماس وأمسك بكتف ويل الذي تخبط وتلوى، فقال توماس من بين أسنانه القاسية: «لقد أمسكتُ بك.»

لذعرها، تشبثتِ كلارا بالمقعد، لتثبت نفسها فحزكت أصابعُها شيئاً صغيراً من خشبٍ، فإذا به مقبضُ مجرفةٍ بستنةٍ صغيرةٍ، فأمسكت بها، ورفعتها فوق رأسها، وراحت تحدق في توماس الذي بات ظهره لها الآن وهو يصارع ويل. ألقتِ كلارا بالمجرفة نحو الجزء الخلفي من الدفيئة فارتطمت بالأرض.

- ما هذا الـ ...؟ تمتم توماس مطلقاً ويل من قبضته للحظاتٍ.

استدارت كلارا وخرجت من الدفيئة عذواً صاعدةً الدرجات نحو الضباب، ولا بد أنها سمعت خطى ويل يعدو قريباً خلفها، ثم تجاوزها كالأرنب فانعطفتِ كلارا نحو أيسر الدفيئة، لكن ويل كان يركض في الاتجاه المعاكس مرتقياً المنحدر ميمماً نحو البستان والسعالُ يتفلت من رئتيه، أما توماس فكانت أقدامه تدق العشب في إثر ويل.

حدقتِ كلارا في الضباب وقطراتُ الماء تعلق في شعرها وعلى وجنتيها، وأنفاسها تتسارع في حلقها؛ فإذا بالحدائق صامتةً صمتَ القبور كالمصدومة من أحداث ذلك المساء. لم تكن تعتقد أن توماس استطاع أن يرى وجهها، لكنه علم أن ويل لم يكن وحده؛ ولذا كان عليها أن تختبئ قبل أن يأتي للبحث عنها، فقد علم اللص أنهما كانا يتربصان به.

الفصل الثلاثون
(الاعتقال)

فتحتِ كلارا الباب الزجاجي الكبير لمنزل الكونت الصيفي، وأغلقته خلفها بهدوءٍ، فخفف الدفء هنالك شيئاً من تعب عضلاتها بعد تفاديها كراسي الخيزران الأبيض، وتجاوُزها أشجارَ البرتقال في أحواضه العملاقة، كما تعثرت بشبكتَي صيد فراشاتٍ كانتا على الأرض بالقرب من الحائط. ربما كانتا شبكتَي الفتاتين اللتين رأتاها جالسةً في حقل الزهور البرية. لعلهما الآن نائمتان تحلمان بفساتينَ بهيةٍ وأشياءَ جميلةٍ. لو كانتا هنا الآن فكيف ستنظران إليها وهي مختبئةٌ في منزلٍ صيفيٍّ (لا عمل لها فيه) هرباً من لص الأناناس؟

كانتِ كلارا متقوقعةً خلف أطول الأشجار المحفوظة في أحواضها تشاهد ضوء القمر يسقط على الثريا القابعة فوقها فتُفتت بخرزاتها الضوء على طول الجدران، ثم راحتِ تستمع إلى صوت إطلاق النار البعيد فكان دماغها مزيجَ أفكارٍ غيرَ متجانسٍ كأنما هو خربشاتُ طفلٍ. كان ويل مصيباً في اعتقاده أن توماس هو من يسلب الفاكهة، ولكن هل كانتِ السيدة جيلبرت تعرف ذلك؟ وأين هو ويل الآن؟ لقد كان سريعاً، لكنه واجه جندياً مدرباً تعلم الطعن والقتل، فإذا ما أمسك توماس بويل، فهل سيحتجزه ويقيده كي لا يتمكن من الصراخ طلباً للمساعدة؟

أخذتِ كلارا نفساً عميقاً من عبير الليمون، ثم انحنت إلى الأمام تداعب ورقةً في شجرة برتقالٍ لا تحمل الكثير من الثمار كأشجار الدفيئة. لعلها لا تنمو جيداً هنا؛ ولذا فإنها قد تسأل ويل عن ذلك إذا ما رأته مرةً أخرى.

تك-تك-تك-تك؛ كانت أنابيب الماء الساخن تقطر منشدةً نغمةً جميلةً جعلت تعب كلارا يتكفكف عن جسدها موجةُ إثر موجةٍ. فركتِ كلارا عينيها. لا بد لها من التحقق من غرفة المرجل في غضون ساعاتٍ قليلةٍ، أي قبيل الفجر مباشرةً، لترى ما إذا كان ويل قد عاد أم لا، لكنها حتى ذلك الحين كانت مضطرةً إلى التواري عن الأنظار تحسباً لعودة توماس.

***

- كلارا؟ كلارا؟ جاء الصوت مُلِحاً مؤلماً لا تكاد تسمعه.

استيقظتِ كلارا مرتعشةً يخفق قلبها بين ضلوعها.

كان روبرت راكعاً أمامها ومصباحُ زيتٍ مضاءٌ على الأرض إلى مقربة منه، رغم أنه لم يكن في حاجةٍ إليه، فقد كانتِ النوافذ الضخمة للمنزل الصيفي كإطارٍ حوى سماءً ورديةً.

وقفت كلارا مرتجفةً تفرك عينيها.

- ماذا تفعلين هنا بحق الجحيم والناس يبحثون عنك؟ قال روبرت بوجهٍ شاحبٍ، والهالاتُ تحت عينيه داكنةٌ كالكدمات.

نظرتِ كلارا إلى ساعتها، فكانت قد تجاوزتِ السابعة بقليلٍ. كيف سمحت لنفسها أن تغفو؟

- تعالي معي! من الأفضل أن يعرفوا أنك بأمانٍ. قال روبرت وهو يحمل المصباح.

تبعته كلارا خارج المنزل الصيفي، وانعطفا حول السور إلى أن وصلا الدرجاتِ المؤديةَ إلى غرفة المرجل، فكان البابُ أسفلَها مفتوحاً على مصراعيه.

اختنقتِ كلارا، فويل لمَا يعد بعدُ. «مهلاً!» قالت وحذاؤها يغوص في العشب الندي.

التفت روبرت.

كانت يدا كلارا متعرقتين، وقد شدّت أكمام فستانها حتى غطت أصابعها.

كان خدّا روبرت أبيضين كالثلج.

- الأمر متعلقٌ بـ ... ويل. قالتِ كلارا ضاغطةً أكمامها بين أصابعها، راجيةً أن يغفر لها ويل حنثها بوعدها له.

تحولت عينا روبرت إلى وجهها، ثم أشاح بوجهه مجدداً وقد ارتجفت عضلات فكه.

- كنتُ قدِ التقيتُ به ... في الحدائق. قالتِ كلارا بعد أن أخذت نفساً عميقاً.

تشنجت ملامح روبرت.

- علمنا أن الفاكهة تُسرق من الدفيئات، فرحنا نراقب اللص؛ وفي الليلة الماضية ... وبينما كنا نراقب، جاء اللص ... توماس، وطارد ويل.

قام روبرت بتدليك حلقه.

تحولتِ كلارا من قدمٍ إلى أخرى. لماذا لم يُفاجَأ فتتسعَ عيناه رعباً؟ نظرت مجدداً نحو مدخل غرفة المرجل، فنظر روبرت حيث تنظر، فقالت:

- لا أعتقد أن ويل عاد إلى غرفة المرجل الليلة الماضية. أظن أن توماس أمسك به ... فهو يحتفظ به في مكانٍ ما ربما.

- هو بخيرٍ، ولكنه محتجَزٌ. قال روبرت بصوتٍ به شخيرٌ وهو يدفع نظارته إلى أعلى أنفه.

- ماذا؟ قالتِ كلارا، وقد جذبها نحو العشب ثقلٌ في معدتها.

- كان ويل هو اللص، وأعرف مكانه جيداً ... فهو محتجَزٌ في أقبية البيت الكبير ريثما تصل الشرطة.

- لا! قالتِ كلارا شاعرةً كأنما تمر فوق صدرها مدحلةٌ بخاريةٌ.

- لا أستطيع أن أصدق ذلك. لقد اعترفتُ للسيد جيلبرت أني سمحتُ له بالنوم في غرفة المرجل. أشعر بالخجل مما اقترفتْ يدايَ، فقد حسبتُ أني أحسنتُ إليه إذ أحضرته إلى هنا؛ ولكن كلّ ما فعله هو استغلال ....طيبتي. قال روبرت متنهداً.

- لا ... اللص هو الجندي توماس الذي ... طارده. قالتِ كلارا.

- لقد ارتكبتِ أنت وويل خطأً يا كلارا، فتوماس هو شقيق السيد جيلبرت، وكان

يراقب الدفيئاتِ الليلةَ الماضيةَ خدمةً للسيد والسيدة جيلبرت ... ولي ... إذ تعبثُ كثيراً مؤخراً ... بعد كل الأعمال الإضافية في الحدائق. قال روبرت مكشراً، وحدّق نحو الدفيئات ثم عاد ينظر إلى كلارا، ومد يده تحت نظارته، وضغط على زاوية عينه البيضاء كمن يحاول تبديد الظلام.

دار عقل كلارا في رأسها كعجلة كاترين المسمّرة فوق السياج في ليلة النار حين علمت أن توماس هو شقيق السيد جيلبرت مما يعني أنه جزءٌ من العائلة ... ونسيبُ السيدة جيلبرت؛ ولكن لماذا كان مضطرباً جداً حينما كانا معاً في الغابة؟

- لكن هذا مستحيلٌ. ويل ليس السارق، وعلينا مساعدته. قالتِ كلارا.

- ليس هنالك ما يمكنني فعله من أجله أكثر؛ فأمرُه الآن بيد الشرطة ... والكونت. قال روبرت وهو يهز رأسه.

- لكنه أخوك. قالتِ كلارا بصوتٍ متألمٍ.

- تعالي معي! عليّ إلى أعيدك إلى الكوخ، فلدي عملٌ. قال بشفتين رقيقتين كالورق.

ارتعش جلد كلارا. لديه عملٌ؟ ما العمل الذي يمكن أن يكون أهمَّ من مساعدته لأخيه؟ هزت رأسها واستمرت في هزه وهي تتجاوز روبرت منطلقةً فوق العشب سريعاً نحو كوخ البستاني.

كان السيد جيلبرت عند أسفل الدرج يجلس حاملاً قبعته في يده، فلما دخلت عليه وقف وقال بصوتٍ منخفضٍ محبطٍ:

- أين كنت؟

ثم جاءت السيدة جيلبرت سعياً من جهة المطبخ، وقدماها العاريتان تصفعان بلاط الأرض بينما يتراقص ثوب نومها خلفها؛ فقالت وهي تضع يدها على رقبتها وتعبث بقلادتها:

- أوه! كلارا. لقد قلقنا عليك جداً.

لكن كلارا في ذلك الوقت لم تكن مهتمةً بقلقهم من عدمه، فقالت بكلماتٍ تتدفق من شفتيها: - ويل ليس لص الفاكهة!

اتخذ خدا السيد جيلبرت المتوردان عادةً ظلاً زهرياً على غير العادة، فدنا من كلارا بخطواتٍ كبيرةٍ وقال:

- كيف علمتِ بأمر ويل؟

- إنه صديقي. قالتِ كلارا معدلةً كتفيها.

تبادل السيد والسيدة جيلبرت نظرةَ ذهولٍ جعلت فكيهما يتشنجان، وعيونهما تضيق.

- أنت ... تعرفين هذا الصبي ... هذا اللص؟ قال السيد جيلبرت وقد برزتِ الأخاديد بين حاجبيه كعلامتَي تعجبٍ.

- لا أظنه ممن قد يسرق الثمار. أقسم على ذلك. لا يمكنه أن يكون الفاعل ... لأني ... كنت معه. قالت مطأطئة الرأس.

ساد الصمت في الردهة.

رفعتِ كلارا نظرها فألفت في ملامح السيد جيلبرت غضباً وحيرةً وإنكاراً ومشاعرَ حولت وجهه إلى وجهٍ لم تألفه قطُّ.

- ستأتين معي. قال السيد جيلبرت في النهاية بفظاظةٍ وهو ممسكٌ بذراعها، وقبضته تقرصها قليلاً، فحاولتِ التفلّت لكن أصابعه ازدادت شدةً، فقال: تعالي معي لأريك ما أحدثه هذا الصبي من ضررٍ، ثم يكون لك الخيار في اعتباره صديقاً من عدمه.

***

كانت خطى السيد جيلبرت واسعةً حازمةً بينما هما يشقان طريقهما فوق العشب نحو الدفيئات الزراعية ،التي كانت تغمز نتيجةً لانعكاس أضواء شمس الصباح الباكر الضبابي؛ فكان غمزها ساخراً بعض الشيء كما لو كانتِ الدفيئاث تعرف الحقيقة

وتخفيها. كانتِ كلارا تحاول يائسةً ربط جميع ما حدث كي ترتب الحقائق فتصل إلى إقناع السيد جيلبرت بأنهم ارتكبوا خطأً فادحاً باحتجازهم ويل.

عند أعلى الدرجات توقف السيد جيلبرت، وقال وهو ينظر إلى كلارا:

- هو ذا بيتُ الأناناس.

- أعلم. أجابت.

- هل كنتِ هنا الليلة الماضية؟ مع ... ويل؟ قال السيد جيلبرت محدقاً فيها للحظةٍ.

أومأت كلارا برأسها. لا بد أن توماس قد أخبر السيد جيلبرت أنه رأى شخصاً آخر مع ويل، فهل تفقّد آل جيلبرت سريرها وعلما باختفائها؟ لف أوسطَ جسدِها من شعورها بالذنب ما يشبه الثعبانَ الصغيرَ.

- لقد كنتُ أُحسن الظن فيك. حقاً. قال السيد جيلبرت هازاً رأسه، ثم استدار بحدةٍ، ونزل الدرج.

احمر خدا كلارا ثم تبعتِ السيدَ جيلبرت على الدرج واضعةً بيديها في جيوبها.

مضى السيد جيلبرت عند منتصف صفٍّ من النباتات ثم توقف وتوقفتِ كلارا إلى جواره، فراح يحدق في نبات الأناناس وتيجان أوراقها الملامس للأرض. كان القرمزيُّ البرازيليُّ نباتَ ويل المفضلَ وخاصةً حديثُ النضج منه، لولا أن ... الأناناس قُطع من أدنى ساقه بطريقةٍ قاسيةٍ لا عنايةَ فيها تاركاً مجردَ ندبةٍ بيضاءَ خشنةٍ مكانَه.

- لا. إلا القرمزي البرازيلي. ما كان ويل ليقضيَ عليه؛ فهو يُكنُّ له حباً من نوعٍ خاصٍّ. قالت بلهفةٍ.

- هذا ما فعله صديقك الليلة الماضية، يا كلارا. قال السيد جيلبرت ناظراً إليها نظرةً جانبيةً بنبرةٍ اقشعر لها ظهرُها.

- لا. كررتِ كلارا فكان صوتها خافتاً كأنما لم يكن صوتَها على الإطلاق: لقد راقبنا اللص الليلة الماضية، بل كنا نراقبه كل ليلةٍ.

اتسعت عينا السيد جيلبرت كبالونين منتفخين انتفاخاً خشيتِ كلارا للحظةٍ أن ينفجرا، ثم قال:

- كان تصرفاً غيرَ مسؤولٍ إنْ لم نقل خطيراً. ماذا سيقول والداك؟

- اعتقدنا أننا إن تمكنا من القبض على اللص، فإنك ستمنح ويل وظيفةً في الحدائق. إنه شخصٌ طيبٌ سيد جيلبرت، وإنه لَذو علمٍ واسعٍ بالنباتات وكيفية نموها، بل إنه يرسمها في دفتر ملاحظاته، فإذا لم تكن تمانع من رؤيتها ... قالتِ كلارا مقشعرةً.

- لقد رأيتُها. قاطعها السيد جيلبرت متجاهلاً: إن فيها قائمةً بالمنتجات التي أخذها، ثم روى لك قصةً فجعلك شريكةً له يا كلارا.

شعرت كلارا ببالغ الإحباط. لماذا لم يفهم قولَها؟

- تم العثور على الفاكهة في غرفة المرجل داخل كيسٍ حوى الأناناسَ، والتينَ وحفنةً من الخوخ. قال السيد جيلبرت.

في غرفة المرجل؟ أغمضتِ كلارا عينيها لثانيةٍ، فشعرت بباطنها كقشرة بيضةٍ جوفاءَ.

- هل قال لك أن روبرت هو شقيقه؟ سأل السيد جيلبرت.

فتحت كلارا عينيها وهزت رأسها.

- روبرت يقول إن الشاب ويل عُرف في موطنه بالسرقة وما شاكلها.

ارتخت قدما كلارا، فحدقت بثباتٍ في السيد جيلبرت، وفي ساق الأناناس المجتثّ المؤسف. أهذا صحيحٌ؟ هل سحر ويل عينيها فجعلها تظن به ما ليس فيه من مناقبَ؟ تذكرت عينيه عندما تحدث عن الثمار ... ودموعَه عند دفن متعلقات أبيه ... أهذا تصرف لصٍّ؟ راح قلبها يخفق بسرعةٍ كبيرةٍ، والدمُ ينبض بشدةٍ في أذنيها؛ فاستدارت وخرجت من الباب.

- كلارا. انتظري! صاح السيد جيلبرت.

تردد صدى صوته في أذنيها وهي تصعد الدرجاتِ متجاوزةً البستان والكوخَ نحو البيت الكبير والشخص الوحيد الذي لا يزال بإمكانه إنقاذ ويل.

الفصل الحادي والثلاثون
(صبي الردهة)

انطلقتِ كلارا بسرعةٍ نحو أعلى التل وهي تنظر خلفها كل بضع دقائقَ، لكن حذاءها كان الحذاءَ الوحيدَ السائرَ في الطريق إلى البيت الكبير؛ فالسيد جيلبرت لم يتبعها.

كان وقت الإفطار يقترب مما يعني أن عاملي المنزل سيأكلون معاً في غرفة الخدم ... وهو حدثٌ ذكرته السيدة جيلبرت في بعض المناسبات (غالباً ما يتناقلون قصصاً عن خادمات بملابسَ رديئةٍ أو أجيرين بلا أربطة عنقٍ)، وهذا يعني كذلك أن أمام كلارا أفضلَ فرصةٍ للتسلل إلى المنزل من دون لفت انتباه أحدٍ.

توقفت أمام الدرج المؤدي إلى مدخل الخدم، واعتدلت، ثم راحت تلتقط ما علق بسترتها الصوفية الرمادية من زغبٍ، ودست شعرها خلف أذنيها. بدا روبرت مصمماً على أنه لم يعد ملزَماً بالتعامل مع ويل بعد ما جرى، فقال إنه بات تحت رحمة الشرطة والكونت ... ولذا فالكونت هو من عليها إقناعه بالإفراج عن ويل، بيد أن عليها العثور على ويل نفسه قبل العثور على الكونت لتخبره بما حدث في الليلة السابقة، وبأنها لم تتخل عنه.

عند أسفل الدرج، وجدتِ كلارا نفسَها تفتح باباً يؤدي إلى ممرٍّ خافتِ الضوءِ مملوء بطنينٍ مكتومٍ كأنما هو سربُ نحلٍ صغيرٌ، فكان الطنين ذا يَصدر من جهازٍ غريبٍ على شكل صندوقٍ موضوعٍ على الأرض تملؤه الوشائعُ والأسلاك والمعادن. إنه مولدٌ كهربائيٌ للمصابيح. خفضت رأسها، وسارت في الرواق بسرعةٍ بينما الأضواءُ تومض بين الحين والآخر كما لو أنها تحتج على ما تبذله من مجهودٍ. كانتِ كلارا محظوظةً، لأنها لم تقابل أحداً حتى حينه، ولكنها مضطرةٌ للإسراع؛ فلا ريبَ أن الردهاتِ ستغص بالناس بعد الإفطار. انخفض السقف، وضاق الممر، وباتتِ الأضواء أكثر ندرةً. «مرحباً أيها الممر الرطب المظلم.» همستِ كلارا بصوتٍ خافتٍ بينما هي تعبر قوساً من الطوب فقوساً آخر، فكان من شأن قول هذه الكلمات أن يهدئ روعها، ويبطئ خفقان قلبها قليلاً.

سمعتِ كلارا عن يمينها سعالاً خشناً.

قفزت عائدةً نحو الحائط مجدداً، فسمعت سعالاً آخر يؤذي لفظاعته الضلوع، فكان يصدر من تلقاء فجوةٍ مظلمةٍ في الجدار ما بين القوسين.

- ويل؟ همستِ كلارا، وعندما تكيفت عيناها مع الظلام رأت أن التجويفَ مملوءٌ بفحمٍ تطفو فوقه عينان كعيني بومةٍ.

- لا ينبغي لك أن تكوني هنا، يا آنسة. قالت العينان رامشتين، فكانتا متصلتين برأس صبيٍّ ذي شعرٍ ووجهٍ داكنين ككومة الفحم.

نظرتِ كلارا بقلقٍ أعلى الممر وأسفلَه. ماذا لو طلب الصبي النجدة؟ هل سيأتي الطباخ أو الخادم الشخصي فيُفشلان خطة كلارا قبل أن تبدأ؟

- أنا أبحث عن الأقبية، فهل لك أن تساعدني؟ قالتِ كلارا بسرعةٍ.

نزل الصبي من أعلى كومة الفحم فكانت قطع الفحم تلاحقه كانهيارٍ صخريٍّ مصغرٍ.

انحنتِ كلارا والتقطت قطعةً وضعتها في راحة يدها.

تقدم الصبي فلم يكن أكبر منها بكثيرٍ، فبدا شعره الكثيف من تحت هباب الفحم أحمر كالصدأ.

ريد. أهو صبي الردهة الذي تحدث عنه روبرت وويل؟

أخذ الصبي الفحم من يد كلارا الممدودة، وألقاه على الكومة خلفه، ثم مسح يديه بسرواله (رغم أن سرواله أكثر اتساخاً من الفحم ذاته وفق ما رأتِ كلارا)

- لي صديقٌ محتجزٌ في الأقبية، وأريد التحدث إليه. الأمر ملحٌّ للغاية. قالتِ كلارا.

ضاقت عينا الصبي، فنظر أسفل الممر ثم عاد ينظر إلى كلارا. ألا يستطيع الكلام؟ سعل مرةً أخرى حتى دمعت عيناه، فأخرجتِ كلارا له من جيبها منديلاً.

- شكراً لك آنستي، لكنه سيتسخ.

- خذه. يمكنك مناداتي كلارا. أنت ريد. أليس كذلك؟ قالتِ كلارا دافعةً له المنديل.

هز رأسه وهو يحدق في زهرة الأقحوان الصغيرة المطرزة في زاوية المنديل اليسرى، ثم فرك عينيه ووجنتيه فترك على قماشه الأبيض لطخاتٍ سوداءَ. كان خدا ريد تحت الغبار نصف شفافين كخدي كائنٍ يعيش في الغالب تحت الأرض. أعاد المنديل القذر إلى كلارا.

- لا حاجة لي به. يمكنك الاحتفاظ به. قالتِ كلارا مبتسمةً له ابتسامةً سريعةً.

ارتفعت أصوات النساء في الردهة لدى اقترابهن، فمضى ريد إلى آخر قطع الفحم التي سقطت على الأرض وألقى بها على الكومة؛ ثم بادر إلى دفع كلارا بحدةٍ فوجدت نفسها فجأةً متكئةً على الحائط مسندةً ظهرَها إلى كومة الفحم، فنظر ريد إلى كلارا ووضع على شفتيها إصبعه.

شعرتِ كلارا بارتعاشٍ في جفنها الأيمن، وقد خارت ركبتاها هلعاً. ماذا ستفعل النساء لو وجدنها تتجول في أعماق بيت الكونت؟ هل سُتحتجز في الأقبية مع ويل؟ تراءت لها صورة الصدمة في عيون أمها وأبيها إن علما بتهورها. قد تكون قادرةً على تحمل غضبهما، أما خيبة أملهما فمن الصعب تحملها.

- لا أستطيع التوقف عنِ التفكير في مناطيد زيبلين اللعينة التي انحرفت عن مسارها فوق ساحل نورفولك الأسبوع الماضي. قالتِ امرأةٌ منهن.

- إنها تجعلني أتبلل ذعراً وهلعاً. حقاً قالتِ الأخرى.

حبستِ كلارا أنفاسها إذ باتت تسمع أنفاسهن لقربهن منها.

- هل شاهدت صور القنابل؟ تلك الأشياء الضخمة كالأجراس. لا ريب أنك سُتسحقين إذا ما ضربك أحدها.

وراحتِ الأصواتُ تخبو ابتعاداً.

كان قلب كلارا ينبض بقوةٍ بين ضلوعها.

- المكان خالٍ آمنٌ الآن» همس ريد.

سحقتِ كلارا الفحمَ إذِ انزلق حذاؤها وتزلج.

- أوه! قال ريد متغضنَ الجبين وجِلاً.

نظرتِ كلارا حيث كان ينظر إلى ياقة فستانها وسترتها وقد تلطخا بالفحم فكأنما تدحرجت في الفحم ككلبٍ؛ وكذا كانت حالُ مئزرها ويديها، فقالت بسرعةٍ دافعةً جانباً كل أفكارها حيال رد فعل السيدة جيلبرت إزاءَ اتساخ ملابسها:

- هل لك أن تدلني على الأقبية؟

نظر ريد بتوترٍ نحو أسفل الممر.

- إنه لِأمر مهم. لقد تم اتهام صديقي ويل بالسرقة، ساعدني يا ريد. أنا في حاجةٍ إلى التحدث معه قبل أن أتحدث مع الكونت. قالت.

اتسعت عينا ريد، فدفع يديه في جيوبه وهز رأسه وضغط شفتيه بإحكامٍ.

حدقتِ كلارا في وجهه. هل سيساعدها ريد؟ وماذا ستفعل لو لم يساعدها؟

الفصل الثاني والثلاثون
(في الأقبية)

حدقتِ كلارا في ريد وهما مختبئان في ظلال ممرات الخدم، فقال ريد مصدوماً:

- لا يُسمح لأحدٍ بالتحدث إلى الكونت، باستثناء خادمه الشخصي، والمربية ... وأناسٍ آخرين ربما، لكن ... أمثالُنا... لا.

- لكني مضطرةٌ إلى ذلك قبل وصول الشرطة طلباً لويل. ليس لأحدٍ أن يساعدني سوى الكونت. قالتِ كلارا.

- أنتِ نِعمَ الصديقة لويل ... هذا. قال ريد عاضاً شفته ببعض الحسد وفق ظن كلارا.

- أحاول أن أكون. ردتِ كلارا.

أخرج ريد منديل كلارا من جيبه واستنثر فيه ثم قال: «أيكون صديقُك ويل شقيقَ روبرت، البستانيَّ ذا العينين المضحكتين؟ أهو الماكث في غرفة المرجل في الحدائق؟

هزتِ كلارا برأسها.

- روبرت مدينٌ لي ببعض المال لقاءَ تكتمي حيال ذلك. قال ريد وهو يلف منديل كلارا ككرةٍ.

- ألم يدفع لك؟ سألتِ كلارا.

- المال ليس لي. أبي يقاتل بعيداً، ونحن ستةٌ في البيت نحتاج إلى ما نأكله. قال ريد هازاً برأسه مطرقاً ببصره.

- لدي بعض المال. قالتِ كلارا، فلعلها حالةٌ ملحةٌ أكثر من إطار البساط المكسور. كانت تأمل أن يكون والداها متفقين معها في ذلك حينما تراهما في المرة القادمة.

نظر ريد إليها وابتسم، ثم نظر إلى الممر مجدداً، وقال:

- قريباً تكتظ الممرات بمن فرغوا من فطورهم، ولذا علينا التحرك بسرعةٍ. وانطلق ريد بكلارا إلى أسفل المدخل المتعرج متجاوزين المطابخ التي تنبعث منها رائحة الخبز الساخن ولحم الخنزير المقدد المقلي اللذين جعلا معدة كلارا تئن وتشكو، واستمرا إلى أن بلغا درجاً، فقال: ستجدين الكونت على الأرجح في المكتبة هناك في هذا الوقت من اليوم يقرأ الصحف الباكرة. هنالك خلف ردهة المدخل.

- شكراً لك. قالت كلارا مبتسمةً له ابتسامةً عريضةً.

تسلل الاحمرار إلى خدي ريد من بين آثار هباب الفحم.

بدأ الرواق يضيق فتوقف ريد أمام بابٍ صغيرٍ مفتوحٍ يؤدي إلى سلمٍ حلزونيٍ، فتمتم وعيناه تجوبان المكان ذهاباً وإياباً: الأقبية في الطابق السفلي. سأبقى هنا وأراقب.

تجمعتِ الرطوبة حول عنقِ كلارا متسببةً لها برعشةٍ في ظهرها بينما كانتِ الأضواء الكهربائية في بيت الدرج أندر منها في الردهة، وكان وميضها أكثر تكراراً.

صعد سعالٌ أجشُ الدرجاتِ الحجريةَ.

اتسعت عينا ريد.

توقف قلب كلارا تقريباً عنِ الخفقان. ويل. ركضت برفقٍ فوق السلم الحلزوني حتى بلغتِ الطابق السفلي الذي تنبعث منه رائحة العفن والرطوبة. لمع مصباحٌ كهربائي له أزيزٌ في أبعدِ أركان القبو مختبئاً في الظلام. كانتِ البوابات الحديدية تسد الفراغاتِ بين ثلاثة أقواسٍ كأنها بواباتُ السجون، ومن ورائها رفوف نبيذٍ نصف فارغةٍ، وصناديق خشبية، وبراميل مغبرّة. كانت أبواب الأقواس مغلقةً مقفلةً.

توقفتِ كلارا للحظةٍ تنتظر أن تتكيف عيناها معَ الظلام من دون أن تجد في نفسها الرغبةَ بإلقاء التحية على هذا المكان الرهيب كعادتها، بل كانت كل غايتها إيجاد صديقها، ولذا همست: «ويل، هل أنت هنا؟»

سمعت سعالاً خلف القضبان المعدنية للقوس الأوسط، ثم تنامى إليها صوت سعالٍ

آخر جعل أصابع قدمي كلارا تتلوى في حذائها، فما لبث أن ظهر وجه ويل الشاحبُ كالبدر من جوف الظلام، فأمسكت أصابعه بالقضبان المعدنية وهزها فتردد صدىً كاذبٌ في أرجاء القبو، فقال بصوتٍ غارقٍ في الإنكار وعدم التصديق: «كلارا؟»

- لا أصدق أنهم يحتجزونك هنا. صرختِ كلارا شاعرةً بثقل قدميها وهي تركض نحوه.

- لستُ الفاعلَ. لم آخذ الفاكهة. أقسم على ذلك. قال ويل بصوتٍ منكسرٍ منحنياً على الأرض وقد لف ذراعيه حول ركبتيه: كنت مخطئاً يا كلارا. أردت أن أقنع نفسي أن السيدة جيلبرت هي من تسرق الفاكهة؛ لكن الأمر لم يكن كذلك.

تبتلع كلارا رضابها، ثم تركع أمام ويل ممسكةً بالقضبان المعدنية، ثم قالت:

- توماس كذلك لم يكن اللصّ يا ويل، فهو شقيق السيد جيلبرت.

- أعرف. أخبرني توماس بذلك بعدما نال مني. قال ويل ببؤسٍ.

- يقول روبرت ... إن لك عهداً بالسرقة من قبل. قالتِ كلارا متشبثةً بالقضبان أكثر بقليلٍ.

- هذا افتراء، يا كلارا. أقسم بحياة أبي.قال ويل مندفعاً قُدماً.

- ولكن لماذا قد يقول أخوك مثل هذه الأشياء؟ وما تفسيرُ إخفاء الأناناس المسروق في غرفة المرجل؟ منِ الذي وضعها هناك؟ همستِ كلارا.

- إنه روبرت، فقد ... وقع في مشكلةٍ حين كان صغيراً. قال ويل ممتقعَ الوجه وهو يمسح أنفه بظاهر يده.

- ماذا؟ قالتِ كلارا متنبهةً، وقد أُحست ببرودة القضبان المعدنية في راحتيها.

- لقد سطا على أحد الجيران، كانت مزحةً أخذت منحىً خاطئاً، فتلاها عراكٌ أصيبت على إثره عين روبرت ... فكاد أن يفقد بصره، فلم أر أبي غاضباً كغضبه لمّا بلغه الخبر؛ فهجر روبرت المنزلَ، ووجد وظيفةً هنا في الحوزة، بينما حاول أبي تهدئة الأمور عندما جئنا لزيارته؛ ولكن الأمر... لم يعد كمِا كان بينهما، فعندما غادرنا

قال روبرت إنه لم يعد راغباً في أبي، ولا في رؤيته مرةً أخرى، فلم يره مرةً أخرى.

جثتِ كلارا. إذن فقد عانى روبرت من إصابةٍ في عينه إثر شجارٍ؟ لقد كذب عليها إذ زعم إنه ولد بهذه الحال، ثم جداله مع أبيهما ... ألهذا السبب ثراه بادر إلى إنكار عائلته، ورفض مشاركة ويل في دفن متعلقات أبيهما؟ ألهذا السبب قال خلال رحلتهما إلى المستشفى إن بعض الخيبات تبقى محفورةً في ذاكرتنا إلى الأبد؟

كانت عينا ويل كبركٍ رماديةٍ من الألم، فودّتِ كلارا لو تغدو صغيرةً جداً فتنزلق من بين القضبان وتواسي صديقها فتجبر كسر وجهه وتعيده ويل الذي تعرفه.

- أنا آسفٌ يا كلارا. كان ينبغي لي أن أكون صادقاً معك منذ البداية، لكن روبرت هو كل ما تبقى لدي؛ فإذا ما دخل السجنَ ... همس ويل.

وكبارق عود الثقاب تبادرتِ الفكرة إلى رأس كلارا فقالت بهدوءٍ:

- كنتَ طوال ذلك الوقت تعتقد أن روبرت هو من سرق الفاكهة.»

- أنا آسف أني رحتُ ألقي باللوم على عمتك. اعتقدت نسبياً أنها كانت الفاعل بعد أن أخبرتِني أنك رأيتها تحمل السلة، ثم رأيتِها مع توماس في الغابة، ولكني في أعماقي كنت أعرف أن أخي هو الفاعل.» قال ويل هازاً رأسه.

كانتِ كلارا مصدومةً إذ صرف كلٌّ من ويل والسيدة جيلبرت وتوماس انتباهَها فلم تفكر في روبرت. كانتِ كلارا تثق في روبرت، بل تحبه، ولكن، من ذا الذي يلقي بأوزاره على كاهل أخيه الأصغر؟ «لم تعتقد أنه من وضع الفاكهة في غرفة المرجل ليجعلها تبدو وكأنك سرقتها؟ قالتِ كلارا.

- لديه مفتاح، ولذا كان في مقدوره أن يدخل أنّى شاء. قال ويل وهو يمسح أنفه بظاهر يده.

- وهل تعتقد أنه كان يعلم أننا نحاول القبض على اللص؟ سألت كلارا.

- نعم ... وقدِ استغل الأمرَ لصالحه. لا بد أنه يعلم أن شقيق السيد جيلبرت سيراقب الدفيئة ... فيباغتنا هناك، فلا بد أن روبرت قد أخذ بعض الفاكهة إلى غرفة المرجل

فأخفاها هنالك. أرجو ألا تكرهيه على ما اقترف، فإن له أسبابه ومسوغاتِه. قال ويل وهو يهز رأسه.

أسبابه؟ ولكن روبرت سرق الكونت إن صَدَقَ ويل، وربما خطط طويلاً لإلصاق التهمة بأخيه: هل أنت متأكدٌ من ذلك يا ويل؟ أخوك ...

- أما الآن، فلم أعد متأكداً من أي شيء، يا كلارا. لا دليل لدي على أنه الفاعل، وإذا ما سألته أنكر ذلك بكل بساطةٍ، فخِلتُ أن مواصلتنا المراقبةَ قد يردعه ... فتكون بمنزلة تحذيرٍ له ؛لأني لم أكن أريد له أن يقع في المتاعب. قال ويل مطأطئاً رأسه بين يديه.

- سأخبر الكونت ... فيطلق سراحك ... قالتِ كلارا بحزمٍ.

- الكونت؟ ما فائدة ذلك؟ قال ويل مقاطعاً إياها بصوتٍ شديد الصرامة: لن يصدق أحدٌ أن روبرت هو اللص.

- ها أنا ذي أعتقد أن روبرت فعلها، وأعلم أنك لم تكن لتسرق ذلك الأناناس قط. دفعتِ كلارا يداً من بين القضبان لتمسك إحدى يدي ويل ساكبةً كل دفئها وأملها وشجاعتها في راحة يده. ستخرجه من هذه الأقبية. كانت جل أمنياتها أن ينصت الكونت إلى دفاعها.

الفصل الثالث والثلاثون
(البيت الكبير)

عندما وجّه ريد كلارا لصعود سلم الخدم المؤدي إلى الجزء الرئيس من البيت الكبير، راحتِ كلارا تتساءل عن طريقةٍ تخاطب بها الكونت. هل تنحني له أم تصافحه؟ فتحت قبضتيها فتذمرت لرؤية أصابعها الملطخة بالفحم وأظفارها المحشوة بالأوساخ، فكأنما هي خارجةٌ تواً من منجم فحم. مسحت يديها بمئزرها، لكن هذا لم يُفضِ لأكثر من أوساخٍ تُضاف إلى الأوساخ الموجودة أصلاً. عند أسفل الدرج تلألأتِ الأضواء الساطعة من المنزل الكبير كأنما تدعوها إلى الصعود؛ أما على الحائط فتم تركيب سبورةٍ حبستِ كلارا أنفاسَها حين قرأت ما كُتب فيها بالطباشير:

رسالةٌ من مدبرة المنزل

القواعد التي ينبغي للخدم مراعاتها عند دخولهم المنزل

احرص على ألا تسمع سيداتُ المنزل وسادتُه صوتَك أبداً.

احرص دائماً على إفساح المجال والابتعاد، إذا ما واجهتَ واحداً من أرباب عملك.

لا تُبدِ رأيك لسيدات المنزل وسادته أبداً.

لا تلمس أثاث سيدات المنزل وسادته أو متعلقاتهم إلا إذا ما دعاك واجبُك إلى ذلك.

أي كسرٍ أو ضررٍ يلحق بالمنزل بسببك تُخصم كلفته من راتبك.

التوقيع: السيدة جيلبرت

تدنو أصواتٌ فتتجمد أقدام كلارا على الأرضية الحجرية.

- انطلقي يا كلارا. الآن.

انعطفت.

رمقها ريد بنظرةٍ يائسةٍ قائلاً: «سأشغلهم عنكِ.» واندفع نحو الأصوات فتوقفتِ الخطى، وسمع صوتُ امرأةٍ تقول بصرامة:

- لا ينبغي لك أن تكون في هذا الرواق.

- أنا ... أعرف ... تلعثم ريد.

حث صوتُه خطى كلارا على المضي قُدماً، فركضت تصعد الدرج متجاوزةً كلماتِ السبورة المحدّقة فيها مستنكرة، ثم توقفت أمام الباب المؤدي إلى قسم سادة البيت الكبير ... الكونت وعائلته، ففتحته لتجد نفسها أمام بهوٍ فسيحٍ به أعمدةٌ من الرخام الأحمر اللامع تشرئبّ وصولاً إلى سقفٍ عالٍ تعلوه قبةٌ زجاجية، أما اللوحات المذهبة فكانت كبيرةً تكاد تغطي الجدران وراءها، وكانت في وسط الردهة قاعدةٌ نُحتت عليها ثمرة أناناس ضخمةٌ من رخامٍ أبيضَ.

أوغل الخوفُ في معدة كلارا انقباضاً حين فتحتِ البابَ على مصراعيه، ومضت في رواق الردهة الذي لا تصح تسميته رواقاً لِما يتّسم به من كبرٍ وفخامةٍ، والذي قد يتسع لمائةٍ من أمثال رواق منزلها. رمشت عينا كلارا متمنيةً لو أنّ لها أن تقف هنالك لبعض الوقت فتُلقي التحيةَ على كل لوحةٍ وتمثالٍ وتحفةٍ معلقةٍ على جدارٍ، وكل بلاطةٍ في أرضيةٍ من الرخام الأسود والأبيض، وكل طاولةٍ خشبيةٍ لامعةٍ مزينةٍ بزخارف البورسلين، وكل أصيص زهرٍ يعطر الهواء بعبير الصيف؛ لكن الوقت لم يكن في صالحها؛ فقد كان عليها أن تجد المكتبة وبسرعةٍ. خطت على الرخام خطوةً ...كليك؛ كليك؛ كليك ... تردد صدى حذائها في الردهة الكهفية؛ فانحنت وخلعت حذاءها على عجلٍ وحملته في يمناها، وركضت تنزلق على الأرض نحو بابٍ خشبيٍّ كبيرٍ جاثمٍ في جوف القاعة، فكأنما هو مخصصٌ للعمالقة إذ يكبرها بثلاث مراتٍ على أقل تقديرٍ.

سمعت من تلقاء الداخل تمتمةً. أهو الكونت؟

- أنتِ ... هناك ... جاء الصوت من خلفها؛ فالتفتت لترى رجلاً بمعطفٍ أسودَ أنيقٍ، وقميصٍ أبيضَ، وقفازاتٍ ... إنه كبير الخدم الذي أضاف: «من أنتِ؟ وماذا تفعلين هنا

بحق الجحيم؟

استدارتِ كلارا نحو الباب مجدداً، وأمسكت بمقبضه البرونزي الضخم وأدارته، فلم يتحرك.

دنا منها كبير الخدم بخطواتٍ مترددةٍ.

دفعتِ البابَ لفتحه دفعةً أكبرَ.

- مكانَكِ! لا يمكنك الدخول إلى هناك. توقفي!

ضغطتِ كلارا بكل ثقلها على الباب الذي انفتح بصوتٍ منخفضٍ فدخلت لاهثةً، لترى أعمدة أناناسٍ من الرخام الأصفر، وأرائكَ وكراسيَّ حريريةً خضراءَ، وثريا كريستاليةً كبيرةً تتلألأ في ضوء الشمس المتدفق عبر النوافذ الممتدة من الأرض إلى السقف، والكثيرَ الكثيرَ من رفوف الكتب. كانتِ النار تصطلي في الموقد الذي كان كبيراً بما يكفي ويزيد لوقوف كلارا وأسرتها بأكملها داخله.

سمعتِ كلارا همساً آخر، ورأت مؤخرة رأسٍ نحيلٍ ذي شعرٍ رقيقٍ شابَ أدناه، بينما يرتفع أثر دخان غليونه إلى السقف.

ولما خطت تتقدم نحوه أحست بيدٍ تحط على كتفها.

- هذا كافٍ أيتها الشقية! قال كبير الخدم لاهثاً.

حاولتِ كلارا أن تفلت من قبضته، لكن أصابعه كانت قد تمسكت بها بقوةٍ.

التفت ذو الرأس الأشيب، ثم نهض من كرسيه وفي يده غليونٌ فرمى على السجادة صحيفةً كان يحملها، وقال:

- ما الذي يحدث بحق السماء يا ريتشاردسون؟

- أنا آسفٌ جداً يا سيدي. لا أعرف كيف دخلت. قال الخادم بصوتٍ متقطع بينما هو يغرس أظفاره في جلد كلارا التي كانت تتلوى.

ضاقت عينا الكونت، فنظر إلى كلارا من أعلاها إلى أدناها، ثم نظر إلى حذائها

الذي ما زالت تحمله في يدها، وإلى آثار هباب الفحم في مئزرها ووجهها.

الدفيئات. ويل. روبرت. الأناناس المسروق. كل ما أرادتِ كلارا قوله كان مختلطاً يدور في رأسها كالدوامة.

وجّهها كبيرُ الخدم إلى الباب قائلاً: «أنا آسفٌ جداً يا سيدي. سأتخلص منها على الفور.»

لا. لم يكن من المفترض أن يحدث هذا؛ وعندما سحبها كبير الخدم بعيداً عن الكونت أفلتتِ كلارا حذاءها ليرتطم بألواح الأرضية اللامعة، فتشبثت بزاوية عتبة رفٍ حين دُفعت نحو الباب، فترنح تمثال من خزفٍ لراعٍ صبيٍ يقف حذاءَ شاةٍ كثّةِ الصوف. حبستِ كلارا أنفاسها وهي تنزلق على حافة الرف، فهرعت تحاول إنقاذه لكنها لم تكن سريعةً بما يكفي، فسقط تمثال الصبي الخزفي، وانفصل رأسه الملائكي عن جسده بصوتٍ عالٍ له صليلٌ، وتدحرج تحت الطاولة. نظرت إلى القطعةِ الخزفيةِ (النفيسةِ بلا ريبٍ) بقدرٍ كبيرٍ من الهلع. ها هي ذي تكسر قطعةً جميلةً أخرى ... ولكنها ليست كإطار بساط السيدة جيلبرت لناحية أنها تشك في امتلاكها ما يكفي من المال لاستبدالها. لا بد أن الكونت غاضبٌ ولن يرغب في سماع ما ستقوله عن ويل، فإذا كان كذلك، فكيف لها أن تساعد صديقها الآن؟

الفصل الرابع والثلاثون
(الكونت)

كانت ساعة الجد في الزاوية تدق، والنار في الموقد تئز، وأنفاش كبير الخدم تتهافت، وأذنا كلارا تحترقان حين قالت راكعةً على ركبتيها: «أوه!» وراحت تجمع قطع التمثال الخزفي المكسورة بيديها، وأضافت: «أوه! عزيزي!»

- أعطها لي. ستحاسَبين على تعديكِ على ممتلكات غيرك وإلحاقكِ الضرر بالممتلكات الخاصة. هل تسمح لي بإبلاغ الشرطة يا سيدي؟ قال الخادم صاكّاً أسنانَه.

جثتِ كلارا محدقةً في الخزف المكسور مستذكرةً القواعدَ التي كتبتها السيدة جيلبرت على السبورة، فقد كسرت أحدها للتو. نهضت محدقةً في وجه الكونت المتغضن، وقالت:

- أنا آسفةٌ لكسره ... سيدي، لكني قصدتك لأقول لك إن عليك أن تعلم أن الصبي المحتجز في الأقبية ليس لص الأناناس.

أمسك كبير الخدم بكتفها مرةً أخرى بقبضةٍ أقوى، وقال:

- كنتُ أعرف ذلك. إنها صديقة المتسلل ذاك.

- انتظر. قال الكونت رافعاً كف يده، ثم وضع غليونه إلى جوار طبقٍ زجاجيٍّ به بعضُ البرتقال، ثم تناول جريدته وطواها وهو ينظر إلى كلارا، وقال:

- ربما كان من الأفضل لنا أن نبدأ بالمقدمات. ماذا عنك؟

- كلارا. ابنة أخ السيدة جيلبرت. قالت بصوتٍ مرتعِش.

- ابنة أخ السيدة جيلبرت. السيدة جيلبرت المدبرة التي تعمل عندنا؟

أومأت كلارا برأسها. يبدو أن السيدة جيلبرت لم تكن تعمل بشكل غير مرئيٍّ كما اعتقدت.

- انتهت مهمتك الآن يا ريتشاردسون. قال الكونت مشيراً إلى كبير خدمه بحزمٍ.

- لكن سيدي ... قال ريتشاردسون مُزيحاً مخالب يده عن كتف كلارا.

- قلت انتهت. قال الكونت لكبير الخدم بنظرةٍ صلبةٍ كجلمودٍ، فكادتِ كلارا تسمع من السخط تفتت جلد كبير الخدم وقشعريرته ، وهو يغادر الغرفة ويغلق الباب بهدوءٍ.

دعا الكونت كلارا للتقدم.

- أنا آسفةٌ ... سأطلب من والديّ أن يقرضاني المال لأشتري لك مثلها. قالتِ كلارا حاملةً التمثالَ المكسور بين يديها.

- لقد كان هدية الزفاف من ابن عمٍّ لي بعيدٍ في فرنسا، ولم أحبّ هذه القطعةَ قط. قال الكونت مبتسماً لها ابتسامةً صغيرةً، غير أنّ في صوته حزناً جعل كلارا تتساءل ما إذا كان يقول الحقيقة كاملةً. أخذ منها القطع المكسورة، ووضعها برفقٍ قرب وعاء البرتقال.

- هلّا أطلقت سراح ويل فضلاً. إنه ليس لصاً. قالتِ كلارا بصوتٍ منخفضٍ.

ضاقت عينا الكونت، فأضافتِ كلارا:

- إنه يحب الحدائق ... ويطمح أن يعمل فيها يوماً ما، فهو يحب الأناناس حبَّه ... لعائلته، غيرَ ألا عائلةَ له الآن؛ فإذا ما اتُّهم بالسرقة انتهى أمرُه. مؤكدٌ أنه سيودَع السجنَ.

تحول الكونت بناظريه نحو المصطلى الذي يلفظ نارَه في الشبك المحاذي.

- لقد تحدثتُ إلى شقيق الصبي، وهو البستاني روبرت. أليس كذلك؟ يبدو أن لويل هذا باعاً في السرقة.

- لا. أنت مخطئ.

فرك الكونت أذنه اليمنى كما لو كانت تلك الكلمات غير مألوفةٍ بالنسبة إليه.

كان مصير ويل في تلك الأقبية الرطبة يعتمد على تصويبها الأمور، فقالت:

- العكس هو الصحيح. روبرت هو من أخذ الفاكهة.

تحول الكونت إليها مطأطئاً رأس، وقاله:

- هذا ... اتهامٌ خطيرٌ نوعاً ما. وفرك ذقنه، هل لديك أي دليلٍ؟

حدقت كلارا في وجهه. أدلةٌ. لا دليل لديها.

- هل تحبين الكتب يا كلارا؟

أومأت كلارا برأسها.

- ماذا تقرئين الآن؟ سأل الكونت.

رمشتِ كلارا بعينيها، إذِ اتخذتِ المحادثة منعطفاً مثيراً للفضول، فقالت: (كتاب الأدغال).

- آه! نعم. للسيد كيبلينغ حجيد بنسج المغامرات. أليس كذلك؟ قال الكونت ناظراً إلى رفوف الكتب، وقال:

- شارلوك هولمز هو أحد المفضلين لدي، فلو كنتُ أنا شارلوك لقلتُ إن الأدلة المقدمة لي أدلةٌ دامغةٌ لا تقبل الجدل، فقد رأيتُ بأم عيني كيس الفاكهة في غرفة المرجل، وقائمة الفاكهة المسروقة في دفتر الصبي، ورسوماته عن البيوت البلاستيكية والأناناس، والتي لا يسعني إلا أن أقول إنها كانت ناجحةً للغاية حقاً. وحك الكونت ذقنه، ثم ألقى نظرة استجوابٍ طويلةً على كلارا منتظراً ردها.

ولكن ... ليس لديها ما تقوله. لا شيء. شعرتِ كلارا أنها كانت كمركبٍ شراعيٍّ في عُرض بحرٍ لا رياح تهب فوقه. كان الكونت محقاً حين قال ألا دليلَ على أن روبرت هو سارق الأناناس، وبذا لم تستطع فعل أو قول شيءٍ تنقذ به ويل.

رن الكونت جرساً فضياً صغيراً، فظهر ريتشاردسون وانحنى تحيةً، وبدا كلاهما كان يصعد درجاً.

- احرص على أن تعود الآنسة كلارا إلى كوخ البستاني بأمانٍ. قال الكونت.

أومأ ريتشاردسون برأسه محدقاً في كلارا بنظرةٍ متسلطةٍ، وقال: «رتبتُ لذلك مقدماً سيدي؛ فقد راسلتُ السيدة جيلبرت، وهي في طريقها لأخذ الفتاة.»

رأتِ كلارا في عيني ريتشاردسون بريقاً يدل على أنه كان يعلم جيداً أن عمتها ستوبخها فورَ وصولها، فدستِ كلارا يديها في جيوب مئزرها، وعدّلت كتفيها، واستعدت لتقبُّل أي عقابٍ لقاءَ محاولتها تبرئة ساحة ويل، لكن الوقت بلا شكٍّ راح ينفد منها حثيثاً.

الفصل الخامس والثلاثون
(ليلةٌ عاصفةٌ)

لم تنبسِ السيدة جيلبرت بكلمةٍ لكلارا، بينما هما تسيران نحو أدنى التل قاصدتَين كوخ البستاني. كانت قد حزمت شعرها إلى الخلف ككعكةٍ مرصوصةٍ بإحكامٍ مظهرةً ما حول عينيها من جلدٍ شاحبٍ، وخطوطٍ باهتةٍ للضحك الذي لا تستخدمه، فكأنها آثارُ مكابحَ صدئةٍ تحت عجلة دراجةٍ. عندما سلم ريتشاردسون كلارا لها رمقته السيدة جيلبرت بنظرةٍ ممتعضةٍ، فردّ لها ريتشاردسون النظرة بنظرةٍ متعجرفةٍ جعلتِ السيدةَ جيلبرت تنخر، وتشد ذراع كلارا مبتعدةً بها عنِ المنزل.

في أثناء مرورهما بالإسطبل رأتِ كلارا روبرت ينظف عربة الخيول، ويكدس فيها صناديقَ فارغةً جاهزةً لتحميلها بإمداداتٍ أخرى للمستشفى، فرفع رأسه ناظراً إليهما حين مرورهما، بينما أطرقتِ كلارا، وعضت باطن شفتها حتى آلمتها. كيف له أن يُحمِّل ويل وزرَ ذنبه هو؟ تعاظم الغضب فيها تعاظُم العواصف.

كان السيد جيلبرت على الشرفة منتظراً، بينما هما تسيران في الجادة المرصوفة بالحصى، فتنحّى جانباً مفسحاً الطريق للسيدة جيلبرت وكلارا عند الباب، تنهد بعمقٍ جعل كلارا تشعر ببعض الغثيان.

قادت السيدة جيلبرت كلارا إلى غرفة المعيشة، ثم وقفت وظهرُها إلى النافذة، وراحت تعبث بالصليب حول رقبتها، وتفرك ذهبه بإبهامها. لقد مرتِ الكثير من الأحداث ولمّا تبلغِ الساعةُ العاشرةَ بعدُ. أشعل السيد جيلبرت ناراً صغيرةً حين لم تكن كلارا قد شاهدت ألسنة اللهب تتراقص في الصباح قبل ذلك، وهذا قد يدل على أنها ستقضي بعض الوقت في هذه الغرفة مع عمتها وعمها لمناقشة آثامها.

- إذن فقد هربتِ من منزلي وتوليتِ زمامَ زيارة الكونت، وهو أمرٌ مرفوضٌ يا كلارا، فمثل هذه التصرفات لن تفيد، وليست مقبولةً أساساً هنا. قال السيد جيلبرت بصوتٍ منخفضٍ وقد خطى للوقوف إلى جوار زوجته.

فكرتِ كلارا فيما كتبتِ السيدة جيلبرت على السبورة من قواعدَ كسرتها كلارا

جميعاً في غضون ساعةٍ، ثم قالت:

- كانت غايتي الوحيدة هي أن أساعد ويل.

- لقدِ اكتشف توماس أمرَ ويل، فما عاد للصبي فرصةٌ للنجاة. قال السيد جيلبرت.

تشنج جلد كلارا، فألقت نظرةً خاطفةً إلى النافذة المطلة على البحيرة الصغيرة وراءَ السيدة جيلبرت من خلال النافذة فكان طيرا بجعٍ ينزلقان فوق الماء بعنقين ملتويين كعلامتَي استفهامٍ؛ فسألتِ كلارا على عجلٍ:

- لماذا، سيدة جيلبرت، تلتقين بتوماس في الصباح الباكر فتعطينه منتجاتٍ من الحديقة، وتواسينه حين بكى؟

غدا وجه السيدة جيلبرت شبه شفافٍ كما لو أن كل دمائه انسابت منه؛ فهمست: «فرانك.»

احمر خدا السيد جيلبرت.

تنقلت عينا كلارا بين عمتها وعمها.

- هل كنتِ في غرفة فرانك؟ هل قرأتِ رسائلي إليه؟ قالتِ السيدة جيلبرت بنبرةٍ حادةٍ.

- غرفة فرانك؟ سألتِ كلارا في حيرةٍ.

- كان عمره ست سنواتٍ. ست سنواتٍ فقط. قالتِ السيدة جيلبرت بعينين جاحظتين لامعتين دامعتين.

ابتعدتِ كلارا عن السيد والسيدة جيلبرت إلى أن سخّنت حرارة النار ظاهر ساقيها.

- كان فرانك ابنَ أخي. ابن أخي توماس، وكانَ قد جاء للمكوث معنا منذ صيفين انقضيا، لكنه تعرّض لحادثٍ مات على إثره، فأنا منذ ذلك الحادث عاجزٌ عنِ التحدث إلى أخي توماس. إنه الإحساس بالذنب إن كنتِ تعين مقصدي. قال السيد جيلبرت ناظراً إلى السقف: ولقا علمث ليزي أن توماس يخيم مع الفوج في مخيمٍ قررتِ

التحدث إليه محاولةً إصلاح ما جرى بيننا من قطيعةٍ ورأبه.

عضتِ كلارا إبهامها. كان في رسائل السيدة جيلبرت حديثٌ عنِ النزهات والفرس كيتي، وعن أشياءَ يصنعها الصغار. نعم. لقد كان الشخص في رسائلها صبياً.

سقطتِ السيدة جيلبرت جاثيةً على ركبتيها فوق السجادة كبالونٍ يفقد هواءه، فركع السيد جيلبرت إلى جوارها وضمها بذراعه مزيلاً شعرها الطائش على خدها. لقد كان رقيقاً رقةً جعلتِ كلارا تعاني التهاباً في حلقها. تحررتِ السيدة جيلبرت من ذراع زوجها، ومسحت أنفها بمنديل، وقالت بشفةٍ سفلى مرتعشةٍ:

- لم نُرزق بطفلٍ فكان فرانك كابنٍ لي في ذلك الصيف. أعتقد أن هذه الرسائل كانت طريقتي للتغلب على ... حسرتي. عندما أكتب له، يبدو الأمر لي كما لو أنه لا يزال بيننا.

- أنا آسفة، فأبي لم يخبرني بذلك قط. قالتِ كلارا بهدوءٍ.

نظرت السيدة جيلبرت إليها شزراً، وقالت:

- بعض الأشياء يصعب قولها.» ونظرت من النافذة مضيفةً: «كان فرانك يحب البيوت الزجاجية، وخاصةً عندما يكون الجو عاصفاً، فأضمرنا أن نتظاهر أننا في قاربٍ وسط البحر، والأمطار والرياح تئن وتهز النوافذ.» ابتلعت ريقها: إلى أن توسل إليّ ذات ليلةٍ أن آخذه إلى منزل الأناناس، ذاك المكان الذي أُحبّه أكثر من سواه ... وذلك لرائحة أرضه الدافئة، ونباتاته التي كان يسميها بالرؤوس الصغيرة، فيتحدث إليها، ويطلق عليها الأسماء؛ فكان «المايسترو» هو المفضل لديه.»

مايسترو. ذلك الاسم على القصاصة الورقية خلف البساط. النقش على الصفيحة النحاسية، السلام العميق للأرض الوادعة ... إنها تذكارٌ في ذكرى فرانك الصغير.

- كانتِ الرياح قويةً بينما ركضنا عبر الحدائق. حدث كل ذلك في لحظةٍ واحدةٍ ... سقط فرعٌ من شجرةٍ بجوار الدفيئات؛ شجرةٍ كان الكونت على علمٍ بقربها من منزل الأناناس، شجرةٍ كان قد تحدث عن ضرورة إزالتها بسبب نموها بشكلٍ كبيرٍ، لكنه لم يصدر قراراً بإزالتها، فقد أحبتِ ابنتاه اللعب تحت تلك الشجرة التي لم

يكن هناك ما يشير إلى خطورتها، فهوى علينا غصنها ... فأصبتُ في ساقي، وأصيب فرانك في رأسه ...» فركتِ السيدة جيلبرت رقبتها. «... فمات من فوره ودونما ألمٍ.»

أحرقتِ الدموع حلق كلارا.

- وغدا الكونت ... محطماً بعد الحادثة، فراح يترك الفاكهة أحياناً على جذع الشجرة بالقرب من منزل الأناناس، وفي الأماكن الأخرى من الحدائق، والتي كان فرانك يحب اللعب فيها ... فكانت تلك هي طريقتَه في تذكره في اعتقادي.» أضافتِ السيدة جيلبرت.

لم يكن للبرتقال الذي كانت تعثر عليه هي وويل أي صلةٍ بلص الفاكهة، بل كان الكونت هو من يتركه هنالك لِما حل به من جزعٍ بالغٍ بعد وفاة فرانك.

- ولما كان الكونت امرأً سخياً فد سمح لنا أن نستثمر الحدائق، فأنا أعطي الخضرواتِ الزائدةَ عن الحاجة للفوج عبر توماس في بادرة خيرٍ، أما السيد جيلبرت وروبرت فكانا منهمكين ومنهكين قلقاً على الفاكهة المسروقة، فعرض توماس المساعدة في مراقبة الدفيئات. قالتِ السيدة جيلبرت.

- وأنا سعيدٌ بصنيعه ذاك. قال السيد جيلبرت مبتسماً لزوجته ابتسامة صغيرة وكأن ما بينه وبين أخيه قد حُلَّ أخيراً.

- لم أقصد أن أكون طائشةً ... أو أتطفل على أشيائك، سيدة جيلبرت، وأنا آسفةٌ جداً لما حل بفرانك. كل ما خطر لي هو ... أن أعرف ما إذا كانت لي رسائلُ من أمي أم لا، وأني خِلتكم تُخفون عني أمراً. قالتِ كلارا متحشرجةً.

وقفت السيدة جيلبرت، وأمسكت بيد كلارا اليمنى جاذبةً إياها نحو السجادة حتى أجلستها أمامها، فكانت أصابع السيدة جيلبرت باردةً كأنما أُخرجت تواً من بركةٍ متجمدةٍ، فقالت: - أنا آسفةٌ لأني أسأتُ معاملتك جداً ... وما ذاك إلا أنكِ ... تذكرينني بمن فقدتُ. إن تحمُّل مسؤولية طفلٍ آخر يُترك هنا ... بات أمراً يصعب عليّ جداً؛ ولكن ... نادِني بعمتي إليزابيث. سأكون سعيدةً جداً بسماع هذا الاسم مرةً أخرى. وباتت يدا عمتها أقلَّ برودةً، ووجهُها أقلَّ شحوباً وانكساراً: ثم إني سمعت عن أمك

أخباراً يا كلارا؛ لكنها لم تراسلنا، بل تحدثت معها عبر الهاتف ... في البيت الكبير.

والدتها لم تكن تكتب؟ أي أنها كانت تبحث عن رسائل ليست موجودةً أصلاً؟

- إنها ... لم ترغب في الكتابة إلى أن تصبح الأمور أكثر ... يقيناً. قال عم كلارا بفظاظةٍ.

احمرَّ وجه عمتها، ثم قالت بهدوءٍ:

- لقد أخفينا عنك سراً يا كلارا. سراً يتعلق بعائلتك.

انطوت أحشاء كلارا على ذاتها طيَّ الأكورديون.

نظرت عمتها في عينيها مباشرةً:

- لكني أعتقد أن الوقت قد حان لتعرفي الحقيقة.

الفصل السادس والثلاثون
(مغلف كلارا)

«الحقيقة ... الحقيقة ... الحقيقة.» دارت هذه الكلمة حول رأس كلارا كأنما هي تتقافز على وقعِ أنفاسها المتشنجة؛ فسحبت رسالة وزارة الحرب المجعدة من جيبها بسرعةٍ وسلمتها لعمتها.

- ما هذا؟ قالت عمتها وقد تغضن جبينها.

- «ظرفٌ استلمته من ساعي البريد قبل أن يغادر أبي وأمي إلى ديفون؛ ولم أرغب في الاحتفاظ به ... لكن أبي كان مريضاً جداً، وكنتُ قلقة للغاية، ثم إنهما غادرا وفات الأوان، ففكرتُ أن أعطيكِ إياها، لكنك ... قالتِ كلارا قبل أن تتوقف مؤقتاً.

- أفترضُ أني كنتُ خلافَ ظنك بي. قالت عمة كلارا بنظرةٍ متفهمةٍ.

أومأتِ كلارا لها إيماءةً قصيرةً.

- افتحي الرسالة. قالت عمة كلارا وهي تحدق في طابع وزارة الحرب وقد ارتجفت شفتاها؛ فهل كان ذلك لأنها تخيلت من الأخبار الرهيبة ما تخيلتِ كلارا؟ فكرت في ويل وكيف أخبرها ألا شيءَ أسوأ من عدم معرفة الحقيقة، وفكرت كيف أوصاها والدها أن تكون شجاعةً، وقد كانت شجاعةً إذ تعقبت ويل حتى الأقبية، وواجهتِ الكونتَ؛ ولكن يدي كلارا رغم ذلك ظلتا ترتعشان عندما دست إصبعها في الظرف وفتحته مخرجةً الرسالة. كان الخط مبهماً تتقافز حروفه أمام عينيها كضفادعَ صغيرةٍ في بركةٍ.

«... تم نقل الجندي كريستوفر ميلار إلى مستشفى الصليب الأحمر في بليموث ... نحن متفائلون بحذرٍ بأنه سيتعافى تماماً بعد إعادة تأهيلٍ مكثفٍ ...»

رمشتِ كلارا. لم يكن كريستوفر مصاباً بجروحٍ قاتلةٍ؟ هل سيتعافى؟

- نأسف لسماع إصابة أخيك. قالت عمة كلارا منتزعةً الرسالة من يدها.

- هل كنتما تعلمان ذلك؟ قالتِ كلارا رامشةً بعينيها مرةً أخرى.

- كان مكتب الحرب قد أرسل لوالديك قبلها برقيةً، لم يكن الحال بموجبها يدعو للتفاؤل كما هي حال هذه البرقية، وقد طلب منهما الذهاب إلى ديفون على الفور، ثم تبين أن هنالك خلطاً جرى في محطة إخلاء الضحايا في روان؛ فتم نقل كريستوفر إلى بليموث بدلاً من العودة إلى منزلكم في كينت.» قالت عمتها مومئةً برأسها.

- إذن ... فأبي لم يذهب إلى ديفون للعلاج؟ قالت كلارا ببطءٍ إذ راح ينهار في رأسها كلُّ ما حسبته حقيقةً.

- لا. قالت عمة كلارا: رغم أني أعتقد أن هواء البحر كان في صالحه، فقد قالت أمك أن رئتيه تحسنتا أخيراً، وأن في مقدورك العودة إلى المنزل في غضون أيامٍ قليلةٍ.»

لقد كان ويل على حقٍّ حين قال إن عليها مواجهة مخاوفها عاجلاً وفتح الرسالة، فلو أنها فعلت ذلك ما أضاعت كل هذا الوقت في القلق والتساؤل.

اقتربت العمة إليزابيث، ووضعت يدها على ركبة كلارا، وقالت:

- لقد أخبرتني أمك أنك تلقيتِ خبر تسمم والدك بالغاز أسوأ تلقٍّ، فراحت تلازمكِ الكوابيس المروعة، فرأى ذووك أن مصلحتك تتطلب المكوثَ بيننا ريثما تغدو الأخبار أكثر ... يقيناً.»

الكوابيس. لكن تلك الكوابيس كانت تراودها جرّاء قصص أبيها، أم أنها كانت لذلك السبب فعلاً؟ لقد بدأ والدها قصَّ حكايات ما قبل النوم على مسامعها حينما عاد من فرنسا، فكان كلٌّ منهما لا يجد طعم النوم في تلك الليالي. أكان يخبرها عن جرأة المستكشفين الذين يتسلقون الجبال كي تكتسب مزيداً من الشجاعة والقدرة على مواجهة الحرب وما فيها من فظائع؟ استنشقت نفساً عميقاً، وتركت هذه الأفكار الجديدة تترسخ في رأسها فيغدو رأسها بيتاً لها ومسقط رأسٍ.

ولكن اللغز الأكبر ظل معلقاً بلا حلٍّ رغم حل معظم الألغاز.

- ولكن ماذا عن ويل والسرقات؟ سألت كلارا بصوتٍ خافتٍ.

- لا أريد أن أسمع المزيد عن هذا الأمر الآن. قال عمها، وهز رأسه: لدينا دليلٌ على أن ويل هو من سرق الفاكهة يا كلارا، وأخشى أن هذا كل شيءٍ. ستصل الشرطة عما قريبٍ لأخذه إلى المدينة وتوجيه تهمة السرقة له ... بل أخشى أن تغدو أمور هذا الصبي سيئةً للغاية.

***

كان ذلك في وقتٍ مبكرٍ من مساءٍ ذي سماءٍ صافيةٍ وادعةٍ، وقد غطت أوراق شجر التفاح والكمثرى العشبَ ببساطٍ رماديٍّ مقرمشٍ، بينما امتزج نشاز زقزقة الطيور في لحنٍ رخيمٍ وداعاً ليومٍ آخر. جلستِ كلارا مسندةً ظهرها إلى جذع شجرةٍ، مغمضةً عينيها، مفكرةً في ويل. كانت قد شعرت بحزنه حين دفن متاع أبيه، وبفرح عينيه حين يكون مع الأناناس، وبسروره وعنايته التي يوليها لها في رسوماته، وبأمله في حياةٍ أفضل. كان لا بد من وجود طريقةٍ لمنع الشرطة من توجيه الاتهام إليه؛ لأنها تعرف في أعماقها يقيناً أنه بريءٌ مما نُسب إليه؛ ولذا كان عليها أن تلعب دور المحقق كما قال الكونت فتجد دليلاً قوياً يثبت تورط روبرت في تلك السرقات.

سقط على مئزرها شيءٌ صغيرٌ خفيفُ الوزن. إنها يرقةٌ خضراءُ صغيرةٌ تتلوى على ظهرها، وقوائمها تلوح ضعيفةً في الهواء. ساعدتها كلارا بإصبعها برفقٍ وقالت: «مرحباً!» فاعتدلتِ اليرقة وصعدت إصبعها بحذرٍ حتى دنت من معصمها.

سمعتِ كلارا باب الكوخ الأمامي يُفتح، فإذا به روبرت يخرج للجلوس على شرفته، فاستند إلى جدار القرميد، وأمال رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه وضم ركبتيه بين يديه بإحكامٍ. كان يبدو لطيفاً للغاية عندما وصلت وهو يتحدث عن زيارة أماكنَ بعيدةٍ يُزرع فيها الأناناس، فخالت أنه كان يحمي ويل بإخفائه إياه في غرفة المرجل، بينما كانت حقيقةُ نواياه فظيعةً جداً. طافِ الغضب برأسها.

دغدغت قوائم اليرقة ذراع كلارا. سرعان ما ستجد مكاناً لبناء شرنقتها فتتحول إلى شيءٍ آخر وتطير بعيداً. رمشتِ كلارا بعينيها إذ لمع في رأسها لامعٌ كأنه

المصباح، ثم تسارعت أفكارها، وتساقطت قطع اللغز في أماكنها.

***

كان الكوخ هادئاً، وكان البستانيون يتناولون الشاي في البيت الكبير. كان ويل قد قال إن روبرت يسكن مع بعض مساعدي البستانيين في غرفةٍ من غرف الطابق السفلي، وهنالك وجدت نفسَها، فانسلّت على طول القاعة، وسحبت مزلاج الباب، وألقت نظرةً خاطفةً في الداخل لترى ثلاثة أسرّةٍ وطاولةً صغيرةً إلى جوار كلٍّ منها؛ فخالطها انزعاج عميقٌ بات في أحشائها. إنْ أصاب رأيُها تغيّر كلُّ شيءٍ بالنسبة إلى ويل ... ولروبرت كذلك.

سارت بسرعةٍ نحو الطاولة الأولى فوجدت هنالك كتيبَ بستنةٍ، ومفكرةً، وقلمَ رصاصٍ. كان الدفتر كدفتر ملاحظات ويل ... أزرقَ ذا غلافٍ. فتشته فكان كتاباً لرجل يُدعى جورج، ويحتوي على قوائم بمهامّ البستنة.

التفتت إلى الطاولة التالية التي كان أعلاها شفافاً، ففتحت درجها الصغيرَ وتحسست ما فيه، لكنه كان فارغاً. عبستِ كلارا. لم يكن الشخص الذي ينام على هذا السرير يملك متاعاً شخصياً؛ أو لعله تقصّد إخفاءه. استدارتِ كلارا نحو السرير ورفعت زاوية فراشه فسمعت صرير هيكل السرير العالي، مما جعلها تتوقف وتنظر إلى الباب فإذا بالردهة لا تزال هادئةً.

لم يكن تحت السرير شيء، فخطرت لها شقوق فراشها حين فتشت عن مكانٍ سريٍّ لتخبئة الأشياء؛ فانحنت ومدت يدها داخله وخارجه فلم تعثر على شيء.

اجتاحها الإحباط؛ فكان عليها أن تبحث في مكانٍ آخر، ولذا نظرت في أركان الغرفة، فرأت خلف الباب ... سترة روبرت المخصصة لأعمال البستنة، والتي كانت ذاتَ بطانةٍ صفراءَ مميزةٍ؛ وقد علقها على مرأىً من الجميع.

أنزلته كلارا من خطافه وتحسست جيوبه فكانت خاويةً؛ ثم ربتت على السترة فسمعت لها حفيفاً إذ كان في بطانتها شيءٌ مخفيٌ. دست يدها في الجيب الأيمن منها مفتشةً فإذا به ثقب صغيرٌ قد خِيطَ يدوياً خياطةً خشنةً كما لو رتقه وفتقه

مراتٍ عدةً. تشنجتِ كلارا.

شدتِ الخيط وتحسست داخله بعنايةٍ فوجدت أوراقاً قامت بسحبها، ثم راحت تقلبها بين يديها إلى أن بدأ معناها يتجلى ببطءٍ؛ فتمثّل لها قولُ الكونت. كانت دليلاً جيداً، لكنه غيرُ كافٍ؛ فهي إذن في حاجةٍ إلى المزيد من الإثباتات. نظرت من النافذة فكانتِ السماء مظلمةً ... عمّا قريبٍ يعود البستانيون من البيت الكبير. لاحت لها في الأفق خطةٌ تلقي بها القبضَ على روبرت، وتَحمله من خلالها على الاعتراف بجرائره. كانت تأمل أن تنجح في ذلك وحسبُ، فمستقبل ويل رهنٌ بنجاحها.

الفصل السابع والثلاثون
(الشجاعة)

كانتِ كلارا عند حلول الليل تراقب الخفافيش وهي تنقضّ مقتربةً من الإسطبلات، وكانت الأيام والليالي تزداد برودةً مع اقتراب شتاء أكتوبر. سرعان ما هرعتِ الخفافيش إلى سباتها ملتجئةً من البرد في الحظائر والعليّات؛ فعرفتِ كلارا كما عرفتِ الخفافيش أن الوقت الذي قضته في كوخ البستاني قد شارف على الانقضاء، وأن أمامها بدايةً جديدةً في بيتها مع عائلتها وأصدقائها، لكنها لن تستطيع أن تغادر حتى تفعل كل ما في وسعها لمساعدة ويل الذي لم يعد له في هذا العالم مَن يسعى أمامه ... فلا أمَّ له ولا أب يتوقان لاستقباله في البيت آخر النهار، ولا أخَ يمكنه الاعتماد عليه في عصيبات الساعات، ولا سريراً وثيراً يأوي إليه إذا ما جُن عليه ليل.

كانت أوراق روبرت جاثمةً في قعرٍ عميقٍ داخلَ جيب كلارا بينما هي تسحب باب الحظيرة، وكانت العربة المحملة بالخضروات مقفلةً بالداخل، ولم يكن ذلك مفاجئاً جداً بطبيعة الحال. رأت شخصاً ما يقترب.

- كلارا. ماذا تفعلين هنا؟ قال روبرت متفاجئاً.

استجمعتِ كلارا كل شجاعتها متخيلةً نفسها تسحب شجاعتها في دلاءٍ من قاع بئرٍ، فعدّلت كتفيها، وقال:

- لقد طلب مني السيد جيلبرت أن أرافقك هذا المساء لنقل الخضار إلى المستشفى.

- لكنه قال لي أن آخذها غداً. قال روبرت عابساً.

- قال إن هنالك حالةً طارئةً تتمثل في نقصٍ في الغذاء. قالتِ كلارا بخفةٍ.

تقطّب حاجبا روبرت.

- سمعته كذلك يُثني على اجتهادك أمام السيدة جيلبرت، وأنك المفضل لديه بين جميع البستانيين. إخالُ أنه قد يدفع لك المزيد من المال هذا الأسبوع.

- حقاً؟ قال روبرت وقد برقت عينه السليمة بريقَ الملاعق.

أومأتِ كلارا برأسها محاولةً كبتَ الغثيان المتصاعد داخلها عند تفكيرها بكذبتها تلك.

***

لم تكنِ كلارا قد تجولت في جاداتِ الريف ليلاً قبل ذلك. قاد روبرت الفرسَ بمهارةٍ وسط الظلام كما لو أنه يحفظ الطريق غيباً، فتساءلتِ كلارا وهي تدفن يديها تحت غطاءٍ تغطي به ركبتيها عن عدد المرات التي جاز فيها ذلك الطريقَ. وخز غضبها أطراف بنانها، فترجمت غضبَها إلى كلماتٍ لم تستطع منعها من تجاوز حلقها، فقالت:

- هل رأيت ويل؟

كانت حوافر كيتي تنقر على الطريق بينما الرياح تحوم حول رأسيهما صافرةً مبعثِرةً خيوطاً رقيقةً من شعر كلارا فوق عينيها.

- لا. لقد تم نقله الى مركز الشرطة في المدينة. قال روبرت بجفاءٍ.

فكرتِ كلارا في أخيها ... ومدى ذعرها إذا ما تعرض لأذىً فعجزت عن دعمه، وكيف لا يسعها التفكير فيه لفترةٍ طويلةٍ، فقالت:

- عليك أن تساعد أخاك. إنه يحتاج إليك.

- الأمر ... أعقد من ذلك. قال روبرت بصوتٍ ضعيفٍ بينما تشق أضواء المدينة المتلألئة طريقَها في رداء الظلام الحالك.

- لماذا؟ قالتِ كلارا مصرةً، لكن روبرت لم يرد، بلِ اكتفى بالتحديق أمامه مباشرةً. نبتت في حلقها كلماتٌ أخرى ... كلماتُ اتهامٍ ودليلٍ على أنه لص الفاكهة.

كان الدخان يتصاعد من مداخن المستشفى في الظلام حين مر رجل وامرأة بالمنزل برفقة كلبٍ صغيرٍ يتنزهان في وقتٍ مبكرٍ من ذلك المساء، نبح الكلب فسحب روبرت زمام الفرس وأوقف كيتي ببطءٍ.

نزلتِ كلارا من العربة وداعبت خاصرة كيتي، كانت ساخنةً والأنفاس تخرج من خطمها لهثى، فأومأت برأسها كأنما تعبّر عن سعادتها بوصولها. ربطتِ كلارا كيتي إلى عمود إنارةٍ، وساعدت روبرت في تفريغ صناديق الخضروات وتكديسها على جانب الطريق، ولمّا توارى روبرت في مدخل المستشفى حاملاً منها صندوقين، رفعتِ كلارا زاوية قماشةٍ كانت تغطي صندوق بطاطسَ وجزرٍ قابعاً في جوف العربة؛ وفي مكانٍ آخر كان الشمندرُ والكراث معباً بإحكامٍ، فدستْ أصابعها بسرعةٍ وخفةٍ فوق الصناديق رافعةً الأقمشة تتحسس محتوياتها ذهنياً، فلم تعثر فيها على الأناناس أو التين أو الخوخ فتنهدتِ كلارا والتقطت صندوقاً صغيراً وتوجهت إلى مدخل المستشفى. ربما كانت مخطئةً في المحصلة.

دخلت من الباب ممرضةٌ بزيٍّ رسميٍّ أبيضَ بينما تتساءل كلارا عن طريقةٍ تفتحه بها وهي تحمل الصندوق في الوقت نفسه ؛ فابتسمت لها ابتسامةً مشرقةً، وقالت: «توصيل طلبات الطعام؟»

أومأتِ كلارا برأسها، ومضت قُدماً نحو الردهة فعلقت رائحة المطهّر في حلقها بينما كان روبرت أمامها قادماً في الاتجاه المعاكس، حاملاً صندوقين فارغين بين ذراعيه فأومأ لها في عجالةٍ.

- أهو الصندوق الأخير؟ سألت سيدة تولت تفريغ الصناديق التي سلمها روبرت في مخازن المطبخ.

- لا يزال هناك القليل منها كما أعتقد. قالتِ كلارا وهي تضع صندوقها أرضاً. أين هو روبرت الآن؟ أصغت تتلمس صدى حذائه الثقيل في الردهة، لكنها لم تسمع شيئاً.

هرولتِ كلارا نحو مدخل المستشفى، وفتحتِ الأبواب، ثم توقفت على الرصيف فكانت كيتي لا تزال واقفةً راضيةً بكيسٍ من التبن حشرت أنفها فيه، وقد راحت تهز ذيلها، بينما كانت آخر الصناديق تنتظر على الرصيفِ من يُدخلها. أين ذهب روبرت؟

تفحصت كلارا الشارع إلى يسارها ... فكان خاوياً، ثم التفتت إلى اليمين فكان خاوياً كذلك؛ فوقفت بهدوءٍ مفسحةً لأصوات المدينة ومشاهدها الليلية الطريقَ

للاستقرار في حواسها ... من أصوات إغلاق النافذة الباهت واصطفاق الستائر والرائحة العائمة لشيءٍ حلو المذاق كأنما هو الحليب بالكاكاو. كانت إحدى الأمهات تقف في المدخل المفتوح حاملةً بين ذراعيها طفلاً يتلوى في مهد، ثم رأت في العتمة ... إلى يمينها خيالاً على الجانب الآخر من الطريق. تمعنتِ كلارا في الظلام. هل يمكن أن يكون هو؟ راحت تجري في الشارع الطويل المرصوف بالحصى بقدمين خفيفتين هادئتين؛ لكن الخيال انجرف في الظلام، ثم عاود الظهور تحت ضوء مصباح الشارع. كان مطرقاً رأسه حاملاً طرداً. إنه روبرت!

عبرتِ كلارا الشارع بسرعةٍ أكبر فلم يغب ظهره عن عينيها أبداً. إلى أين يذهب؟

بووم! بدا الضجيج ضجيجَ رعدٍ ثقيلٍ.

واصلتِ كلارا المسير، ولكن العاصفة الرعدية المفاجئة كانت آخرَ ما تحتاج إليه ... فإذا ما باتتِ الأرصفة زلقةً، والهواءُ ضبابياً فقد تفقد أثر روبرت.

بووم! يووم! بووم! اهتز زجاج نوافذ المنزل المجاور لكلارا فارتعدت.

توقفت قدماها فجأةً فنما إلى مسامعها طنينٌ ميكانيكيٌ غريبٌ من جهة السماء؛ ففُتحت أبواب عدةٌ ، وشحبت وجوهٌ أطلت منها ليلاً، فاستشعرتِ كلارا ما في الأمر من غرابةٍ فقد وضع الناس أيديهم على أفواههم (التي كانت مفتوحةً على مصاريعها، فتَعجَبُ أنّ وجوههم لم تنكسر).

تناهت للمسامع أصواتُ أقدامٍ تصفع خدَّ الرصيف وهي تجري نحوها.

- «زيبلين.» قال صبيٌ بصوتٍ حادٍّ حينما عبر جسدُه الباهت. «زيبلين تهاجمنا! تحصّنوا.»

تفتّحتِ الأبواب وخرج الناس من منازلهم سعياً في الشارع قاصدين المستشفى، في الاتجاه الذي جاءت منه كلارا، فكان فيهم أب يحمل طفلةً صغيرةً بثياب نومها، وقد تحول رأسها نحو السماء؛ فقالت: «إني أراه يا أبت. إنه هناك. انظرا»

شخَصت كلارا ببصرها نحو الأعلى ببطءٍ متتبعةً جهةَ الخرير العالي؛ فإذا في

الأفق يلوح منطاد فضيّ طويل كأنه السيجار.

انتصب شعر رقبتها، فكتمت صرخة، وتسمّرت رجلاها في مكانهما.

الفصل الثامن والثلاثون
(زيبلين)

غار قلب كلارا في صدرها؛ ولكنهم ... كانوا في سوفولك؛ ومناطيد زيبلين لا تصل إلى أقصى الشمال، بل كان تهديدُها منحصراً في لندن والمدن الكبرى؛ لا في المدن الصغيرة في شرق إنكلترا؛ لكن كلارا تذكرت ما سمعته في البيت الكبير ... من انحراف مسار مناطيد زيبلين قبالة ساحل نورفولك ... والتقرير الذي قرأه السيد جيلبرت في الصحيفة. كانت راحتاها متدليتين وكانت معدتها منكمشةً.

اندفع رجلٌ بعربةٍ في الاتجاه الذي تقف فيه كلارا على الرصيف بلا حراكٍ، بينما كان كلبٌ صغيرٌ وببغاء صارخ في قفصٍ يتدافعان من جانبٍ لآخر بينما هو يركض. كان الناس يأخذون أنفَس متاعهم ويركضون للنجاة بحياتهم؛ فبات عليها أن تتبعهم ... وفوراً. بدأت أطرافها تذوب في رعشةٍ غريبةٍ جعلت أسنانها تصطك بجمجمتها.

سمعتِ كلارا من ورائها أجراسَ الإطفاء، ودويَّ عجلات العربة، فنبّهتِ الأجراس ذهولَها. روبرت. كانت عيناه لا تغفلان عنِ السماء كعينيها، لكنه لم يبقَ ساكناً، بل كان يركض بخطٍ مستقيمٍ في طريق آلة الطيران الألمانية الضخمة.

- روبرت! صاحت باكيةً بصوتٍ ضعيفٍ ابتلعته جلبةُ جرس الإطفاء، وأصواتُ المذعورين، وبكاءُ الأطفال؛ ولكن؛ لماذا لم يلتفت؟ أيُسعفها الوقت للركض وراءه والوصول إليه؟ تحاملتِ كلارا على المضي قُدماً، وراحت تسابق الرصيف نحوه.

انعطف روبرت يميناً متخذاً شارعاً ضيقاً مرصوفاً بالحصى.

زمجر منطاد زيبلين في الأعالي.

- «روبرت!» صرختِ كلارا مرةً أخرى بصوتٍ مرتجفٍ حملته أجنحة الريح، بينما كان روبرت يقرع باباً أحمرَ، والطردُ الذي كان يحمله عند قدميه، ثم انهال على الباب بكلتا يديه قرعاً فقرعاً.

- روبرت.» صاحتِ كلارا مرةً أخرى.

فاستدار والتقت عيناه بعينيها المتفاجئتين.

- زيبلين ... علينا الخروج من هنا، الآن! قالت ناظرةً مجدداً نحو منطاد زيبلين الذي غدا قريباً محوّلاً فجوات السماء بين المباني إلى فضةٍ منومةٍ متلألئةٍ، ثم أشاحتِ كلارا بعيداً رامقةً روبرت، فسارت نحوه ومدت له يداً مرتعشةً تدعوه لاتباعها قائلةً: أنا أعرف ما فعلتَه. أعرف أنك لص الفاكهة؛ ولكن لا تقلق. يمكننا أن نذهب ونقول للسيد جيلبرت و ...

نظر روبرت إلى الطرد عند قدميه، وهَمَّ بقول شيءٍ ما، لكن الوقتَ لم يسعفِ الكلماتِ.

دوّتِ الصلصلة في آذان كلارا بعنفٍ فخلق الوميضُ البرتقالي نجومَاً تتراقص أمام عينيها.

بووم!

بدا الوقت كأنما قد سكن، وأن العالمَ ساعةٌ توقفت عقاربها. قُذفتِ كلارا إلى الوراء فارتطمت ذراعها بالأرض بقوةٍ فراح كلُّ شيءٍ يدور، فلم تعد تعرف أعلى الطريق من أدناه؛ كما أصيبت ساقُها اليمنى بجرحٍ حلزوني غائرٍ آلمها جداً، فأومض كل ما في محيط رؤيتها دخاناً وناراً.

Telegram:@mbooks90

كانتِ النار تلتهم كل شيءٍ، والدخان الأسود الكثيف يخنق رئتي كلارا ويلسع عينيها، ثم ازداد ألم ساقها؛ فتحسستها بيدها فوجدت جوربها ممزقاً، وشعرت في أصابعها لزوجةً ودفئاً. كان دماً أجلسها وجعلها ألمه تصاب بالدوار. رمشت بعينيها، وسعلت محدقةً في دوامة الدخان، والأنقاض المغبرّة التي كان روبرت يقف عندها قبل لحظاتٍ فرأت قطعةً من الخشب الأحمر قرب ساقه اليمنى فراودها فجأةً شعورٌ بأنها تحلّق فوق الشوارع ما بين السحب مع منطاد زيبلين. إنه الباب الذي طرقه روبرت. لقد تكسّر قطعاً وتناثر خشبه إرباً كأعواد الثقاب مما يعني أن روبرت قد ...

استنشقتِ كلارا نصيباً من الغبار، وصكّت أسنانها، وحبت على ركبتيها. كان عليها أن تجده من أجل ويل؛ فأياً كان ما فعله روبرت، إلا أنه يبقى كل مل تبقّى لويل من

عائلته.

- روبرت. صاحت وهي تزحف نحو الركام.

- يا آنسة؟ يا آنسة؟ مشاعلُ تلوّح، وأيدٍ حطت على كتفيها وساعدتها على النهوض.

- لا. قالت دافعةً إياهم بعيداً فباغتتها موجةُ ألمٍ أخرى؛ فصاحت مجدداً: «روبرت ... كان عند ذلك الباب رجلٌ.»

- أي بابٍ يا آنسة؟ صرخ رجل منحنٍ فوقها فكان لقرب فمه من أذنها أن شعرت بأنفاسه على خدها ورائحة البصل فيه. نظرتِ كلارا نحو الخشب الأحمر المهشم، فلم تعد ترى هنالك باباً. لقدِ اختفى كما اختفى روبرت. تقلّبت على جانبيها وراحت تستجرّ أنفاسها لهثاً حثيثاً فكأنما سوّى أحدُهم رئتيها بالأرض، فلا هواء في الأرجاء تستجره من فمها فتملأ منه رئتيها لترفعا قليلاً صدرها الذي باغته ألم بالغ جعلها تغلق عينيها.

كان رجلان يحملان مصابيحَ يدويةً يحفران بين الأنقاض صارخين:

- هل من حيٍّ هنا؟ اصرخ إن كنتَ عالقاً.

قام الرجل الذي تنبعث منه رائحة البصلة بتطويقها ورفعها مجدداً ليوقفها على قدميها، غير أن كلارا كانت أضعف من أن تقاوم؛ فقال:

- اذهب لإحضار نقالةٍ فإنها تنزف.

- فتاةٌ مسكينةٌ! فكرتِ كلارا بخدرٍ: كم هي فظيعةٌ مثلُ هذه الإصابة! أيُّ حظٍّ سيئٍ هو هذا! حينها أدركت بصدمةٍ أنه يتحدث عنها.

- انظرا صاح صوتٌ آخر.

استجمعتِ كلارا كل قواها لتنظر للأعلى فكان الدخان والغبار يتبددان؛ وإذا برجلٍ يقف بين الركام يحمل شيئاً عالياً اخترقه شعاع مشعلٍ. كان شيئاً شائكاً مألوفاً آذى رأسَ كلارا وصدرها.

- أناناس! بكى الرجل مدهوشاً.

- لا. قالتِ كلارا لاهثةً.

قال الرجل الذي يزفر رائحةَ البصل وهو يحتضنها بين يديه: لن يمر وقتٌ طويلٌ، يا حبيبتي. سأنقلك إلى المستشفى بسرعةٍ.» وردّ شعرَها بعيداً عن خديها الناضحين عرقاً ودموعاً.

- الأناناس. قالت كلارا بلهفةٍ وهي تمد يدها، ثم أزالتِ الغبار من عينيها، وفتشت مجدداً عن الرجل الذي يمسك بالفاكهة، لكنه اختفى.

الفصل التاسع والثلاثون
(الحظ)

كانتِ اليد الموضوعة على جبين كلارا باردةً حانيةً، ولكنها شعرت ببعض الحرارة والحمى لاحتكاك الملاءات بجلدها.

- «إن الجرح الناجم عن الشظية غائرٌ عميقٌ جعلها تفقد الكثير من دمها، وسيترك فيها ندبةً كبيرةً، لكنها ستكون بخيرٍ. اعتقدنا للحظةٍ أنها اخترقتِ الرئة، لكنها كانت مجرد كدمة على ساقيها. إنها محظوظةٌ. همس رجل.

صوتٌ غريبٌ وغوغاءُ ذاتُ نشيجٍ بلغت مسامعَ كلارا.

فتحت عينيها.

كانتِ السيدة جيلبرت تنحني فوقها وتربت على جبينها برفقٍ مبتسمةٍ ابتسامةً مرتجفةً، ثم همست:

- أوه! أيتها الفتاة الصغيرة المسكينة! لقد أخفتِنا كثيراً.

التفتتِ كلارا فألفتِ السيدَ جيلبرت على الجانب الآخر من السرير جالساً شابكاً يديه كالمصلي بعينين محمرتين وشعرٍ أشعث أكثر من المعتاد كأنما هو عشُ طيرٍ.

- كلارا. قال ببساطةٍ

«زيبلين ...

القنبلة ...

روبرت ...

الأناناس ...»

عادها كل شيءٍ كموجة مدٍّ تطرق باب رئتيها لتستجر منها نفساً صغيراً تعيش به. التفتتِ كلارا جانباً لترى نفسها في غرفةٍ ذاتِ أسرّةٍ مصطفةٍ، وملاءاتٍ بيضاءَ ناصعةٍ،

وأصواتٍ مكتومةٍ، ورائحةٍ منظفاتٍ؛ فعرفت أنها في المستشفى.

- أمك في طريقها إلى هنا. لقد استقلت أولَ قطارٍ هذا الصباح، وستصل الليلة. قالت السيدة جيلبرت بهدوءٍ.

جف حلق كلارا كما لوِ اجترعت مقداراً من الغراء. هذا المساء؟ كم مضى على نومها؟

- روبرت. كيتي؟ قالت وهي تنظر إلى السيد جيلبرت، ووضعت يدها على ضلوعها التي شعرت أنها هشةٌ كما لو أن حصاناً استلقى عليها.

- كيتي بخيرٍ. لقد أخافتها القنابل، ففرّت بالعربة إلى أن وجدها أحد الصبية في المروج، فأُعيدت إلى الإسطبل. أما روبرت ... فلا نعرف أين هو. قال السيد جيلبرت مرتعدَ الوجه.

حاولت كلارا النهوضَ، فأعانتها السيدة جيلبرت، وعدّلت لها الوسائدَ، وانتظرت دقيقةً أوِ اثنتين ريثما تلتقط كلارا أنفاسها. «أحسنت! هذا كل شيءٍ! بلطفٍ وهدوءٍ! تنفسي بعمقٍ إنِ استطعتِ!» قالت وهي تدفع شعر كلارا بعيداً عن وجهها. كانت أصابع السيدة جيلبرت المرهقة ناعمةً مما جعل ضلوع كلارا تؤلمها أكثر.

أغمضت عينيها ظانةً أنها تنزلق في حلمٍ تتراءى لها فيه يدان حانيتان ترفعان شعرها وتطوقان عنقها بشيءٍ بديعٍ، لكنه لم يكن حلماً. فتحت عينيها مجدداً ومدت أصابعها إلى حلقها فأحست بصليب عقد السيدة جيلبرت الذهبي جاثماً في تجويف عنقها.

أخذتِ السيدة جيلبرت بيد كلارا الأخرى بين يدها، ودفأت أصابعها المتيبسة، وقالت وقدِ ارتسمت على فمها ابتسامةٌ صغيرةٌ: أريد أن تحتفظي بهذه القلادة؛ فإني أرجو أن تكون لكِ حرزاً وحِفظاً.

رسمت لها كلارا ابتسامةً واهنةً بينما أصابعها تنزلق على سلسلة الذهب التي غدت ناعمةً بلمس عمتها. كانت واحدةً من أعزِّ ممتلكات عمتها إذ كانت معها في السراء والضراء. طاف بكلارا طائفٌ من السكينة كأنها سماء الربيع الزرقاء إذ راودها شعورٌ

بأنها وعمتها باتتا صديقتين في الوقت المناسب.

تنحنحتِ السيدة جيلبرت، وطبطبت على وسائد كلارا (رغم انتفاء الحاجة لذلك) فبرقت عينا السيد جيلبرت، وربّتت على ذراع كلارا.

كان هنالك الكثير مما يستحق التفكير؛ ولكن ... «روبرت كان هناك، ثم لم يعد ...» همستِ كلارا. «القنبلة ...»

قدّمت السيدة جيلبرت لكلارا كوباً من الماء، فارتشفت منه رشفةً أراحت برودتُها حلقَها المختنق.

تناول السيد جيلبرت قصاصةً ورقيةً من جيبه. إنها الورقة التي أخذتها كلارا من سترة روبرت، والتي كانت تذكرة ذهابٍ بلا عودةٍ مدفوعةً بالكامل إلى البرازيل، وتعود للسيد روبرت ويلتشير. كان من المقرر أن تغادر سفينة رويال ميل البخارية ساوثهامبتون في الأسبوع التالي.

- عثرت عليها إحدى الممرضات في جيبك عندما نُقلتِ إلى المستشفى، وكانت تلك الممرضة تعرف روبرت إذ كان يُحضر الخضار هنا، فأرسلث للمنزل الكبير رسالةً تقول فيها إن فتاةً صغيرةً أصيبت بالانفجار ظانةً أنكِ تعملين هناك، فاتصلنا بها لنكتشف أنك تلك الفتاة. إنها ورقةُ حظك، فلولاها ما عرفنا ما حدث لك.

الحظ؟ أهو الحظ حقاً؟ حاولتِ كلارا جمع الحقائق معاً في رأسها. كل القرارات التي اتخذتها كلارا قادتها إلى هذه النقطة، فلو لم تأخذ الأوراق من جيب روبرت، ولم تقرر ملاحقته، فهل كانت الأمور ستختلف؟

أخذت من الماء رشفةً أخرى، وأعادتِ الكوب للسيدة جيلبرت، وقالت:

- رأيتُ أناناسَ بين الأنقاض.»

- يا لتلك الفاكهة المباركة! ففيها يكمن الكثير الإجابات. قالتِ السيدة جيلبرت بشفتين ضعيفتين.

- روبرت هو من كان يسرق الثمار. نحن نعلم هذا الآن. كان الرجل الذي يعيش في

ذلك المنزل الذي تم قصفه يبيعها في السوق السوداء. لقدِ اعترف بكل شيءٍ إذ لم يكن في بيته عندما وقع القصف، كما لم يكن يتوقع زيارة روبرت قبل اليوم التالي. لقدِ استخدم روبرت المال لدفع تكاليف رحلته إلى الخارج. قال السيد جيلبرت ثم أخذ استراحةً. «كان ويل بريئاً من التهمة، لكنكِ ارتكبتِ حماقةً كبيرةً يا كلارا بملاحقتك روبرت على ذاك النحو. كان يمكن للنتائج ... أن تكون أسوأ من هذا بكثيرٍ.»

- ويل بات حراً إذن. أليس كذلك؟ قالتِ كلارا وقد لان تشنُّج القلق في معدتها.

أومأتِ السيدة جيلبرت برأسها.

انهارتِ كلارا على وسائدها إذ باغتتها موجة ألمٍ ارتعد لها جسدُها. لقد ظهرتِ الحقيقة، وثبت أنها وويل كانا على حقٍّ بشأن روبرت الذي كذب على الجميع؛ لكن الارتياح والرضا بمعرفة أنهما كانا على حقٍّ لم يتسرب إليها بالمقدار الذي كانت تظن. مسكينٌ ويل! كان روبرت لصاً، أما الآن فهو مفقودٌ. لم يكن لويل في هذا العالم شخصٌ آخر، ولا مكانٌ يذهب إليه. ماذا سيحدث له الآن؟

الفصل الأربعون
(الأناناس البرازيلي القرمزي)

عانقتِ الأم ابنتَها كلارا عناقاً شديداً جعلها لا تكاد تستجر أنفاسَها؛ فقالت كلارا بضعفٍ: - أوه! هذا مؤلمٌ ... كفى.

ابتعدت أمها قليلاً وعيناها تدمعان، وقالت آخذةً بيدي كلارا بين يديها:

- ماذا فعلتِ؟ همست. «فاكهةٌ مسروقةٌ. صبيٌ. قنبلة منطادٍ. شظيةٌ في الساق. صحيحٌ أني أخبرتك أن تخوضي مغامرةً في كنف عمك وعمتك يا كلارا، بيد أن ما جرى لم يكن بالضبط ما دار في خلدي.

- هل تعافى كلٌّ من أبي وكريستوف؟ سألتِ كلارا.

- سيكونان بخيرٍ، وسيصلان إلى هنا الاسبوع المقبل. قالتِ الأم ضاغطةً على أصابع كلارا.

- ماذا؟ إلى هنا؟ اختلجت بواطن كلارا.

- نعم.، فقد وجد لنا عمك في الحوزة مقاماً، أم أنت فستظلين في المستشفى لبعض الوقت؛ وبذا يمكننا زيارتك كل يومٍ ريثما تتعافَين بما يكفي للعودة معنا إلى كينت؛ وهذا يعني كذلك أن أباك سيكون قادراً على قضاء بعض الوقت مع أخته، وأعتقد أنهما سيحبان الأمر. قالت أمها مبتسمةً.

تذكرتِ كلارا الصبي الصغير فرانك الذي لم تسنح له الفرصة أن يكبر فيتعرف إلى عائلته البعيدة في كينت، وفكرت في أبيها الذي كان يكافح للتعافي من تجربته المريرة في الحرب. ربما يكون لحديث أبيها وعمتها عن رعب السنوات القليلة الماضية أثرٌ طيبٌ ... فقد تعلمتِ كلارا أن الخيرَ في حديث المرء عما يزعجه، لا في دفنه طيَّ الصدر فيكبر وينمو نماءَ العشب.

- لقد تلقيتُ من وزارة الحرب رسالةً موجهةً لك ولأبي. قالت كلارا وهي تتحرر من عناق أمها.

رفعت أم كلارا حاجبيها وتنهدت وقالت:

- لقد أخبرتني إليزابيث بأنك لم تبتغي من وراء ذلك إلا حماية أبيك ... وحمايتي. وضغطت بأصابعها على عينيها: يبدو أن هذه الحرب زادت بطريقةٍ أو بأخرى تصميمنا على حماية أحدنا للآخر.»

أفسحتِ كلارا للفكرة مستقَراً تحت ضلوعها المتألمة. لقد سعى والداها لحمايتها بإرسالها إلى عمها وعمتها؛ كما كان شقيقها يحاول حماية بلادهم، أما هي فسعت في حماية ويل، وكذا حاولتِ السيدة جيلبرت حماية ذكريات ابن أخيها الراحل فرانك، ولكن؛ ماذا عن روبرت؟ لم يكن سعيه إلا لحماية نفسه، والتهرب من أخطائه ومسؤولياته وويل وموت أبيهما.

نظرت أمّ كلارا نحو الباب؛ فاتبعتِ كلارا موضع نظرها، ثم شهقت:

- «ويل.»

ابتسمت والدة كلارا وأشارت إليه أنْ تعالَ، فأمسك قبعته بيديه، وكانت عيناه ثقيلتين كليلتين كأنما لم ينم.

- سأضع هذه الزهور في الماء. قالت أم كلارا وهي تلتقط زهور الأضاليا الصفراء التي أحضرتها، وتوجهت نحو مقر الممرضات، ثم التفتت مبتسمةً لكلارا ابتسامةً مشجعةً.

كان هنالك كلامٌ كثيرٌ يمكن أن يُقال؛ ولكن من أين تكون البداية؟

وقف ويل عند حافة السرير محدقاً في ساق كلارا اليمنى المغطاة بالضمادات البيضاء.

- أهي تؤلمكِ؟ سألها.

- قليلاً فقط. قالتِ كلارا معتبرةً أنه لا يحتاج إلى معرفة الحقيقة كاملةً.

- تؤسفني حالُك! قال ويل بهدوء.

- ماذا؟ لا عليك! رددتِ كلارا.

اعتدل ويل في وقفته.

- اجلس من فضلك يا ويل؛ فأنت توترني بوقوفك هكذا.

جلس ويل على كرسيٍّ خشبيٍّ، ووضع قبعته في حجره، وفرك يديه.

- أنا من عليها الاعتذار؛ فلو لم ألحق بروبرت ... فربما ... قالتِ كلارا.

- لا. لا ذنب لك فيما جرى؛ فروبرت قدِ اتخذ خياراته بملء إرادته. قال ويل بحزم.

- كم وددتُ لو كانت خياراته خياراتٍ صائبةً. قالتِ كلارا بصوتٍ يشي بالبؤس والأسى.

- «لم تكن في حوزته سوى تذكرة سفينةٍ لشخصٍ واحدٍ، وهذا يعني أن اصطحاب روبرت لي لم يكن في حسبانه. لقد فتشت غرفته ظاناً أني قد أجد تذكرةً أخرى في مكانٍ ما هنالك. قال ويل مومئاً مطرقاً ببصره.

جاءت ممرضةٌ تقصد سريراً إلى جوار سرير كلارا، وبدأت في إعداد ملاءاته بيدين واثقتين راحتا ترتبانها وتضعانها في مكانها.

- إن ما قمتِ به هو شجاعةٌ فذةٌ. قال ويل ناظراً إلى كلارا لأول مرةٍ بعينين بدتا مفعمتين بالألم والمعاناة، لكنهما وشتا كذلك بشيءٍ آخرَ مختلفٍ ... بالراحة. «فلو لم تطاردي روبرت ... لبقيتُ محتجزاً.»

- لستُ الشجاعةَ يا ويل؛ بل أنت هو الشجاع. قالتِ كلارا حين دسّتِ شعرها خلف أذنيها.

طوّق الاحمرارُ خد ويل وعنقه كالعِقد.

- أمَا من خبرٍ عن روبرت إذن؟ لقد قال السيد جيلبرت ... إنه فُقد بعد انفجار القنبلة. قالتِ كلارا.

- لم يعد إلى الحوزة. لقدِ اختفى. قال ويل، وهز برأسه.

- لماذا؟ سألتِ كلارا.

- للسبب ذاتِه. قال ويل مطأطئَ الرأس في كرسيه:... فقد سرق الفاكهة، على ما أعتقد؛ ولم يعد يستطيع تحمُّل وفاة أبينا، ولا مسؤولية ... العناية بي؛ ثم إنه غاضب لأنه محرومٌ من التجنيد بسبب عينه، رافضاً الاعتراف أنه السبب في فقدانها أصلاً؛ ولذا فإنه يريد الهرب. أتُراه يحتاج إلى أن يختليَ بنفسه لبعض الوقت، ثم يعود إليّ بعد ذلك؟ ألقى ويل نظرةً خاطفةً على كلارا، والأمل يحترق في عينيه.

أيكون ويل على حقٍّ؟ أيعود روبرت؟ إن عاد فعلاً استجوبته الشرطة وأدخل السجنَ ربما؛ ولكن هل ستفوق قوة حبه لويل كلَّ ما سواه؟ تمنتِ كلارا ذلك؛ لكنها تذكرت أول مرةٍ قابلت فيها روبرت في الدفيئات، وتذكرت حديثه معها عن أحلام الأماكن البعيدة والشواطئ الاستوائية؛ وكيف كذب عليها بخصوص إصابة عينه، وكيف عهِد إلى ويل وحدَه بمسؤولية دفن متعلقات أبيهما، وتركه يتحمل مسؤولية السرقة وحده، وكيف لم يدفع لصبي الردهة ريد المالَ لقاء كتم خبرهما. لم يكن روبرت عند حسن ظن ويل به؛ لكن قبول ذلك متروكٌ لويل في وقته، فإذا ما آن أوانُ ذلك ستكون كلارا جاهزةً لمساعدته.

- وماذا ستفعل الآن؟ سألتِ كلارا وهي تضغط على ضمادتها برفقٍ.

- لقد كفلني آل جيلبرت.

- ماذا؟ هل تقيم في الكوخ الآن؟ قالتِ كلارا وهي تنظر إلى ويل متعجبةً.

- نعم. في غرفتك العلوية. لا أظنك تمانعين. أليس كذلك؟ هز رأسه.

هزت كلارا رأسها نفياً، ثم أخبرته أن والديها سيقيمان في الحوزة ريثما تتحسن حالي بما يكفي لعودتي إلى المنزل، وقالت: أحببت الإقامة في العلية؛ فهي تشعرني ... أني صغيرةٌ ... لكني في الوقت ذاته جزءٌ من شيءٍ أكبر لِما للغرفة من إطلالةٍ على الحدائق والدفيئات وكل ما فيها من نشاطاتٍ.»

- نعم، فلديك هنالك إطلالةٌ بديعةٌ على الدفيئات؛ فلا تدرين ما قد ترين، أو من قد

ترينه بالأحرى. قال ويل مبتسماً.

- بالتأكيد! قالتِ كلارا رافعةً حاجبيها، متذكرةً أول مرةٍ رأت فيها ويل يخرج من الدفيئات في هالةٍ من البخار. رغم سعادتها من أجله، إلا أن فكرة إقامته في العلية كانت غريبةً بعض الشيء، وكأنها كانت نهايةً لشيءٍ لم تكن مستعدةً تماماً لتقبله.

استندت كلارا إلى وسائدها من جديدٍ، وراحت تحدق في سقف المستشفى العاري (والمرتفع للغاية)، ثم قالت:

- آمل ألا تنفض السيدة جيلبرت العناكب بين عوارض العلية. وددتُ لو أنني أراها تبني شبكاتها مجدداً.

- ما زالت موجودةً هنالك، فلها الحق في الوجود مثلك ومثلي، وجميلةٌ هي صحبتها. قال ويل.

ابتسمتِ كلارا. كانت العلية مكانها الآمن، أما الآن فجاء دور ويل ليشعر بالأمان فيها.

- لقد منحني السيد جيلبرت عملاً في الحوزة. قال ويل بصوتٍ أكثر وضوحاً.

- في الدفيئات؟

- لا. ربما في يومٍ من الأيام إذا ما عملت بجدٍّ كافٍ. أراد أن يرى دفاتر ملاحظاتي، وقال إن بعض أفكاري جيدة. قال ويل بحزنٍ.

- هذا رائعٌ! قالتِ كلارا بابتسامةٍ اتسعت حتى بلغت خديها.

ثم عادت والدة كلارا ومعها إناء الزهور، فقالت:

- أعتقد أننا تحدثنا بما فيه الكفاية لهذا اليوم. ثم وضعتِ المزهرية على المنضدة إلى جوار سرير كلارا، وأضافت: أوه! كدتُ أنسى.» وتناولت من حقيبتها كيساً ورقياً بنياً ملفوفاً على عجلٍ، ووضعته في حجر كلارا، وقالت:

- إنه من الكونت.

- الكونت؟ هل التقيتِ به؟ قالتِ كلارا.

- «نعم. كان في الحدائق لزيارة الدفيئات و ... جذع الشجرة.» قالت أمّ كلارا ناظرةً إليها نظرةً متأنيةً تدل على أن السيدة جيلبرت قد أخبرتها بمأساة الصبي فرانك: كان الكونت يرتب لاجتثاث الجذع طالباً من البستانيين زراعة التوت والفراولة والتوت مكانه. إنه لرجلٌ بالغُ اللطف حقاً.»

«نعم.» فكرت كلارا. «إنه كذلك حقاً.» كانتِ السيدة جيلبرت ترنو إلى مكانٍ عَطِرٍ مفيدٍ يمكنها أن تذهب إليه في ذكرى فرانك بدلاً من جذع شجرةٍ قبيحٍ يذكرها بذلك اليوم المأساوي.

وضعتِ كلارا طرد الكونت على السرير، وأزالت ورقه بعنايةٍ، فإذا به أناناسة واحدة كبيرة جعلت ويل يشهق قائلاً: «أناناس برازيليّ قرمزيّ!»

أخذتِ كلارا الثمرة وقلّبتها بين يديها فراحت أشواكها تخز جلدها. لقد كانت ثقيلةً ناضجةً.

ابتسم ويل.

- قال الكونت شيئاً غريباً إلى حدٍّ ما ... لقد طلب مني أن أبلغك أمنياته لك بشفاءٍ عاجلٍ ... وأنه قد أنهى للتو قصة شارلوك هولمز الأخيرة، فكانت قصةً رائعةً ... وقال شيئاً ما عن ... دليلٍ مفقودٍ؟ قالت أم كلارا.

ارتسمتِ ابتسامةٌ صغيرةٌ على شفتي كلارا.

- ما معنى هذا؟ قال ويل ناظراً إليها بحيرةٍ.

- أوه! لا شيء. قالت.

كان المرضى الآخرون وزوارهم ينظرون ويتهامسون؛ فقالت سيدة لرجلٍ تزوره: -

- أأناناس. يبدو محلياً.»

- أأسأل الممرضة ما إذا كانت تملك سكيناً وطبقاً؟ سألت أم كلارا بخفةٍ ورأس

مائلٍ.

انحنى ويل في كرسيه. لم تكن تلك الصورة توافق ما ارتسم في خيال كلارا وويل من يومٍ مشمسٍ، وأطباقٍ فضيةٍ، وأوانٍ خزفيةٍ فاخرةٍ، ونسيمٍ يعبث بشعرهما بينما هما يقضمان دهونه الحلوةَ الصفراءَ؛ ولكنها تعلمت أن الحياة قد تُغير خططنا من دون استئذانٍ.

- سيكون ذلك مثالياً. قالتِ كلارا لأمها معطيةً ثمرة الأناناس لويل وقدِ ازدهر شيءٌ ما في صدرها؛ فقالت متفحصةُ الجناح من حولها: هلّا طلبت المزيد من الأطباق فضلاً؟ أعتقد أنها تكفي لنا جميعاً. ألا توافقونني الرأيَ؟

الإلهام الذي دفعني لكتابة
(حديقة الأسرار المفقودة)

عندما كنت صغيرةً، كنتُ إذا ما سألني أحدهم عن حبي للتاريخ من عدمه أجبته بضحكةٍ: «بالتأكيد لا.» فالتاريخ بالنسبة إليّ كان مرادفاً لكبار السن الذين يجلسون في الغرف المظلمة بين أكوام الكتب المملة ورائحتها العفنة؛ ولكني حين أفكر فيمن عاشوا في منزلي قبلي، أود لو أن لي أن أقشر الماضي تقشير البرتقال فأتمكن من التحدث معهم، فهذا بالتأكيد ليس تاريخاً؛ فقراءة كتبٍ مثل «نساءٌ صغيراتٌ» للكاتبة لويزا ماي ألكوت، وأمنياتي أن تعيدني آلة زمنٍ إلى أمريكا القرنِ التاسعَ عشرَ لا يعني أنني أحب التاريخ.

إن كل هذه الأشياء؛ باستثناء ما ظننتمُ الآن على الأرجح؛ تعني في الواقع أني أستمتع بالتاريخ ... لكني كنتُ أختبره بطريقةٍ تختلف عن طريقتي حين كنت أجلس في غرفة مليئة بالكتب المتعفنة! علمني هذا ألا طريقةٌ صحيحةٌ أو خاطئةٌ للاستمتاع بالتعلم من الماضي ... وأن كل ما تحتاج إليه هو خيالٌ يعود بك إلى هناك. إن كان لك أن تتخيل نفسك تعود بالزمن إلى الوراء لزيارة مكانٍ واحدٍ؛ فأين سيكون؟ هل سيكون منزلك أم حديقةٌ محليةٌ أم مدرستك؟ هل يمكنك العثور على خريطةٍ قديمةٍ لهذا الموقع عبر الإنترنت ومقارنتها بخريطة المنطقة اليوم؟ قد تُفاجأ فيما ستجده!

عندما قررتُ كتابة قصةٍ تدور أحداثها على ملكية إيكوورث في سوفولك خلال الحرب العالمية، أردتُ إجراء بحثٍ تاريخيٍّ يجعل حبكاتي وشخصياتي واقعيةً. صحيحٌ أني ما زلتُ أفتقد الحماس الكبير لقضاء ساعاتٍ في تصفح الكتب، غير أني أجد أن زيارة الأماكن غالباً ما تمنحني إلهاماً رائعاً للكتابة؛ ولذا تجولتُ في مساكن خدم منزل إيكوورث القابعةِ في ظلماتٍ تحت الأرض آخذةً هذا الأمر في حسباني حين كتبت عن بحث كلارا اليائس عن ويل بعد نقله إلى الأقبية.

أما دفيئات الأناناس في حدائق إيكوورث المسورة فمغلقةٌ حالياً عن زيارة الزوار

لأسباب تتعلق بالسلامة؛ ولذا فقد قمت بزيارة حدائق كامبريدج النباتية التي تحوي بيوتاً زجاجيةً جميلةً لا تزال قيد الاستخدام (لولا أن الأناناس لا يزرع فيها للأسف)؛ فقضيت فيها وقتاً أستمع إلى قطرات التكثيف، وأتنفس عبيرَ هواء ترابها الرطب، وأتخيل ما قد تشعر به كلارا وويل و هما وحدهما في ظلامها؛ لكن أحدَ أفضل ما بحثت فيه كان بحثي في أنواع الأناناس كلها التي اشتريتها وتذوقتها ... المكتنز منها والرقيق؛ الحلو منها والحامض! كان البحث التاريخي الذي قمت به لأجل هذا الكتاب ممتعاً وثاقباً ولذيذاً، وآمل حقاً أن تستمتعوا بالتعرف إلى كلارا وويل، والقراءة عن مغامراتهما في (حديقة الأسرار المفقودة).

آن-ماري هويل

أسئلة نادي القراء

• لماذا قررتِ كلارا - في اعتقادك - عدم فتح رسالة وزارة الحرب، رغم علمها أن فيها معلوماتٍ مهمةً ربما؟ أكان خوفاً؟ أم تيهاً؟ أم حفظاً للسر؟

• خلال الحرب العالمية الأولى، أُرسل العديد من الرجال للقتال في الجيش، مما دفع النساءَ والفتياتِ الصغيراتِ للقيام ببعض أدوارهن في المنزل وفي مكان العمل. بالنظر إلى الصفحات ٤٢ و ٥٩ و ٦١٤ التي سردت بعض المهام التي زاولتها النساء افتراضاً؛ هل فوجئتم بمنعهن أو عجزهن عن أداء تلك المهام حينها؟ لماذا؟ هل يمكنكم تسمية مهامّ أو أدوار أخرى أدتها النساء خلال تلك الحقبة؟

• والد كلارا قال لها: «أنت شجاعةٌ؛ وعندما تكونين شجاعةً، يمكنك أن تصبحي ما تريدين ... مستكشفةً في زلاجةٍ تجرها كلابٌ فتعبر بك الجبال الثلجية، أو منطادٍ يعمل بالهواء الساخن فيطير بك فوق الصحاري الملتهبة، أو تغدين عالمة نباتٍ تقومين باكتشافاتٍ رائعةٍ في غابات الأمازون.» فأغمِضوا عيونكم، وتخيلوا ما تتوقعون لها أن تكون، ثم اسألوا صديقاً لكم تخيله.

• (حديقة الأسرار المفقودة) قصةٌ مستوحاةٌ من تصفح دفتر ملاحظاتِ بستانيٍّ له من العمر مائةُ عام؛ فناقشوا؛ بعد قراءتكم رسالةَ آن-ماري حول ملهمها لكتابة هذه القصة؛ ما إذا كنتم قد زرتم يوماً مكاناً ألهمكم أن تتفكروا في الماضي، أو ما إن كان قد ألهمكم فكرةٌ أدت بكم للبدء بكتابة قصة ما؟

• كان الطلب على الأناناس مرتفعاً في بداية القرن العشرين إذ لم يكن يزرع كثيراً في إنكلترا، ولذا كان لا بد من استيراده من الخارج. بالنظر إلى فاكهة دفيئات الكونت فإن كلارا كانت مستعدةً لفعل أي شيءٍ لتذوق أحد أنواع الأناناس المزروعة في هذه المنطقة؛ فتخيلوا شكل ثمرة الأناناس تلك ... هل تعتقدون أن بإمكانكم تخيل مذاقها بناءً على رائحتها ومظهرها؟

• في الكتاب تختفي ثمارٌ وتظهر أخرى، كالبرتقال الذي تجده كلارا على جذع الشجرة؛ فمنِ الذي كان يسرق الفاكهة في رأيكم، ومن الذي كان يترك البرتقال؟ وهل فوجئتم بمعرفة من كان وراء كل ذلك؟

• اكتشفنا في النهاية أن روبرت كان يخطط للفرار منذ مدةٍ؛ فهل صدمكم ذلك؟ وهل يمكنك العثور على أي مقاطع أو أدلة قد توحي بأن روبرت لم يكن جديراً بالثقة كما كان يبدو؟

• لماذا اختارتِ المؤلفة آن-ماري هويل كتابة القصة بلسان الغائب في رأيك؟ وهل ستكون القصة مختلفةً لو سُردت بضمير المتكلم؟

شكر

أعتقد اعتقاداً راسخاً أن لكل حدثٍ سبباً، وأن سبب كتابتي هذا الشكرَ يعود لفضل وكيلتي الرائعة كلير والاس وليديا سيلفر الجميلة في دارلي أندرسون؛ فشكراً على المحادثات الحماسية والثقة المستمرة والدعم الذي لا يتزعزع ... فما كان لهذا أن يكون ممتعاً لولا دعمكم!

شكراً جزيلاً لفريق الأحلام في Usborne الذي ساعدني في إخراج هذا الكتاب، وأخص بالشكر المحررين ريبيكا وبيكي، فهما الأفضل حقاً؛ فقد أذهلني منذ البداية حبكما لكلارا وويل ومغامراتهما ... فهي الأشياء التي تصنع الأحلام! شكري أيضاً لسارة ستيوارت ... كانت تنقيحاتك جاذبةً للعين وإلهاماً لي في عملي؛ وإني حقيقةً أحصي الأيام التي تفصلنا عن الإصدار التالي. ظهرتِ الحدائق بشكلٍ مثاليٍّ أكثر مما تخيلتُ بفضل الرسوم التوضيحية الرائعة ... فشكراً جزيلاً لكاثرين ميليشوب لتصميمك الغلاف الجميل، وشكراً إيمي غرايمز على رسوماتها التوضيحية الجميلة. يستحق فريق الدعاية والتسويق في Usborne كذلك ذكراً، وشكراً خاصاً ... ولا سيما كاتارينا يوفانوفيتش وماريسا دولاك ومستشارة العلاقات العامة فريتا ليندكفيست؛ فأفكاركم الإعلانية والتسويقية رائعةٌ، وسأبقى ممتنةً لكم أبداً، للوقت والاهتمام اللذين كرستما للترويج لهذا الكتاب.

شكراً كورتيس براون كريتيف وكاثرين جونسون (المؤلفة المتميزة)، والشكر لزملائي في دورة الكتابة لعام ٢٠١٥ ورواية الأطفال على تعليقاتهم وضحكاتهم وتشجيعهم؛ فقد فتحت هذه الدورة عينيَّ على عالم الكتابة والتحرير والوكلاء، وكانت بمنزلة الدافع الذي أحتاج إليه لبدء الإيمان بها.

شكري كذلك لكتّاب Doomsday الأعزاء على مناقشاتكم وترويحكم عني خلال تقلبات السنوات القليلة الماضية. أعتقد جازمةً أنْ لا بد لكل كاتبٍ من وصفةٍ كفريقكم هذا.

إلى كلٍّ من سام ودارين وسيرينا، زملائي مؤلفي الإصدار الأول من Usborne

٢٠١٩ أنسب الفضل أيضاً فقد كان من دواعي سروري حقاً التعرف إليكم، فكانت مناقشاتنا حول كل ما يتعلق بالكتابة والتحرير عوناً لي وسنداً!

لولا عقار إيكوورث وحدائقها ما كان هنالك تاريخٌ، ولذا شكراً جزيلاً لموظفي الصندوق الوطني، وخاصةً شون ريد الذي أطلعني بسخاءٍ على حدائقها المسورة، وتحدث عن اكتشاف دفتر الملاحظات. شكراً كذلك للعاملين في منزل إيكوورث على السماح لي «باستعارة» كلماتهم الممتازة لصالح سبورة السيدة جيلبرت، وللجولة الملهمة في مساكن الخدم التي أعطتني لمحةً عن عالم كلارا.

إلى والديّ العزيزين؛ أشكركما على جميع الكتب والرحلات الكثيرة للمكتبة في طفولتي؛ فقد عززتْ حماستي وحبي للقصص والكتابة، وسأكون دائماً ممتنة لكما.

شكراً جزيلاً لولديّ جاك وإد. أشكركما على تحمل مزاجي الغاضب عندما لم تكن الكتابة طوعَ بناني، وتحمل التأخر في حفلات العشاء عندما تكون؛ وأعدكما ألا أتحدث عن الحبكات أو الشخصيات أو كتابي القادم على وجبات الطعام.

لا بد لشكري الأخير أن يكون من نصيب زوجي العزيز جيرمي؛ فتشجيعك السخي الصادق شكّل بالنسبة إليّ فارقاً كبيراً. أتذكر أنك أخبرتني ذات يومٍ أن بين جوانحي كتاباً ما، وكنتَ محقاً!

Telegram:@mbooks90